

من روائع الفكر الإنساني

مدرسة الحكمة

تأليف
الدكتور عبد الغفار مكاوي

دراسات في فلسفة

أفلاطون

أرسطو

بوينتيوس

پارمنيدز

هيراقليطس

سقراط

مدرسة الحكمة

تأليف

الدكتور عبد الغفار مكاوي

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر
بالمعصرة





دراسة الحكمة

٨٧

١٩

مرونة

الدكتور عبد الله سفار مكادي

دراسات في فلسفة

- پارمنیدس
- هیراقلیطس
- سقراط
- أفلاطون
- أفلاطون
- بوشنیوس
- پیاسکان
- نیلیتشی
- هیدجر
- آلبیر کامی

بتمام

القوة الهائلة للحكمة المطبوعة كتب غيرت العالم

يصف هذا المجلد ستة عشر كتابا
عظيما غيرت مجرى التاريخ . هؤلاء
الكتاب الخالدون في الذاكرة ابتداء
من كوبرنيكوس Copernicus وهاريت
Harriet وبيتشسترستو Beecher Stowe
الى داروين Darwin وفرويد Freud
واينشتين Einstein اثاروا الناس ضد
الظلم وبدأوا الحروب وقلبوا آراء
الانسان عن الدنيا وعن نفسه .

هذه الكتابة
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكريا بطرس

الكتب أسلحة

أثبتت الكتب قوة هائلة من أجل الخير ومن أجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشرى . هالك مناقشة فاحصة لستة عشر كتاباً من أهم مؤلفات جميع العصور ، كان لها تأثير على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمذنية والفكر العلمى ، من عصر النهضة الى يومنا هذا .

أنها كتب باللغة القوة ، مثل : « Mein Kampf » لهتلر Hitler ، ذلك الكتاب الذى تنبأ بالموت والدمار اللذين أحدثتهما الحرب العالمية الثانية ، وكتاب هارفى Harvey الشهير عن الدورة الدموية ، الذى غير النظرية الطبية والعلاج ، ونظرية أينشتاين Einstein عن النسبية التى بدأت العصر الذرى . وصفت هذه الكتب وصفاً دقيقاً واضحاً فى هذا الكتاب المثر السهل القراءة . ومؤلفه هو الدكتور دوانز Dr. Downs الرئيس السابق للمكتبة الامريكية ورئيس مكتبة جامعة إلينوى Illinois ، يبين بوضوح ذلك النفوذ الحاسم والواسع الانتشار لهذه الكتب وكتب أخرى ، منها عرض نيوتن Newton لاكتشاف قوانين الجاذبية التى صارت حجر الزاوية فى النظرية العلمية اليوم . وكتاب داروين Darwin « أصل الأجناس » ، الذى ظن الكثيرون من رجال الكنيسة أنه يتعارض مع تعاليم التوراة ومؤلف هاريت بيتشرستو بعنوان « كايينة العم توم » الذى يعتبر أحد الأسباب الرئيسية فى الحرب الاهلية الامريكية . وتفسير فرويد

للاحلام ، ذلك المؤلف العظيم لرجل أحدث انقلاباً في افكار الرجل
العصرى عن نفسه •

وهاتحين ذا نقدم هنا عرضاً مثيراً لكتب من عدة عصور تبين
القوة الهائلة للكلمة المطبوعة واثرها على التقدم البشرى •

المقدمة

يقول وهم شائع على نطاق واسع أن الكتب جمادات هادئة خاملة ليس لها تأثير ، أنها خاصة بالاماكن الحبيسة والهدوء النظرى للاديرة والجامعات وغيرها من اماكن الهروب من العالم المادى الشرير . وتبعاً لهذه الفكرة الغريبة الخطأ ، تزخر الكتب بالنظريات غير العملية ، وأهميتها تافهة لرجل الاعمال ذى الرأس الصلب .

حظى متوحش الغابة بفهم أكثر واقعية وهو ينحنى أمام الصفحة المطبوعة ، لقوتها الخارقة على نقل الرسائل . وتتراكم الأدلة فوق الأدلة ، طوال التاريخ ، على أن الكتب بريئة وعديمة الضرر وغير تافهة . فهي غالباً ما تكون عظيمة الحركة وافرة الحيوية قادرة على تغيير مجرى الاحداث تغييراً كلياً - للخير أحياناً وللشر أحياناً أخرى .

لدى دكتاتورى كل عصر نظرة داخلية حكيمة الى القوة الهائلة للكتب . فكلما واينما ارادت حكومات

الطغاة وذوى السلطان ايقاف المعارضات وقتل الآراء
 اتجه تفكيرها ، دون استثناء تقريبا ، الى ائتلاف كتب
 الآراء المضادة ، وفي أغلب الاحيان ، الى اهلاك
 مؤلفيها . غير انه ، على نقيض ذلك ، التفت هؤلاء
 الطغاة الى صالحهم ، ففرضوا سيطرتهم على أولئك
 الناس ، وعلى كتب بعينها ، مثل كتاب هتلر «نضالى»
 وكتاب « رأس المال Das Capital » لكارل ماركس
 Karl Marx والكتابات الضخمة التى كتبها لينين
 Lenin وستالين Stalin . وما من أحد يدرك ،
 خيرا من الطاغية نفسه ، ضخامة القوة النافذة الكامنة
 فى الكتب .

وفى بعض المناسبات ، تطبق هذه الفكرة فى الامم
 الديمقراطية ، مثال ذلك ، الاحساس المنتشر واسعا
 بالصدمة وعدم التصديق بين افراد الشعب الامريكى
 واصدقائهم فى الخارج منذ بضع سنوات خلت بأن
 ادارة حكومة الولايات المتحدة شغلت فى مكاتب
 الاستعلامات بالخارج ، فى برنامج ضخم للرقابة على
 الكتب ، وفى عدة أماكن أخرى باحراق فعلى للكتب .
 فكان رد الفعل عنيفا لدرجة أن الرئيس ايزنهاور
 Eisenhower نفسه تدخل فى الأمر محاولا تبرئة
 سمعة الحكومة الامريكية ، فلقى خطابه المشهور
 «لاتنضم الى حرقى الكتب » . رأى الناس بغريزتهم
 فى كل مكان ، أن الكتب ضرورية وأساسية للثقافة
 والحضارة الحديثتين ، كما كانت فى القرون الماضية .
 الفرض من هذا المؤلف هو توضيح القوة العاتية
 للكتب ، عن طريق مناقشة أمثلة معينة . فأولا ، يجب

التركيز على أنه ليس في نيتنا تقديم قائمة «بأحسن الكتب» أو «أعظم الكتب» ، فان عمل مثل هذه القوائم هواية محبوبة لتمضية الوقت لنقاد الادب والمؤلفين والناشرين ورجال التعليم وأمناء المكتبات ، الذين تنحصر توصياتهم في العلوم الادبية . أما الهدف منه فهو اكتشاف الكتب التي كان لها اعظم اثر عميق على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمدنية والفكر العلمى منذ عصر النهضة ، تقريبا ، الى منتصف القرن العشرين .

المشكلة في مثل هذا الامر ، هي بالطبع في الاختيار تأتي الى الذاكرة تلقائيا حفنة من العناوين ، فيتنوع الاختيار منها تنوعا كبيرا ، ويحذف معظمها عند استعمال العدد الواقع في الصف الاول ، اذ لابد أن يكون هذا الكتاب ذا وقع عظيم مستمر على الفكر والعمل البشريين ، ليس لامة واحدة فحسب ، وانما لاعظم جزء من العالم . وعندما يتعرض المرء لهذا الاختبار القاسى ، يأخذ في حذف عنوان بعد آخر .

لاسباب عملية تقرر عرفيا حصر النقاش في كتب العلوم والمواد الاجتماعية ، وحذف تلك المجالات الواسعة كالدين والفلسفة والادب . وقد يحدث أن يكون تأثير الروائع الدينية والادبية اقوى بكثير من تأثير بقية الانواع مجتمعة . ولكن ، كيف يتسنى للمرء أن يعرف تأثير كتاب مثل ترجمة الملك جيمس James للتوراة ؟ ان استخدام أى هدف على مستوى غير موزوعى لا يتفق ومثل هذا المؤلف العجيب ، أو ادب شكسبير Shakespeare وملتون

Milton الذى يخلق عقبات كأداء ، فوقعها على المجتمع شامل تماما : على اللغة والأدب والفلسفة وطرق التفكير والاخلاق، وكل وجه من وجوه الحياة ، لتكون بالغة الاتساع .

رغم هذا ، هب اننا نضمن كتابنا : الدين والفلسفة قديهما وحديثهما ، اذن لصار لدينا عدد ضخم من الكتب : التوراة (ترجمة الملك جيمس ودواى Douay) والتلمود والقرآن والبوذية المقدسة والكتابات الهندوكية ، وكونفوشيوس Cofucius والفلاسفة الاغريق والقدّيس أوغسطين St. Augustine والقدّيس ثوماس اكوينوس St. Thomas Aquinas ومارتين لوثر Martin Luther وعمانوئيل كانت Immanuel Kant وكثير جدا غير هذه الكتب . واذا نظرنا الى الكتب من ناحية تأثيرها وجدنا هناك مؤلفين أمريكيين هما : «العلم والصحة» تأليف مارى بيكر ادى Mary Baker Eddy وكتاب «المورمون Mormno» « لجوزيف سميث Joseph Smith (١) » .

وربما كان الاصعب من هذا هو اختيار اعظم ما فى التراث الادبى : الخيال والدراما والشعر والنثر، الذى حرك مشاعر العالم وايقاهه . تخطر على البال مباشرة مثل هذه الاسماء لكتاب الاغريق والرومان الكلاسيكيين ، ودانتى Dante وتشبوسر

(١) المورمون مذهب نشأ فى ولاية أوتاه بالولايات المتحدة الأمريكية ، ينادى بتعدد الزوجات

وسيرفانت	Rabelais	ورابليه	Chaucer
وشكسبير	Molière	ومولير	Cervantes
وجوته	Milton	وميلتون	Shakespeare
ودستوفسكى	Heine	وهين	Goethe
، وعشرات غير هؤلاء ممن ربما كانوا			Dostoevsky
			أقل مرتبة .

ومن الكتب ذات التأثير البالغ ، كتب الرحلات ،
 التي وسعت أفق الانسان منذ عصر ماركو بولو
 Marco Polo وعملت على رحابة عالمه . فتح
 رحالة العصور الوسطى المنقطع النظير ، ماركو بولو ،
 في القرن الثالث عشر بلاد الشرق التي لم تكن أوروبا
 تعرف عنها شيئا ، وترك سجلا مشيرا من مغامراته
 واكتشافاته . كذلك خطاب كريستوفر كولومبوس
 Christopher Columbus لسنة ١٤٩٣ الذي يصف
 فيه أولى رحلاته الى أمريكا والذي ترجم في
 الحال الى عدة لغات مختلفة ، وطبع في شتى دول
 أوروبا . وبطبيعة الحال خلق اثارا وممتعة بالفن .
 وتلا هذين بفترة قصيرة خطابات أمريجو فيسبوتشي
 Amerigo Vespucci التي أوجبت تساؤلا أكثر، وطبعت
 في سنة ١٥٠٧ بمعرفة مارتين والسيمونر Martin
 Waldseemüller في مؤلفه Cosmographiae Introductis
 (مقدمة أنظمة الكون) . فأدى هذا المؤلف الى تسمية
 الدنيا الجديدة باسم « أمريكا » . وكان القرن الذي
 تلا ذلك اشهر حقبة للرحلات والاكتشافات في التاريخ
 المسجل ، رأت فيضا من ادب الرحلات المطبوع جمع

معظمه ريتشارد هاكلويت Richard Hakluyt في أواخر
القرن السادس عشر في مؤلفه الشهير
Principal Navigations, Traffics and Discoveries of the English
Nation

كما جمع بعضه صموئيل بوركاس Samuel Purchas
في مؤلفه Pilgrims

وفي مجال الترحال ، يجب ألا نغفل الكتب
الخيالية البحتة ، مثل كتاب «حول العالم في ثمانين
يوما» تأليف جول فيرن Jules Verne (١٨٧٢) ،
ذلك الكتاب الذي أثار المخيلة بما لم يشهها مثله أي
كتاب غير خيالي . وحديثا جدا (١٩٤٣) ألف ونيل
ويلكي Wendell Willkie كتاب «عالم واحد»
فأسهم كثيرا في منح مواطنيه نظرة خارجية دولية ،
واعب دورا في فكرة تنظيم «الأمم المتحدة» .

من الممتع أن نلاحظ ونقارن بين المحاولات السابقة
لحصر أسماء الكتب التي لها أعظم تأثير . وقد أعد
ادوارد وينكس Edward Weeks وجوهين
ديوى John Dewey وتشنارلز أ . بيرد
Charles A. Beard في عام ١٩٣٥ لمجلة الناشرين
Publisher's Weekly . فاختار كل من هؤلاء ٢٥
كتبا صدرت منذ عام ١٨٨٥ كان لها في رايه أعظم
تأثير . تضم القائمة الأخيرة المختارة من هذه خمسين
عنوانا ، كان أربعة منها فقط («رأس المال» لماركس ،
و «نظرة إلى الوراء» تأليف بيلاني Bellamy ،
و «الفنن الثلاثة» تأليف فريزر Frazer ،
و «تدهور الغرب» تأليف سبنجلر Spengler)

اختيرت بالاجماع ، بينما نال ٢٩ عنوانا صوتا واحدا فحسب . ومن بين الكتب التي ناقشها في هذا المؤلف للمدة التي اختاروها ، ماكندر Mackinder ، لم يذكره كل من ويكس وديوى وبيرد ، بينما لم يختار كتاب هتلر سوى بيرد ، وكتاب ماركس وحده هو الذي اختاره الجميع . ولاشك في أنه في فترة عشرين سنة ، تقوم هيئة ممتازة من الحكام باحداث تغييرات كبيرة ، اذا استطاعت ، اليوم ، أن تراجع ، ماسبق ان اختارته .

بعد ذلك ببضع سنين (١٩٣٩) قام مالكولم كاوى Malcolm Cowley وبرنارد سميث Bernard Smith بمحاولة تشبه هذه ، لاختيار الكتب التي غيرت عقولنا ، وبمعاونة فئة مختارة من رجال التعليم والمؤرخين والنقاد والمحاضرين ورجال الاعلان الامريكيين ، جاء ١٢ عنوانا في رأس القائمة على انها ، في حكم هذه الفئة ، أهمها في تشكيل العقل الأمريكي المعاصر ، ولكنهم أوصوا ب ١٣٤ كتابا أخرى ، فكان الاختيار النهائي :

فرويد : « تفسير الأحلام »

آدمز : « تعليم هنري آدمز » .

تيرنر : « الطبيعة في التاريخ الأمريكي »

سمنر Sumner « طرق الشعب Folkways »

فيلين Veblen : « مشروع العمل » .

ديوى Dewey : « دراسة في النظرية المنطقية » .

- بواس Boas : «عقل الرجل البدائي» .
- بيرد : « التفسير الاقتصادي للدستور » .
- ريتشارز : « مبادئ النقد الادبي » .
- بارنجتون Parrington : « التيارات الرئيسية في الفكر الامريكي » .
- لينين Lenin : «الدولة والثورة» .
- سبنجار : «تدهور الغرب» .

ومن هذه الاثني عشر كتابا راى ويكس وديوى
وبيرد اختيار مؤلفات فرويد وادم وثيرنر وسبنجلر .
وقام الكاتب الانجليزى هوراس شيب
Horace Shipp بمحاولة اخرى لاختيار اعظم
الكتب تأثيرا ليستعملها في كتابه « كتب حركت
العالم » (١٩٤٥) دون تحديد للزمان أو المكان أو
الموضوعات . فاستقر راي شيب على اختيار عشرة
كتب هي :

التوراة

- افلاطون Plato : «الجمهورية»
- القديس اوجستين : «مدينة الله» .
- « القرآن » .
- دانتي : «الكوميديا الالهية» .
- مسرحيات شكسبير .
- بنيان Bunyan : « تقدم الحج » .
- ميلتون : « عضوية محكمة جنابات اثينا » .

ماركس : « رأس المال » .

وبالنسبة للتحديد المفروض في دراستنا هذه تحذف كل هذه الكتب ماعدا الثلاثة الأخيرة من هذه العشرة ، وفعلا ، لم يضم مؤلفنا غير الكتابين الآخرين .

يتضح مما سبق أنه من الصعب جدا الاجماع على كتاب بعينه . والاختيار أمر شخصي الى درجة كبيرة وموضوعي جدا . والاتفاق التام على معظم الكتب المختارة غير محتمل ، ومع ذلك نأمل في أن تكون قد وفينا كل كتاب حقه من الدراسة والتحصيل الدقيقين . وكذلك فعلنا في مؤلفيها . ويجدر بنا أن نذكر بعض المؤلفات التي درست بعناية ودقة ، ثم حذفنا لسبب ما أو غيره .

فمثلا ، يوجد بين الكتب الكلاسيكية للعلوم كتاب « مصنع جسم الإنسان De Corporis Humani Fabrica (١٥٤٣) » للمؤلف أندرياس فياليوس Andreas Vesalius ، جدير بمكان في تاريخ الطب ، على قدم المساواة مع مؤلف هارفي « De Motu Cordis » وتقف مؤلفات ليبنز Leibniz في الرياضيات والطبيعة في صف واحد مع « مبادئ الرياضيات Principia Mathematica » لاسحق نيوتن . وفي العلوم الاجتماعية : كتاب « الطبيعة في التاريخ الأمريكى » تأليف فردريك جاكسون تيريز .

Frederick Jackson Turner وهو مؤلف لامع
مستحدث يحظى ، فى العالم ، بأهمية أقل ، فى
مجاله ، من «المحور الجغرافى للتاريخ» تأليف ماكندر
Mackinder وكان كتاب « الشيوعى البين »
تأليف ماركس وإنجلز Marx and Engels
قوة محركة للتغير الاجتماعى لمدة تزيد على القرن ،
ولكنه أقل نضجا وأقل عناية فى مستنداته ، وربما
كان أقل نفوذا فى تلك المدة الطويلة من كتاب « رأس
المال » لماركس . ويفضل بعض النقاد كتاب « جماعة
الوالدين Walden (١) » تأليف ثورو Thoreau
على كتاب « العصيان المدنى » ومع
ذلك ، فالأول أقل قوة فى تأثيره . ومن الكتب
المؤثرة الأخرى : « حياة واشنطن » (١٨٠٠) تأليف
بارسون ماسون لوك ويمس Parson Mason
Locke Weems الذى ظل مدة ستة أجيال
يساعد فى توجيه الفكر والتراث الأمريكىين (ولا سيما
فى حالة أبراهام لنكولن Abraham Lincoln)
وكتاب « سنتان أمام الصارى » (١٨٤٠) تأليف
ريتشارد هنرى دانا ، وهو منظوم شعرا فعل الكثير
فى تحسين أحوال البحارة الأمريكىين فى البحر ،
وكتاب « الأدغال » (١٩٠٦) تأليف أبتون سنكلير
Upton Sinclair الذى كشف أمورا مؤسفة
فى بورصة العقود بمدينة شيكاغو Chicago
وأدى الى أحداث اصلاح جذرى . بيد أن هذه

(١) جماعة مسيحية شديدة التمسك بتعاليم الإنجيل .

الكتب الثلاثة الأخيرة حكم عليها بأن نطاق تأثيرها محدود فلا يصح أن تشملها دراستنا .

أشار علينا البعض ، وربما كان ذلك عن سوء قصد رغم أن الكتب ذات أهمية تستحق الدرس ، أشاروا علينا بأن نضمن مؤلفنا « كتاب الطهو لمدرسة الطهو بمدينة بوسطن Boston » تأليف فاني فارمر Fanni Farmer وكتاب « الاثيكيت » تأليف اميلي بوست Emily Post ، وكتاب « السلوك الجنسي لكل من الذكر والانثى من البشر » تأليف الدكتور ألفريد كنسي Alfred Kinsey

من بين الستة عشر كتابا التي تضمها القائمة النهائية ستة مؤلفات تدخل في باب العلوم ابان المدة من ١٥٤٣ الى ١٩١٥ ، وعشرة كتب في المواد الاجتماعية في المدة من ١٥٢٣ - ١٩٢٧ . ولا شك في أن هذا التصنيف عن غير قصد اذ كان الوقع الاجتماعي للمؤلفات العلمية تاما وعميقا كالمؤلفات المذكورة في كتب المواد الاجتماعية نفسها . وكتاب « كابينة العم توم » لمسز ستو ، رغم صورته الخيالية ، جدير في كل ناحية بأن يكون حجة اجتماعية .

عندما يستعرض المرء هذه الستة عشر كتابا ، المحملة بالحركة ، يطرأ على بالنا دائما هذا السؤال : هل عملت العصور الكتاب أم أن العكس صحيح ؟ أي هل كان كتاب معين ذا نفوذ بسبب أن الزمن كان مستعدا له ؟ هل يمكن أن تكون لهذا الكتاب نفس الأهمية في عصر آخر ، أو هل يمكن أن يكتب في أي تاريخ آخر ؟ وانه ليتعذر الهروب من استنتاج أن

الازمنة أنتجت الكتاب ، في كل ناحية تقريبا الا انه
ما كان بالامكان ان يؤلف هذا الكتاب في أى عصر
تاريخى آخر ، او انه اذا ظهر فما كان ليحظى بمثل
هذا الاهتمام .

بين ايدينا كثير من الامثلة : فقد وضع
ماكياڤيلى Machiavelli كتاب « الامير »
لتحرير وطنه الحبيب ايطاليا من الاعتداء الاجنبى .
كانت انجلترا على استعداد لتوسيع اقتصادها
التجارى والصناعى الى اقصى حدود تستطيعها ،
عندما كان آدم سميث يؤلف كتاب « ثروات الامم » .
كما ان كتاب « الادراك العام » لمؤلفه توماس بين ،
قد اشعل نار الثورة الامريكية التى كانت ناضجة
للالنفجار في أى وقت . كذلك فعل كتاب « كابينة
العم نوم » تأليف هاريت بيتشرستو ، للحرب
الاهلية . ولولا الاحوال القاسية السائدة في الصناعة
الاوروبية ولاسيما نظام المصانع الانجليزية في منتصف
القرن التاسع عشر ، لنقصت ذخيرة كارل ماركس
لتأليف كتابه « رأس المال » .

أوحى كتاب « اثر القوة البحرية على التاريخ »
تأليف - أمير البحر ماهان Mahan بتكوين
تجانس بحرى بين القوى العالمية بعد عام ١٨٩٠ .
غير ان ضغط مغامرة التوسع والاستعمار ، كان
موجودا من قبل . ولولا الفوضى التى سادت المانيا
في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لبقى هتلر مبيض
بيوت نمساوى غير معروف .

ومن ناحية أخرى ، وكما هي الحال في
الكبسولات البطيئة المفعول ، هناك كتب لم تحدث
تأثيرها الكامل الا بعد سنوات من نشرها . فمثلا كان
آدم سميث وكارل ماركس في غداد الاموات عندما
ادرك العالم أهمية كتابيهما . ومضى نصف قرن على
موت ثورو عندما طبق المهاتما غاندى في الهند وجنوب
أفريقيا ، مذهبه الداعي الى العصيان المدني . ولولا
قيام المدرسة الالمانية لسياسة التوسع الجغرافي ،
ما لقيت نظريات ماكنذر التي صاغها قبل ذلك
بعشرات السنين ، ما لقيت الاهتمام الذي تستحقه .
وهذه أسماء بعض رواد المفكرين الذين عرفوا
الفشل في أوائل مؤلفاتهم ، وقيام تلك المؤلفات
باستجداء القراء .

يتردد في القطاع الخلفى من الدهن سؤال عندما
يتأمل المرء قائمة الكتب المختارة ، الا وهو : كيف
يمكن قياس التأثير ؟ وكما سبق أن قلنا ، كان
الهدف هو اختيار الكتب التي يمكن الحكم على
آثارها بمصطلحات النتائج الثابتة او الافعال . أى
انها يجب أن تكون قد مارست علاقة مباشرة بتيارات
أحداث معينة . وكثيرا ما حاول كتاب ما ايجاد حل
لبعض المشاكل في مجال محدد في فترة معينة . ولما
كانت أمثال هذه الكتب تتناول أمورا زمنية
وموضوعية ، فانها تميل الى أن يجرى عليها القدر
سريعا أكثر مما يجرى على الكتب الدائمة او كتب
الفلسفة او الأدب .

والمقياس القريب الصحيح لمدى التأثير هو قوة

العاطفة المعاصرة الميلالة الى تلك الكتب او المعارضة لها . فاذا اثار كتاب ما معارضة عنيفة وشعورا معائلا من التأيد لوجهة نظره ، فالاحتمالات أنه قد أثر تأثيرا عميقا على تفكير الناس . كما أن الرقابة الرسمية والجهود الأخرى المناوئة ، ايجابية في مفهومها . والنظرة الداخلية الى مثل هذه الانفعالات تمدنا بها بعض المصادر مثل الصحف المعاصرة ونشرات الأدب الجدلى ومذكرات المؤرخين والدراسات البيوجرافية . والاختبار القاسى هو ما اذا كانت النظريات او البرامج او الافكار والمدافعون عنها ، تحظى بالقبول نهائيا او لا تحظى به ، وهل تعبر الحدود الدولية وتترجم الى اللغات الأخرى وتعمل على خلق التلاميذ والأنصار والمحاكين والمنافسين ، وتندمج تدريجيا في حياة الناس والأمم وفي أفكارهم .

من مظاهر الشهرة الغربية تكوين صفات ومصادر صناعية من الاعلام لوصف فكرة معينة او نموذج معين أو رأى بعينه وهكذا تضاف هذه الكلمات والمصطلحات الى مجموعة الألفاظ اليومية ، مثل : الماكيافيلية Machiavillian والكوبرنيكية Copernician والمالثوزية Malthusian ولينوتونية Newtonian والفرويدية Freudian والداروينية Darwinian والماركسية Marxism والهتلرية Hitlerism . ليدل كل منها على مجموعة معينة من الافكار ويقرر شهرة بعض الفضاخ في نموذجها الاصلى ، وهذا يتوقف على وجهة النظر . وبالنظر الى الصعوبة القصوى في امكان قراءة

معظم عناوين قائمة الاختيار يمكن السؤال عن هذا الأمر بطريقة معقولة منطقية : كيف يمكن لهذه المؤلفات أن تحدث تأثيراً على أى فرد عدا عددا محدودا من الاختصاصيين ؟ وبالطبع ، يستطيع نفر قليل من العوام أن يفهم ويتابع بسهولة أصول النصوص اللاتينية لمؤلف كوبرنيكوس أو هارفى أو نيوتن ، أو نظريات أينشتين بأية لغة . بينما لا أحد غير العالم الاجتماعى المدرب ، يستطيع أن يستوعب تماما البراهين المتتوية ، فى أغلب الأحوال ، لمؤلفات آدم سميث أو مالتوس أو ماركس . أما علم الاحياء فيقوى فهم مؤلف كهافى أو داروين أو فرويد . ونجيب على ذلك السؤال بقولنا ان سواد الناس يحصلون على أفكار سبق هضمها بواسطة عملية تمحيص من طريق وسيلة ما مثل الثقافة الشعبية فى صورة كتب أو مجلات أو صحف أو دروس مدرسية ، ومحاضرات عامة ، وحديثا عن طريق الراديو والتلفزيون والسينما . ولولا الادراك العام ما لقى أى كتاب من الستة عشر كتابا المختارة اقبالا فى عصره أكثر من « كابينة العم توم » و « نضالى » . وبناء على ذلك نتج تأثيرها من تفسير الخبراء . وكثيرا مايحدث التطبيق العملى فى الحياة اليومية دون معرفة واعية من الناس عموما ، مثال ذلك ، اكتشافات نيوتن الميكانيكية ، أو نظريات أينشتين ، فيما يختص بتفتيت الذرة والطاقة الذرية .

عندما يستعرض المرء الستة عشر كتابا بحسب ترتيبها التاريخى ، يدهش لاستمرار العلوم والمعارف - حلقة الاتصال التى تربطها معا . حقيقة ، لقد عبر

من هذا هتشينز Hutchins بقوله : يوجد هنا تقدم « المحادثة العظمى » . وقد أخذ كوبرنيكوس الأحياء من قدامى فلاسفة الاغريق ، ونيوتن بدوره ، «وقف على اكتاف العمالقة» - كوبرنيكوس وجاليليو Galileo وكبلر Kepler وغيرهم . وبدونهم ما كان لأينشتين أن يوجد اطلاقا . أما داروين فقد أعلن في صراحة أنه مدين الى عدد كبير من علماء الأحياء والجغرافيا والجيولوجيا ، بنى على مؤلفاتهم نظريته عن أصل الأجناس هذا ، وان استخدام معمل التجارب في العلوم ، على تقيض البرهنة الفلسفية انبجته ، يمكن أن يقال انه بدأ بكوبرنيكوس ، ومارسه جميع عظماء من جاءوا بعده ، ومنهم هارفي ونيوتن وداروين وفرويد .

ان الولع بالحرية ، الذى هو طبيعة لازمت الانسان طول حياته ، ليشتمل فى الاحتمالات المثيرة لكل من ماكيافيللى وآدم سميث وبين وثورو وستو . وسبح كارل ماركس ، بشدة ، على منوال علماء الاقتصاد الانجليز الكلاسيكيين ، وخصوصا آدم سميث ومالثوس وريكاردو Ricardo وحاول تكوين مؤلفه على غرار مؤلف داروين . وكان مؤلف ماهان الذى عنوانه «اثر القوة البحرية على التاريخ» ، فى الأصل ، مؤلفا ثانويا اتخذ مصادره مما كتبه قدامى المؤرخين البحريين والحربيين والعموميين .

وعلى الرغم من أن ماكنذر ، ومن بعده ساسة التوسع الجغرافى ، لم يوافقوا على استنتاجات ماهان ، فانهم وجدوا أفكاره مثيرة ومؤثرة . وقد

انتبس هتلر في كتابه « نضالي » كثيرا من ما كيا فيلى وداروين وماركس وماهان وماكندر وفرويد ، سواء كان هذا الاقتباس بوعى منه أو عن غير قصد .

يمكن اضافة بعض تعليقات معينة على الكتب المختارة وعلى مؤلفيها . هل تحاشى هؤلاء الميول الطبيعية القاضية بأن يؤثر كل منهم وطنه أو لغته ، مثلا ؟ من المحتمل أن يكون الجواب بالنفى . تضم القائمة أربعة أمريكيين هم : بين وثورو وستو وماهان ، وستة بريطانيين هم : هارفى ونيوتن وسميث ومالثوس وداروين وماكندر . كما أن هناك ثلاثة من الالمانيين هم : ماركس واينشتين وهتلر ، وواحدا ايطاليا هو ما كيا فيلى وآخر بولندا هو كوبرنيكوس وثالثا نمساويا هو فرويد . ومن بين المؤلفين الستة الأوروبيين (من القارة نفسها غير البريطانيين) ثلاثة يهود . وإذا كان واضح هذه القائمة أحد الصينيين أو الفرنسيين أو الروس ، فلا شك في حدوث تحيز ما في اتجاهات أخرى .

هناك نقطة أخرى جديدة بالنقد ، وهى تعريف الكتاب : ما هو الكتاب ؟ وهل يمكن الحكم عليه بحججه وحده ؟ هذه فكرة خيالية ، ومع ذلك فلو راعينا الدقة في التعريف فان « الادراك العام » ليين و « العصيان المدنى » لثورو و « المحور الجغرافى للتاريخ » لماكندر والحقيقة الاصلية لنظرية اينشتين الخاصة عن النسبية ، ليست أكثر من نشرات . والواقع ان الثلاثة الكتب الأخيرة ، ظهرت أول ما ظهرت كمقالات دورية . فياله من تناقض بين

هذه وبين المجلدات الضخمة ، أمثال « مبادئ الرياضيات » و « ثروة الأمم » والطبعات الأخيرة من كتب مالثوس عن السكان ، ورأس المال ، ونضالى . وقد ذكر أن فولتير Voltaire قال إنه ما حدث فظ ان الهبت الكتب الكبيرة حماس امة . « ان الكتب الصغيرة دائما ، المحشوة بالمواطف والتي تتأجج حماسا هي التي تقوم بالعمل » . وفعلا ، تنطبق هذه العبارة على بين وثور ، ولا تنطبق على ماكندر ولا اينشتين . والواقع ان الحجم ليس بدي بال لأجل هذه القائمة الحالية .

والزمن الذى يقضيه المؤلف فى تأليف الكتاب امر جدير بالاعتبار . ومن الجلى أن كوبرنيكوس قد ضرب الرقم القياسى فى هذا المضمار اذ استغرق أكثر من ثلاثين عاما فى تأليف كتابه De Revolutionibus ولو أنه لم يشغل نفسه باستمرار فى تأليفه . ومن منا يود أن يقول ان الرسائل الكوبرنيكية مؤلفات أكثر عمقا من «مبادئ الرياضيات لنيوتن» ، التى أتمها فى مدة ١٨ شهرا ؟ وبمصادفة غريبة استغرق تأليف كل من «ثروة الأمم» لأدم سميث ، وأصل الاجناس لداروين ، و «رأس المال» لاركس سبعة عشر عاما . ومن ناحية أخرى ، خرج كتاب «الأمير» لماكيافيللى فى ستة شهور ، و «الادراك العام» نين فى حوالى ثلاثة او أربعة أشهر .

يمكننا ان نعزو الاختلاف السابق بين مدد التأليف الى عدة عوامل . فاختلاف شخصية كل مؤلف عن شخصية الآخر مسئولة عن بعض هذه

الاختلافات . وقد رفض بعض علماء الطبيعة أمثال كوبر نيكوس ونيوتن وهارفى وداروين الاسراع فى طباعة مؤلفاتهم حتى يتحققوا تماما من صحة اكتشافاتهم واخبارها اختبارا قاسيا . وحتى بعد ادق الاختبارات القاسية ترددوا فى نشرها خوفا من المجادلات والرقابة القوية لزملائهم العلماء ، ومقتهم عرضها على الجماهير ، او ما شابه ذلك من الاسباب . وقد تضمنت مقالات سميث وماركس الاقتصادية : ضياع الوقت وتجميع كميات كبيرة من المعلومات ، والمراجعة الضخمة ومن جهة اخرى ، كان لدى المؤلفين المتهورين ، أمثال ماكيافيللى ومالثوس الشاب وبين وثورو رسالات عاجلة يجب اصدارها دون تأخير .

الغالبية العظمى من الستة عشر مؤلفا المختارين معروف عنهم أن كلا منهم وضع كتابا واحدا فحسب . وباستثناء قلة قليلة ، تركز شهرة الباقين على عنوان واحد مع اهمال ماعداه . كتب هارفى ونيوتن وسميث مالثوس وماركس وستو وماهان واينشتين كتباً اخرى . وفى بعض الأحوال ، كان بعضهم كثير التصانيف ، ولكن من يمكنه أن يذكر أسماءها سوى قلة من الاخصائيين ؟ أما بين وثورو وداروين وفرويد فيستثنون من هذه القاعدة لأن أقلامهم الخصبة أنتجت كتباً اخرى اشتهرت بطريقة ما كما اشتهرت هنا فى قائمتنا .

قد تستطيع بعض المذكرات البيوجرافية ابداء مظاهر اخرى لاخلاق المؤلفين وشخصياتهم . فهل للمركز الزواجى مثلاً ، أثر هام فى خلق مؤلف رائع يبدئ كل ما عداه ؟

كان كوبرنيكوس راهبا ، كما لم يتزوج كل من نيوتن وسميث وثورو وهتلر . وتزوج كل من هارفى وماهان وماكندر وبين ولكنهم لم ينجبوا اطفالا . وباء زواج بين مرتين بكارثة فى كل مرة . وكان مالثوس ثلاثة اولاد ، كما كان لاينشتين طفلان . تزوج مالثوس مرة واحدة واينشتين مرتين . ولم يكن كل من ماكيفيلى وداروين وستو وماركس وفرويد ازواجا مخلصين فحسب ، بل وانجبوا اسرات كبيرة . بيد ان المرء يتردد اخيرا فى استخلاص اية حقائق من هذه الامور .

قد يظن البعض ان السن وبلوغ الرشد ضروريان لمؤلف كتاب عظيم . وما صلة هذين الامرين ، حقا ، بالستة عشر مؤلفا المختارين ؟ عندما خرجت الطبعة الاولى لكل من هؤلاء ، من المطبعة ، كان اكبرهم سنا هو كوبرنيكوس ، اذ كان فى السبعين ، واصغرهم اينشتين الذى كان فى حوالى السادسة والعشرين . وكان مالثوس وثورو فى اوليات الثلاثينات . اما بين وهتلر فكانا فى اواخر الثلاثينات . كانت فترة السنوات العشر ما بين ٤٤ - ٥٤ هى اخصب فترات العمر انتاجا ، اذ كان فى هذه المرحلة كل من المؤلفين ، ماكيفيلى وفرويد ونيوتن وماركس وماهان وداروين وهارفى وسميث (فى ترتيب تصاعدى اى من الاصغر الى الاكبر) . وكان كل من ستو وماكندر فى اوائل الاربعينات .

وخلاصة هذا ، هناك خصائص معينة يشترك فيها معظم المؤلفين ، تبدو واضحة . وباستثناء علماء

الطبيعة الذين تضمهم القائمة . والذين يكون التعليق
اقل مناسبة لهم . فالكتب التي تضمها القائمة ،
كتبها اشخاص غير تابعين للكنيسة ، واشخاص
متطرفون ومتعصبون لدينهم ، ونوريون ومثيرون
للاضطرابات . وغالبا ما تكون كتب هؤلاء رديئة
التأليف تعوزها المسحة الأدبية . ونعود فنكرر قولنا
بأن سر نجابهم هو ان الزمن كان ملائما وعلى
استعداد لهم . حملت كتبهم رسالات ، كانت في
اغلب الاحوال كثيرة العاطفية ، يتوسلون فيها الى
ملايين البشر . وفي بعض الأحيان كان النفوذ للخير ،
كما كان أحيانا أخرى للشر . ومن الجلى أن الكتب
يمكن أن تكون قوى لكل من الخير والشر . وعلى أية
حال ، ليس الغرض هنا قياس القيم الأخلاقية ، بل
لتوضيح ان الكتب ادوات او اسلحة حركية وقوية .

عالم الإنسان

١ - تشریح سیاست القوی

« نيقولو ماكيافيلي » - « الأمير »

طلت الماكيافيلية لمدة تزيد على الأربعة قرون عالقة في ذهن العالم على أنها مرادفة لشيء شيطاني وخائن ونذل وقاس وخبيث. كان أبو هذا المصطلح ، نيقولو ماكيافيلي ، رمزا شهيرا للسياسي المتآمر والمكار والمنافق المجرد من الأخلاق والعديم المبدأ تماما والمستهتر ، الذي تنحصر كل فلسفته في أن « النهاية تخلق الوسيلة » . وقد اعتقد العالم أجمع أن أرقى قانون لماكيافيلي هو الملاءمة السياسية . وفي انجلترا القرن السابع عشر ، كان « أولدنيك » « Old Nick » كنية متبادلة بين كل من ماكيافيلي والشيطان . أما من دفاع لهذا المتهم أم أن هناك ظروفًا مخفية ؟ تعتمد شهرة ماكيافيلي السيئة ، اعتمادا كليا تقريبا ، على كتاب واحد هو « الأمير » الذي كتبه في سنة ١٥١٣ ، ولكنه لم ينشر الا في سنة ١٥٣٢ بعد وفاة مؤلفه بخمسة أعوام . ما من

اكتتاب يمكن ان ينفصل عن العصر الذى كتب فيه ، هذه حقيقة لا يمكن توضيحها توضيحا مناسباً بأكثر مما يوضحها كتاب « الأمير » . ومع ذلك ، فهو ككل كتاب عظيم ، يضم دروساً لجميع العصور .

لا نعرف سوى القليل عن حياة ماكيافيللى قبل عام ١٤٩٨ عندما كان فى التاسعة والعشرين من عمره وزيراً لجمهورية فلورنسة Florence خدم حكومة هذه المدينة لمدة ١٨ سنة ، وذهبت به المهام الدبلوماسية الى توسكانى Tuscany ثم عبر جبال أبنينى Apennine الى روما ، وبعد ذلك الى ما وراء جبال الألب Alps وتعرف على الكونتيسة كاترينا سفورزا Caterina Sforza وباندولفو ستروتشى Pandolfo Petrucci طاغية سينا Siena وفرديناند الأرجوى Ferdinand of Aragon ولويس Louis الثانى عشر ملك فرنسا ، والامبراطور ماكسيميليان Maximilian والبابا يوليوس Julius الثانى ، وسيزار بورجيا Cesare Borgia لم يكف التشاحن السياسى بين فلورنسة ودويلات المدن الأخرى بيزا Pisa وميلان Milan و نابولى Naples ، بل ظل قائماً لا ينقطع . وكانت السياسة فى ذلك العصر فاسدة بطريقة لا تصدق . وكان ماكيافيللى ، الطالب الداهية فى دراسة الطبيعة البشرية ، فى حداثة عهده بالسياسة ، وفى عدة مناسبات أبدى مقدرة ومهارة فى انجاز المفاوضات الصعبة . وبعد ذلك بنى واقعته وسخريته من الأمور السياسية ، دون ما شك ، على المران ، لأنه تعلم ألا يكثرث لى باعث غير الجشع والأناية . أصاب ماكيافيللى دورة فى عجلة الحظ على يد اسبانيا ، فقد أطاح الميديكيون Medicis بالجمهورية واستعادوا

حكمهم في فلورنسة . ففصل ماكيافيلى وسجن وعذب ، واخيرا نفى الى ضيعته الريفية الصغيرة بالقرب من سان كاسسيانو San Casciano حيث بقى محدد الإقامة حتى موته في سنة ١٥٢٧ ، باستثناء فترات قصار . فكان يقضى وقته خلال تلك السنين الطويلة (في نظره) الخاملة ، في تأليف كتب « الأمير » و « المحادثات » و « فن الحرب » و « تاريخ فلورنسة » وتناول كلها ، بصفه مبدئية ، السياسة القديمة والمعاصرة .

من الصعب اكتشاف اية عاطفة في طبيعة ماكيافيلى فيما يختص بالشئون العامة ، ولكنه كان يحس بتأثر عميق تجاه أمر واحد . كان وطنيا أصيلا مع شوق حماسى لأن يرى إيطاليا دولة قوية متحدة . وربما كان ملاحظا باردا وموسوسا ، ورجلا ماجنا صافي العقل ، حتى ناقش الوحدة الإيطالية ، ثم أوحى اليه بالحماس والفصاحة والحرارة والحيوية . وقد كانت حال إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر في بؤس شديد يشير أشجان أى شخص وطنى الى درجة البكاء .

كان هناك تغير هائل ، سياسى واقتصادي ولاهوتى في طريقه الى إيطاليا ايام ماكيافيلى . وفي كل مكان باجلترا وفرنسا واسبانيا ، بعد نضال مريب طويل حدثت الوحدة القومية . أما في إيطاليا ، فان فكرة التنظيم القومى او الفيدرالى ، لم تكن معروفة . حكمت تلك الدولة خمس وحدات سياسية عظمى هي : ميلان وفلورنسة والبندقية Venice ودولة الكنيسة ونابولى . وكانت البندقية اكبرها واقواها . فكان تعدد الأقسام السياسية مصدر ضعف مستمر لإيطاليا ، ومن الناحية العملية ، أدى الى الدسائس الأجنبية والتدخل الأجنبى . بدأت الغزوات بواسطة شارل الثامن ملك فرنسا في عام ١٨٩٤ ، وبعد بضخ سنوات من تفهقره ، اتفق لويس السابع وفرديناند ، ملك أراجون

على اقتسام مملكة نابولي فيما بينهما . وارسل الامبراطور ماكسيميليان قواته لغزو البندقية . كما كانت جيوش من المانيا وسويسرا وفرنسا واسبانيا تسير في الاراضي الايطالية وتحارب عليها .

وفي تلك الأثناء كانت المعارك الخاصة والضغائن الشعبية والسرقات والقتل متفشية في البلاد وحاربت جمهورية جمهورية أخرى ، كل منهما تغار من الأخرى ، وعجزت الجمهوريات تماما عن تكوين جبهة عامة في مواجهة الأعداء الأجانب . ولما كانت الكنيسة في أسوأ فترة في تاريخها ، وتخشى قيام منافس لقوتها الدنيوية ، فانها فضلت التفرق على الاتحاد لاطاليا .

ربما أدرك ماكيافيلي الخطر الذي يهدد ايطاليا ، أدركه بوضوح أكثر مما أدركه أى رجل آخر في عصره . كان يفكر في مقر تقاعده الاجبارى ، وفي الشرور التي نزلت بوطنه الحبيب ، فاقنع بأن الأمل الوحيد في الخلاص يكمن في وجود قائد عظيم - قائد بالغ القوة والجرأة يفرض سيطرته على الدويلات الايطالية ويدمجها في أمة واحدة قادرة على الدفاع عن نفسها وطردها الأجانب المقوتين من البلاد . أين يمكن العثور على مثل هذا القائد ؟ كان « الأمير » هو فكرة ماكيافيلي عن نوع القائد المطلوب ، وصورة تفصيلية للطريق الذي يجب عليه أن يتبعه لتحقيق النجاح .

رغم ان « الأمير » مكرس الى لورنزودى ميديكى Lorenzo de Medici حاكم فلورنسة الجديد ، فان بطل الكتاب هو سيزار بورجيا Cesare Borgia ابن السانا الكسندر السادس ، وكاردينال في السابعة عشرة ، وقائد حربى قدير ، وهازم رومانيا ودكتاتور قاس لا يعرف الرحمة . ارسل ماكيافيلي رسولا الى بلاطه في سنة ١٥٠٢ ، وكما علق ليفنز Nevins : « رأى باعجاب كيف تبادل بورجيا استخدام

الحذر والدهاء ، في مهارة ، وكذلك الألفاظ المعسولة والأعمال الدموية . وكيف استخدم ببرود الغدر والنفاق . وكيف استعمل الارهاب في وحشية لاستمرار اخضاع من دحرمهم ، وكيف يقبض بطغيان على البلاد التي يحتلها » .

واذ مارس سيزار ازدواج الشخصية والقسوة وعدم الثقة ، نال النجاح الباهر ، ولكنه كان نجاحا مؤقتا . كان ماكيا فيلي وطنيا غيورا يميل الى النظام الجمهوري ، ولكنه لما اختبر حال ايطاليا الثائرة والمؤسفة اقتنع بان رجلا مثل سيزار بوجريا هو القائد المثالي لانهاء حالة الفوضى تلك .

وهكذا أوحى اليه نظريته الى أمة موحدة ، بالحماس الوطني . واذا كان عالما باحتياجات الساعة الحرجة وواعيا للفرصة الذهبية الماثلة أمام الحاكم الجديد ، وجه كل نشاطه وحماسه الى تأليف « الأمير » فكتبه في الشهور الستة الأخيرة من عام ١٥١٣ ، وبعد ذلك بوقت ما ، قدمه الى بلاط لورنزو مع اهداء المؤلف : « لما رايت انه ليس في المقدور تقديم هدية أفضل من اسداء فرصة الفهم في أقصر وقت ، فأنى أقدم كل ما تعلمته في تلك السنين العديدة وسط الكثير من المتاعب والأخطار » .

الهدف الأساسي من « الأمير » هو أن صالح الدولة يحقق كل شيء . وهناك عدة مستويات مختلفة من الأخلاق في الحياة العامة والحياة الخاصة ، اذن فمن اللائق بالسياسي ، تبعا لهذا المذهب ، أن يقوم ، من أجل صالح الشعب ، بأعمال العنف والخداع التي تستحق اللوم وتوصف بالأجرام في المعاملات الخاصة . ولذلك فصل ماكيا فيلي الأخلاق عن السياسة .

« الأمير » كتاب مرشد للامراء (أو كما قال البعض ، انه كتاب ضروري للطفلة) ليعلمهم كيف يحصلون على السلطة ويحتفظون بها - سلطة ليست لصالح الحاكم وانما هي لخير

الشعب كى يزودهم بحكومة مستقرة آمنة من الثورة والغزو .
 فبأية وسائل يمكن الحصول على الاستقرار والأمان ؟

وبغض النظر ، قليلا ، عن الملكيات الوراثية لافتراض أن
 للحاكم سداد رضى وذكاء عاديين ، فيمكنه الاحتفاظ بالسيطرة
 على الحكومة . ومن جهة أخرى ، فان مشكلة الملكية الجديدة
 مشكلة معقدة . فاذا كانت الأراضى المهزومة حديثا من نفس
 جنسية ولغة الدولة الغالبة كالحكم سهل نسبيا ، وخصوصا اذا
 اتبع مبدعان : « أحدهما استئصال دم سلسلة نسب الامراء
 السابقين ، والثانى عدم احداث أى تغيير فى القوانين أو فى
 الضرائب » .

« اما اذا احتلت الأمم دولة تختلف لغتها وعاداتها وقوانينها
 عن لغة وعادات وقوانين الأمم المضمومة ، فالصعوبات تتضاعف
 ويقتضى التغلب عليها حظا وادارة عظيمين » . ويستطرد ماكيافيللى
 قائلا ان من الوسائل الممكنة للسيطرة عليها ، ان يذهب الحاكم
 ويسكن شخصا فى المنطقة المحتلة ، ويرسل اليها مراكز استعمار
 (أقل نفقات من الاحتفاظ بجيوش الاحتلال) ، وأن يصادق
 الجيران الأضعف ، ويحاول أضعاف الجيران الأقوى . وعندما
 أهمل لويس الثانى عشر هذه القواعد الاساسية منى بالهزيمة
 والخسائر فى غزواته .

وفيما يختص « بكيفية حكم الأقسام الادارية » ، يقدم
 ماكيافيللى ثلاث طرق يمكن بها السيطرة على دولة اعتادت « أن
 تعيش بحسب قوانينها وفى حرية : الأولى تدميرها ، والثانية
 الذهاب اليها والاقامة فيها شخصا ، والثالثة قبول ان تعيش
 تبعا لقوانينها وارغامها على دفع الجزية ، وان يعهد بحكومتها
 الى فئة قليلة من سكانها يمكنهم المحافظة على صداقة الباقيين
 لك » . وأكثر هذه الاختبارات أمنا هى الطريقتان الأوليان .

ورغم هذا ، فاذا اعتادت مدينة أو محافظة احتلت حديثا أن تعيش تحت حكم أمير استئصلت ذريته ، فمن المستحيل على المواطنين الذين تعودوا أولا أن يطيعوا ، وثانيا جردوا من حاكمهم القديم ، أن يوافقوا على اختيار حاكم من بينهم . وبما أنهم لا يعرفون كيف ، يعيشون أحرارا ، يبطئون في التسليح ، وهكذا فمن السهل على شخص أجنبي أن يطويهم تحت سلطانه ويضمهم الى صالحه .

واذا ناقش ماكيافيلي ، بعد ذلك « الإمارات الجديدة » ، فانه حذر يقول : « يجب أن يوضع نصب العين أن طباع الجماهير متقلبة ، وبينما يكون من السهل اغراؤهم على قبول شيء ، فانه يصعب جعلهم يثبتون على ذلك الاغراء . لذلك يجب تنظيم الأمور هكذا . اذا لم يؤمن الناس طوعا ، وجب اجبارهم على الايمان بالقوة » .

بعد ذلك يشرع المؤلف في تقرير وتمجيد حياة سيزار بوجيا على أنه القائد القوى القلد البأس ، معتبرا من النادر والاعتقال .

« عندما أتذكر جميع أعمال الدوق ، لا أعرف كيف ألومه ، ولكن ، بدلا من ذلك ، يبدو لي . . أنه يجب على أن أقدمه نموذجا يحاكيه جميع من يرفعهم الحظ أو تسمو بهم أهداف غيرهم الى منصب الحكم . لأنه ، اذا كان ذا روح عالية وطموح بعيد المدى ، ما كان لينظم سلوكه بطريقة أخرى . . ولذلك يجب على من يعتبر انه من الضروري له أن يثبت نفسه في دولته الجديدة ، أن يعمل على كسب الأصدقاء ، وأن يتغلب اما بالقوة واما بالغش ، وأن يجعل نفسه محبوبا ومرهوبا من الناس ، وأن يجعل الجنود يسيرون وراءه ويحترمونه ، ويستأصل شاقة كل من كان ذا قوة أو عقل يمكنانه من الحاق الأذى به ، وأن يغير

النظام القديم بأنظمة جديدة ، وأن يكون قاسيا وخيرا وساميا العقل وحرا ، ويحطم العسكرية غير الوفية ، ويخلق عسكرية جديدة ، ويحافظ على صداقة الملوك والأمراء بطريقة تحتم عليهم مساعدته في حماس ، والاساءة مع الحذر ، ولايمكنهم أن يجدوا مثالا أكثر حيوية من أعمال هذا الرجل .

أما من اغتصب دويلة ، « فيجب عليه الاسراع بانزال الاضرار التي يجب عليه انزالها بضربة واحدة ، لئلا يضطر الى تجديدها يوميا ، وانما يتمكن بعدم استمرارها من طمأنة عقول الناس ، وبعد ذلك يكسبهم الى جانبه بالمنافع ... يجب منح المنافع قليلا قليلا حتى يمكن التمتع بها كاملة » .

ليس خوف العقاب الا احدى الوسائل التي يستعملها الملك الحكيم في حكم رعاياه .

من الضروري للامير أن يكون على صلة صداقة بشعبه ، والا لما وجد أى مصدر للمساعدة في وقت الشدة .. ولايذكرن لى أحد المثل القديم : «من بين على الشعب بين على الرمال» . لان هذا المثل ينطبق على المواطن الخاص الذى يعتمد على مصالحه مع الشعب ويعمل حسابه على أن ينصروه اذا هزمه أعداؤه أو الحكام . أما الامير الجريء القادر على الامر ، والذى يعرف كيف يحافظ على النظام فى دويلته ، فلن يندم قط على تأسيسه أمتة على محبة الشعب .

وفى تناواه للامارات الكنسية ، أى التى تحت حكم الكنيسة مباشرة ، خصها ببعض من أكثر ملاحظاته ايداء وتهكما .

تنال هذه الامارات بالاحقية أو بحسن الحظ ويحتفظ بها بدون أى واحد منهما ، وسيطر عليها بأوامر دينية محترمة ، كلها من النوع والاثر اللذين يضمنان سلطة أمرانها بأية طريقة

يعملون أو يعيشون بها . ان هؤلاء الأمراء وحدهم لهم دويلات
لا يدافعون عنها ورعايا لا يحكمونهم .

يتهم مكيافيلي الكنيسة هنا وفي كل موضع مما كتبه في
بداية القرن السادس عشر ، بأنها لم توحّد إيطاليا ضد الاجنبي
كان يريد فصل الكنيسة تماما عن الحكومة .

ولما كانت الحكومة القوية تحتاج الى جيش عظيم فقد اعتبر
مكيافيلي الشئون الحربية على أقصى ما يكون من الاهمية ،
وخصص مساحة واسعة لهذا الموضوع . وقد اعتادت معظم
الدويلات الإيطالية في عصره أن تستخدم الجنود المرتزقة ،
ومعظمهم من الاجانب ، للدفاع عنها . فقرر مكيافيلي أن مثل
هذه القوات « عديمة النفع وخطرة » وان الجيش القومى المكون
من المواطنين أكثر فاعلية ويعتمد عليه أكثر من المرتزقة . ولما كان
البقاء القومى يتوقف على قوة الجيش ، ولجب على الامير الحاكم
أن يعتبر الأمور العسكرية المادة الأولى لسياسته وشغله
الشاغل .

كرس مكيافيلي عدة أبواب من مؤلفه لسلوك الامراء -
سلوكهم الخاص في مختلف الظروف .

هناك اختلاف كبير بين الطريقة التى يعيش بها الناس
والطريقة التى يجب أن يعيشوا بها . ومن الضرورى للامير الذى
يريد المحافظة على مركزه أن يتعلم كيف يتصف بشئ آخر غير
الطيبة ، وأن يستعمل طبيئته أو لا يستعملها حسب مقتضيات
الاحوال ... يعترف كل من أعرفه بأنه يجدر بالامير أن يكون
موهوبا بجميع الصفات المعتبرة حميدة ، ولكن بما أنه من المستحيل
أن يتصف بكل هذه الصفات جميعا ... يجب عليه أن يكون
حاذقا بما فيه الكفاية بحيث يعرف كيف يتحاشى مثالب تلك
الرذائل التى يمكن أن تجرده من الحكم .

يجب على الأمير ألا يهتم بأن يشيع عنه البخل وهو ينفق ما يخصه وما يخص رعاياه أو ما يخص الآخرين .. يجب أن تنفق بسخاء مما لا يخصك أو يخص رعاياك ... لأن حرية التصرف في ملكية الغير (التي يحصل عليها بالغزو) لا تنقص من سمعتك بل تزيدها . وإن ما يضررك هو أن تنفق مما يخصك . وما من صفة مدمرة مثل حرية الاتفاق . فعندما تمارسها تفقد الوسيلة التي تمارسها بها وتصير فقيراً محتقراً ، والأفلى تتحاشى الفقر تغدو جشعاً وممقوتاً .

يجب أن يعتبر الأمير القسوة إحدى وسائل الاحتفاظ باتحاد الرعايا وطاعتهم «لأن من يقمع الفتن ببضعة إجراءات فورية يكن في النهاية أكثر رحمة ممن تبلغ به الطيبة أن يترك الأمور تجري في أعنتها ، فينتج عن ذلك ، الاغتصاب وسفك الدماء . لأن هذه تفسد الدولة ، كما تفسد القسوة الأفراد » .

يقول ماكيافيلي في فقرة شهيرة :

من هنا ينشأ هذا السؤال : هل الأفضل أن يحب المرء أكثر مما يخاف ، أو يخاف أفضل مما يحب . قد تكون الإجابة أننا نرغب في كليهما : ولكن بما أن الحب والخوف فلما يجتمعان معاً ، فإذا وجب علينا أن نختار بينهما ، فمن الأكثر أمناً أن نخاف أفضل من أن نحب . إذ تؤكد عموماً أن الناس ناكرون للجميل ومتقلبون وخائنون ويعملون كل ما في طاقتهم لتجنب الخطر ، وجشعون يتكالبون على الربح ، ينفقون إلى جانبك طالما كان في وسعك أن تغدق عليهم المنافع ، وعلى استعداد للتضحية بدمائهم إذا كان الخطر بعيداً كما يضحون بممتلكاتهم وحياتهم وأولادهم من أجلك والخطر كذلك ، حتى إذا ماجاء وقت الجذاد أداروا نك ظهورهم .

هذه سخرية بحتة ، ولو أن ماكيافيلى يستنتج تقدبره للمحبة فى مقابلة الخوف ، فينصح الامير بأن « يعمل قصارى جهده لتحاى الكراهية » .

ما من قسم من كتاب « الأمير » ادين واحتقر أكثر من الباب الثامن عشر» . «كيف يحتفظ الامراء بالثقة» . وتنصب مساوىء استخدام المصطلح «ماكيافيلية» على هذا القسم أكثر مما تنصب على بقية الكتاب كله . ويوافق المؤلف على أن المحافظة على الثقة جديرة بالثناء . أما الخداع والنفاق وشهادة الزور فضرورية ومغتفرة من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية .

هناك طريقتان للنضال . احدهما بحسب القوانين ، والاخرى باستخدام القوة . الاولى مناسبة للبشر ، والثانية للوحوش . ولكن بما أن الطريقة الاولى كثيرا ما تكون غير فعالة ، فيقتضى الأمر الالتجاء الى الثانية . وعلى الأمير أن يفهم جيدا كيف يستعمل كلتا الطريقتين : طريقة البشر وطريقة الوحوش ... ولكن بما أنه يجب عليه أيضا أن يعرف كيف يستخدم طبيعة الوحوش فى حكمة ، ينبغي له أن يختار من بين الوحوش الاسد والثعلب ، لان الاسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الشراك ، والثعلب لا يمكنه حماية نفسه من الذئاب ... وأن أكثر الامراء حزما ، لا يمكنه ولا ينبغي له أن يحافظ على كلامه ، عندما يكون فى المحافظة عليه ضرر له عندما تزول الأسباب التى الجأت الى الوعد . ليست هذه مشورة طيبة عندما يكون جميع الناس من الاخيار . ولكن بما أنهم خائنون ولايثقون بك ، وجب عليك ، أنت بدورك ، ألا تثق بهم وما من أمير حار فى التفكير فى أعداء مقبولة لتغطية عدم التمسك بوعد .. غير أن الناس يظنون ساذجين ومحكومين باحتياجاتهم الحالية ، حتى أن من يرغب فى خداعهم لا يخفق فى العثور على «مغفلين» راغبين ... وهكذا من الخير التظاهر بالرحمة

والثقة والانسانية والتقوى والاستقامة ، وتكون هكذا ايضا ، ولكن يجب أن يبقى العقل متزنا حتى اذا اقتضى الأمر صار في مقدورك وتعرف كيف تتحول الى العكس بسرعة ... يرى كل شخص ماظهر عليه ، ويعرف القليلون ماانت عليه .

نصح ماكيا فيلى بأنه من الضروري للامير ان يتحاشى كراهية شعبه احتقارهم له . والطريقتان الرئيسيتان اللتان تسببان كراهية الناس له هما : نهب اموال الشعب ، والتدخل في ممتلكات رعاياه ونسائهم ... ويحتقر الامير اذا رأى متقلبا او متهورا او مخنثا او جباناً او متردداً . وزيادة على ذلك ، يجب على الحكام أن يشهروا انفسهم بتوزيع الهدايا بانفسهم ، ويتركوا لرؤساء الأقسام مسؤولية توقيع العقاب ، وعلى العموم يتركون لهم ايضا حرية التصرف العام في كل مايشعر الحق وعدم الرضى» ... لا يستطيع حتى امنع الحصون أن تحمى الامير اذا كرهه الشعب .

أكد ماكيا فيلى عند اسداء التعليمات للامير في «كيفية سلوكه» ، على أنه

يجب على الامير أن يبدو رئيسا قديرا ، وأن يكرم كل من تفوق في أى فن . لذلك ينبغي له أن يشجع رعاياه ويمكنهم من مزاوله مهنتهم ، سواء اكانت تجارية أم زراعية أم غير ذلك ، في اطمئنان ، حتى ان ذلك الرجل لا يمنع من تجميل ممتلكاته خوفا من ان تؤخذ منه وألا يحجم آخر عن افتتاح محل تجارى خوفا من الضرائب .

أعجب ميكيا فيلى كثيرا بذكريات روما القديمة وخصوصا النصيحة المسداة الى الامير : «يجب عليه في المواسم المناسبة من السنة ، أن يبهج الشعب بالحفلات والعروض» .

كان ماكيافيللى شديد الايمان بالحظ والمصير ، وربما كان ذلك وليد التفكير فى اعتقاد أهل عصره فى «التنجيم» ، فكتب يقول : « اظن الحال هكذا ، ان ربة الحظ سيدة نصف أعمالنا ، وترك لنا ، نحن انفسنا ، تدبير النصف الآخر أو اقل من النصف قليلا » . كانت وجهة نظره معتدلة الخطر ، اذ كان يعتقد ان يوسع الانسان أن يسيطر ، بعض الشيء ، على مصيره ، وأنه «من الافضل أن يكون جسورا ، من أن يكون حذرا . فالحظ امرأة ، يجب عليك ، لكى تخضعها ، أن تضربها وتعاملها بخسونة ، وترى أنها تقاسى رؤية نفسها محكومة تماما بواسطة من يعاملونها أكثر ممن يعتر بهم الجبن عند الاتصال بها . ودائما ، كأمراة ، تؤثر الصغار لانهم أقل تدقيقا وأكثر قسوة ، وسيطرون عليها بجرأة أعظم » .

يختم كتاب «الامير» بنصيحة لتحرير ايطاليا ، انها نداء رنان للوطنية . حان الوقت لأمير جديد بطل ايطالى ما ، أن يتقدم لايطاليا فى « حالة انحطاطها الراهن » الأكثر عبودية من العبرية ، والأكثر معاناة للظلم من الفارسية ، والأكثر تفككا من الاثينية ، بغير قائد وبغير نظام ، مهزومة ومنهوبة وممزقة ، وطئت وتركت للدمار فى شتى صوره . . . نراها كيف تتضرع الى الله أن يرسل شخصا ينقلها من هذه القسوة البربرية والظلم . كما نراها مستعدة ومتلهفة الى أن تتبع أى علم اذا كان هناك من يرفعه » .

ويختم ماكيافيللى مراقبته البليغة بهذه الكلمات :

فرصة ايطاليا الاخيرة هى انه يجب الا يفوتها أن تتطلع الى مخلصها . بأى محبة يستقبل (الامير الجديد) فى جميع المحافظات التى قاست من تدفق سيل الاجانب ، وبأى تعطش الى الانتقام ، وبأى وفاء ثابت ، واخلاص ، وبأية دموع تقصر الفاظى عن التعبير عنها ، وأية أبواب سوف تقفل وراءه ؟ وأى ناس سيرفضون

طاعته ؟ وأى ايطالى لا يخضع له ويدين له بالولاء ؟ يتعمق هذا الظلم البربرى فى كل خيشنوم .

مضى أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن قبل أن يتحقق حلم ماكياڤلى لتوحيد ايطاليا ورؤيتها متخلصة من الفساد والسيطرة الاجنبيين .

وزعت نسخ خطية من «الامير» ابان حياة مؤلفه ، وبعددها بعدة سنوات . . وقد وافق على نشره فى سنة ١٥٣٢ ، البابا كلمنت Clement السابع ، ابن عم الامير الذى أهدى اليه ذلك الكتاب . وطبع منه ٢٥ طبعة فى العشرين سنة التالية . ثم بدأت العاصفة تهب ، فقد أمر مجلس الثلاثين باتلاف جميع مؤلفات ماكياڤلى ، اذ اتهم فى روما بالاحاد ، وحرمت مؤلفاته فيها وفى كل مكان بأوروبا . وأحرق اليسوعيون تمثالا صغيرا له فى المانيا . وأشترك الكاثوليكيون والبروتستانت فى الدعوة ضده . وفى سنة ١٥٥٩ وضعت جميع مؤلفاته فى قائمة الكتب المحرمة .

لم تسترجع سمعة ماكياڤلى بعض أهميتها وبراءتها وتزكيتها الا فى القرن التاسع عشر . عملت الحركات الثورية فى أمريكا وفرنسا والمانيا وفى كل مكان على تحويل الحكومات الى مدنية وفصل الكنيسة عن الحكومة . وقامت الحركة الايطالية المطالبة بالحرية ، التى وصلت بنجاح الى ذروتها فى عام ١٨٧٠ مستمدة ايجابها من الوطنى العظيم ماكياڤلى . وقد ابان هـ . دوجلاس جريجورى Douglas Gregory فى مقال معقول ، انه باتباع نظريات ماكياڤلى ، استطاع الحاكم الايطالى الكونت كافور Cavour أن يوحد ايطاليا ويطرد الغزاة منها ، بينما لو انه اتبع أى طريق آخر لتزلت بالبلاد كارثة وأخفقت فى مساعيها .

لا ينكر أحد أن دكتاتورى وطغاة كل عصر وجدوا نصائح مفيدة في «الامير» . وان قائمة القراء المتلهفين ضخمة : أعجب الامبراطور شارل الخامس ، وكاترينا دى ميديكى بذلك المؤلف . وحصل أوليفر كرومويل Oliver Cromwell على نسخة خطية منه واعتنق مبادئه وطبقها في حكومة الكومنولث Commonwealth في إنجلترا . وكان كل من هنرى الثالث وهنرى الرابع الفرنسيان يحمل نسحا منه عندما قتل . كما ساعد هذا الكتاب فريدريك العظيم على صياغة سياسة بروسيا Prussia ، واتخذ لويس الرابع عشر هذا الكتاب « طاقيته الليلية المفضلة » ، ووجدت منه نسخة ذات حواش في عربة نابليون بونابارت Napoleon Bonaparte في ووترلو Waterloo واستمد نابليون الثالث معظم أفكاره عن الحكومة من ذلك الكتاب . وكان بسمارك Bismarck تلميذا مخلصا وحديثا احتفظ أدولف هتلر Adolf Hitler ، تبعا لقوله هو نفسه ، بكتاب « الامير » بجانب سريره حيث كان مصدر إلهام مستمرا له . وقال بنيتو موسوليني Benito Mussolini : « أومن بأن كتاب « الامير » لماكيا فيلى دليل رائع للسياسى . فمذهبه اليوم حى لأنه لم تحدث تغيرات عميقة فى مدى الأربعمئة سنة فى عقول الناس أو فى أعمال الأمم » . (بعد ذلك غير موسوليني رأيه ، اذ ظهر فى سنة ١٩٣٩ اسم ماكيا فيلى فى قائمة المؤلفين ، القدامى والمحدثين ، الذين يضمهم فهرست الكتب الفاشستى ، تلك الكتب التى يحظر على أصحاب مكتبات الرومان أن يعرضوها) .

ومن ناحية أخرى ، أوضح المحللون المدققون للاحداث التاريخية أن الطغاة ، أمثال هتلر وموسوليني ، لقوا عموما نهاية مؤسفة لانهم أهملوا أو اساءوا تفسير بعض المبادئ الاساسية التى صاغها ماكيا فيلى .

اتفق دارسو مذهب ماكيا فيلى على انه لا يمكن فهم آرائه فهما تاما الا بقراءة كل من كتابيه «المحادثات» و «الامير» . فكتاب «المحادثات» الذى استغرق فى تأليفه أكثر من خمس سنين ، ونشر لأول مرة فى نفس السنة التى نشر فيها «الامير» ، مؤلف أضخم كثيرا من «الامير» . والفرق بينهما ، كما اقترح البعض ، هو أن «المحادثات» يتناول «ما يجب أن يكون» ، بينما يتناول «الامير» ، «ما هو» . يختص «الامير» كلية بالامارات ، أى بالدول أو الدويلات التى يحكمها ملك واحد ، بينما يختص «المحادثات» بالمبادئ التى يجب أن تتبعها الجمهوريات .

يخرج المرء من القراءة المقارنة لهذين الكتابين بهذه النتيجة المدهلة ، وهى ان ماكيا فيلى كان جمهوريا مقتنعا بمبدأ الجمهورية . لم يحب الاستبداد ، ويعتبر أن الحكومة المختلطة المكونة من الحكومتين الشعبية والملكية هى أفضل الحكومات . وما من حاكم نعم بالامان بغير محبة شعبه . وأشد الحكومات رسوخا هى التى يحكمها أمراء تقيدهم حدودا دستورية . فحكم الشعب سديد فى نظر ماكيا فيلى ، كما يلاحظ فى مهاجمته للمثل القديم : «من يبن على الشعب يبن على الرمال» . وكانت حكومته المثالية هى الحكومة الرومانية القديمة ، وكان يشير اليها دائما فى كتابه «المحادثات» .

اذن ، فلماذا ، وقد فضل ماكيا فيلى الحكومة الجمهورية على كل ماعداها للشعب الحر ، لماذا أنتج كتاب «الامير» ؟ ألف ماكيا فيلى هذا الكتاب لعصر بعينه ، ولمجموعة معينة من الظروف . ولاشك فى أنه أدرك أنه يستحيل اقامة جمهورية ناجحة فى ايطاليا فى القرن السادس عشر . وضع كتاب «الامير» خصيصا لغرض الحصول على مساعدة الناس الاقوياء لتخليص الشعب الايطالى

من تعسفهم ، وتخليص الدولة من الفساد السياسي . فاذا واجهت
إيطاليا أزمة حادة لم تلجأ الى الاسلحة من أجل خلاصها .

والآراء المخالفة الشائعة على نطاق واسع ، والخاصة
بماكيا فيلى ، لانزال قائمة رغم الجهود المبذولة لرد الاعتبار لاسمه
والموقف الذى وصفه جوزيبي بریتسولينى Giuseppe Prezzolini
منذ بضع سنوات لا يزال سائدا ويقول :

لدينا الآن ماكيا فيلى اليسوعيين ، عدوا للكنيسة ،
ماكيا فيلى الوطنيين ، مخلص إيطاليا المتحدة وبيت سافوى
Savoy ، وماكيا فيلى العسكرية طليعة الجيوش القومية ،
وماكيا فيلى الفلاسفة ، الذى ابتكر طريقة جديدة للفكر - الروح
العملية ، وماكيا فيلى الكتاب ، الذى يعجبون بأسلوبه الكامل
النضج وعباراته انجريئة . وجميع هؤلاء الماكيا فيليون شرعيون .

من الحقائق التى قلما تقبل الجدل ، انه ما من رجل قبل
كارل ماركس كان ذا تأثير ثورى على الفكر السياسى مثل
ماكيا فيلى . ان له حقا شرعيا فى لقب «مؤسس علم السياسة» .

٢ - الثورى الأمريكى

توماس بين THOMAS PAINE

« الإدراك العام »

ماكان لای رجل عاقل أن يتنبأ لتوماس بين بمستقبل زاهر عندما وصل الى أمريكا وهو فى السابعة والثلاثين من عمره . كانت حياته كلها حتى ذلك الوقت سلسلة من الاخفاقات وخيبة الامل . فكل مشروع وضع يده فيه باء بالفشل . اذا ، فأى سبب يجعلنا نعتقد انه فى خلال بضع سنوات يبرز هذا القادم الحديث الى الدنيا الجديدة كواحد من أعظم مؤلفى الكتيبات فى اللغة الانجليزية ، وواحد من أعظم الباحثين فى التاريخ الأمريكى . انه مثير للقلق السياسية ، وثورى عرف اسمه ورهب ومقت أو قرظ وكرم فى جميع المستعمرات البريطانية الامريكية ، وبريطانيا العظمى ، وغرب أوروبا ؟ يبدو أن رحلة المحيط قد أحدثت تحورا مثيرا فى شخصيته وأخلاقه ، فغيرته مابين عشية وضحاها من الإدراك المتوسط الى النبوغ .

إذا فحسنا سنى حياة بين الاولى ، وجدناها لم تضع هباء، بل كانت في الحقيقة نوعا من الاعداد لحياته الجديدة . ولد في شرقى ابلتيرا في التاسع والعشرين من يناير سنة ١٧٣٧ ، من ثيتفورد Thetford بمقاطعة نورفوك Norfolk من أب ينتمى الى طائفة اصدقاء مذهب جورج فوكس الدينى ومن ام انجليكانية . . . مارس الفقر المدقع والحرمان والنصب منذ نعومة اظفاره . . . تعلم في مدرسة الاجرومية حتى بلغ الثالثة عشرة اذ اكتسب ، كما يقول هو نفسه ، « تعليما اخلاقيا جيدا جدا ، وكمية طيبة من المعارف النافعة » . وان موهبته الطبيعية في العلوم والاختراع - الناحية العملية المقابلة للنظرية - قد ظهرت على السطح وبقيت معه طوال حياته الحافلة بالاعمال المستمرة .

بعد هذا التعليم البسيط الشكلى ، تتلمذ لين ليتعلم مهنة ابيه صناعة «الكورسيهات» . فقضى في ذلك العمل ثلاث سنوات . ثم ان يريق البحر وملل العمل على وتيرة واحدة ، جعله يفر من بيته ويلتحق بسفينة القرصنة الحربية « تريبل Terrible » بقيادة ريان بحمل الاسم المرهوب «الموت» . واذا انقذه ابوه ، استأنف عمله في صناعة الكورسيهات حتى بلغ التاسعة عشرة ، فعاد الى القرصنة الحربية لنهب سفن الاعداء حيث عمل مدة قصيرة على السفينة «ملك بروسيا» . واذا شفى من ولعه بالمغامرات البحرية استقر مرة اخرى في مهنته الاولى ، ليس في ثيتفورد وانما في لندن ، في حانوت لصناعة الكورسيهات قرب درورى لين Drury Lane . وكان يقضى اوقات فراغه في سماع محاضرات علم الفلك .

تلا ذلك سنوات من التجوال الشاق وعدم الاستقرار في شيء . . . تزوج خادمة يتيمة في ساندوتش Sandwich ، ولكنها ماتت في غضون سنة من زواجها . كان والدها موظفا بمراقبة

الانتاج ، فجذب بين الى هذه الوظيفة وجود وقت فراغ يمكنه أن يقوم فيه بأعمال أخرى . فحصل على وظيفة مأمور في إدارة مراقبة الانتاج ، ولم يكن هناك طريقة أضمن من هذه لفقدان الاصدقاء والابتعاد عن الناس ، اذ كان عمله القبض على مهربي البضائع ، فصارت أيدي الاغنياء والفقراء ضده . ثم فصل من عمله هذا لتهاونه في تنفيذ الأوامر . فعاد بعد ذلك الى صناعة الكورسيهات وبقي فيها مدة بسيطة ثم عمل مدرسا في كنسنتون Kensington بمرتب ٢٥ جنيه في السنة لا يكاد يكفي ثمن القوت الضروري . ولكنه عاد بعد ذلك الى مراقبة الانتاج ، وتزوج مرة ثانية في سنة ١٧٧١ ، وانضم الى زوجته وأمهال في لويس Lewes ، في إدارة حانوت لتجارة التبغ والبقالة ، كمعمل اضافي يزيد في دخله .

قضى بين كثيرا من وقته ، في هذه السنين الأخيرة ، في حانة « هوايت هارت White Hart » وحضور الاجتماعات في ناد انضم اليه . وللترفيه عن الأعضاء ، كان ينظم الأزجن الدعابية والأغاني الوطنية ، ويصدر صحيفة في موضوعات أكثر جدية ، وأحيانا كان يشترك في نقاشات حامية عن الاحداث اليومية الجارية . ولما ظهرت براعته في الجدل ، انتخبه زملاؤه كي يتكلم نيابة عنهم في طلب زيادة أجورهم وتحسين ظروف العمل لهم . ف قضى بين عدة أسابيع في تحرير صحيفة بعنوان . « قضية موظفي مراقبة الانتاج ، والآراء الخاصة بالفساد الناجم عن فقر موظفي مراقبة الانتاج » . وفي شتاء عام ١٧٧٢ - ١٧٧٣ ذهب الى لندن لتقديم هذه العريضة الى أعضاء البرلمان والموظفين الآخرين .

لم ترفض العريضة التي قدمها بين نيابة عن زملائه ، لم ترفض فحسب ، بل وطرد من عمله لاهماله واجباته . وأفلس

حانوت تجارة التبغ ، فبيع اثاث بيته وأمتعته الشخصية لانقاذه من السجن بسبب ديونه . فانفصل عن زوجته . واذا قبل على منتصف العمر ، ترك وحيدا خالي الوفاض .

شاء الحظ أن يلتقى أثناء اقامته في لندن بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin الذي أوفد الى هناك كسفير للمستعمرات . وربما أدرك فرانكلين عبقرية بين فحشه على أن يجرب حظه في أمريكا وزوده بخطاب توصية لزوج ابنته ريتشارد باش Richard Bache في فيلادلفيا Philadelphia ذكر له فيه أن بين « شاب عبقرى كفاء » موصيا ، بتعيينه كاتباً أو مساعد مدرس في مدرسة أو مساعد مساح . كان خطاب فرانكلين رأس المال الرئيسى لدى بين عندما نزل في فيلادلفيا في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٧٤ .

ومع هذا ، احضر بين معه رأس مال ثان بالغ القيمة من نوع آخر - هو مرانه الماضى . لاحظ بين الوحشية البدائية التى يسير عليها العدل فى إنجلترا ، وذاق مرارة الفقر ، وقرا وسمع الكثير عن حقوق الانسان الطبيعية ، ورأى الهوة الشاسعة الفاصلة بين ملايين البشر العاديين وبين بضعة الآلاف ، أعضاء الأسرة المالكة ، النبلاء فى بريطانيا ، وعرف الطريقة التى يتبعها نواب الاقاليم الفاسدون فى اختيار أعضاء مجلس العموم House of Commons كما عرف فساد وغباء العائلة المالكة . واذا فكر عميقا فى هذه الأمور ، تملكه عطف شديد على الإنسانية ، كما تملكه حب للديموقراطية وباعث قوى للاصلاح الاجتماعى والسياسى العام .

بعد وصول بين الى فيلادلفيا ، سرعان ما عين محررا فى مجلة بنسلفانيا Pennsylvania وكانت صحيفة جديدة ، فاستمر فى تلك الوظيفة معظم الثمانية عشر شهرا التى

بقيتها تلك الصحيفة . وعلى الفور تقريباً ، بدأ سيرته الطويلة كمغامر مصلح ، فنشر مقالا ندد فيه بالرقيق من الزنوج وطالب بالحاح عتق الأرقاء . بعد ذلك بخمسة أسابيع تكونت في فيلادلفيا أول جمعية أمريكية لمقاومة الرق . وتلا ذلك مقالات أخرى تطالب بمنح المرأة المساواة في الحقوق ، وتقترح تشريع قوانين دولية لحقوق الطبع والنشر ، والرفق بالحيوان والسخرية من عادة المبارزة ، وبند الحروب لتسوية النزاعات بين الأمم .

وبينما هو يكتب تلك المقالات ، شبت بسرعة حرب دولية لعب هو فيها دورا هاما . ففي ربيع سنة ١٧٧٥ قامت معارك كونكورد Concord و لكسنجتون Lexington وبنكر هيل Bunker Hill وبعد مذبحة لكسنجتون في شهر ابريل ، كتب بين الى بنيامين فرانكلين ، يقول : « رأيت من الصعب أن تشتعل النار في البلاد تحت سمعى بمجرد دخولى إليها » .

انقسمت الآراء في المستعمرات انقساماً بالغاً فيما يختص بالمنهج الواجب اتباعه . تراوحت الآراء من المتطرفين أمثال صموئيل آدمز Samuel Adams وجون هانكوك John Hancock اللذين صمما بشدة على ضرورة الحرب ، الى المحافظين الموالين للملك . وكان جورج واشنطن George Washington وبنيامين فرانكلين وتوماس جافرسون Thomas Jafferson من بين القادة الذين أبدوا ولاءهم لبريطانيا ، وتساءلوا عن فكرة الانفصال والاستقلال . أكد كل من المؤتمر الكوننتال الاول والثاني قراراتهما في الولاء للتاج ، مطالبين فقط بتسوية عادلة لمطالبهما .

وفي وسط ذلك التفكير المضطرب والآراء والدوافع المتضاربة ، والجذب والرفع ، كان هناك رجل واحد رأى

هنا الكاتب

ملك الأستاذ الدكتور

رمزي زكسي بطرس

بوضوح اتجاه الأحداث والنتيجة المحتملة . فمنذ البداية ، رأى توماس بين أنه لا مفر من الانفصال عن انجلترا . ففقد كل بقية عام ١٧٧٥ يكتب آراءه . وقبل نشر مؤلفه ، عرضه على عدد من الأصدقاء من بينهم الدكتور بنيامين رش Benjamin Rush الذى اقترح أن يكون عنوان الكتيب « الادراك العام » ، وساعد بين في العثور على ناشر اسمه روبرت بل Robert Bell وهو صاحب مكتبة ومطبعة في فيلادلفيا .

ظهر « الادراك العام » فى ١٠ يناير سنة ١٧٧٦ « ومؤلفه رجل انجليزى » ، وهو عبارة عن كتيب من ٤٧ صفحة ، وثمانه شلنات . فبيع منه ١٢٠٠٠٠ نسخة فى ثلاثة أشهر ، وبلغ مجموع المبيعات الكلية حوالى نصف مليون ، وهذه تعادل بالنسبة الى عدد السكان ، بيع ٣٠ مليون نسخة فى الولايات المتحدة اليوم . والواقع أن كل شخص يستطيع القراءة فى المستعمرات الثلاثة عشرة ، لابد وأن قرأه . ورغم هذه المبيعات الضخمة رفض بين أن يأخذ بنسا واحدا من حصيلة ذلك الكتيب .

ليس فى تاريخ الأدب شئ يعادل « الادراك العام » فى أثره الفورى . كان نداء بوق الى المستعمرات الامريكية لى تحارب من أجل استقلالها - دون قبول الصلح ولا التردد . أبان لهم ذلك الكتاب أن الثورة هى الحل الوحيد لنضالهم مع بريطانيا العظمى وجورج الثالث . فقال بين : « بما أنه لا شئ يجدى غير الصفعات ، فأكراما لخاطر الله هيا بنا الى الانفصال النهائى . اننا ندفع ثمننا غاليا ، وغاليا جدا عن الغاء القوانين ، اذا كان هذا هو كل ما نحارب من أجله . . انه من الحماسة أن ندفع ثمن بنكر هيل من أجل الأرض . . ليس هذا موضوع مدينة أو مقاطعة أو محافظة أو مملكة ، بل موضوع قارة . . ليس هذا مصير يوم ولا سنة ولا جيل ، بل أن ذريتنا مشتركة فى هذه

التجربة .. الآن وقت البذر لاتحاد وايمان وشرف قارة .. ان حزام القارة مربوط واسعا .. الاستقلال هو الرباط الوحيد الذى يحافظ على ارتباطنا معا » .

ومقدمة « الادراك العام » فقرة معتدلة ومهدئة :

ربما كانت العواطف التى تتضمنها الصفحات التالية ليست جيدة الصياغة بما يكفى لان تحظى بالقبول العام . فالعادة الطويلة الأمد التى لا تظن بأن هناك شيئا خطأ ، تعطى مظهرا سطحيا بأنه صواب ، ويشير أولا صفحة مدوية للدفاع عن العادات . ولكن سرعان ما يخمد الصوت . يخلق الزمن مهتدين أكثر مما يفعل العقل .

يتناول القسم الاول من هذا الكتيب نشأة الحكومة وطبيعتها مع تطبيق معين للدستور الانجليزى . تظهر فلسفة المؤلف عن الحكومة فى مثل هذه العبارات :

ليست الحكومة ، حتى وهى فى أفضل حالاتها ، سوى شر لابد منه ، وفى أسوأ حالاتها ، شر لا يطاق .. الحكومة كالثياب ، شارة البراءة المفقودة .. بنيت قصور الملوك على أنقاض مقاصير الجنة .. كلما كثر كمال المدنية قلت حاجتها الى حكومة .

يقول بين ان نشأة الحكومة وقيامها قد صارا ضروريين بسبب عجز الأخلاق الفاضلة عن حكم العالم ، وهنا أيضا شكل ونهاية الحكومة ، أى الحرية والاطمئنان » .

يوجد فرق كبير بين المجتمع والحكومة . ينجذب الناس الى المجتمع وعن طريق التعاون الاجتماعى يمكنهم الحصول على حاجات معينة . وفى هذه الحالة يملك الانسان حقوقا طبيعية معينة مثل الحرية والمساواة . ونموذجيا ، يجب أن يكون الانسان قادرا على ان يعيش فى سلام وسعادة بدون حكومة ، اذا كانت

بواعث الضمير واضحة ومتناسقة ومطابقة بغير مقاومة . وبما أن الجنس البشرى ضعيف طبيعيا ، وغير كامل أخلاقيا ، يلزم وجود قوة رادعة ما ، وهذه توفرها الحكومة . ومع ذلك ، يتوقف أمن وتقدم وراحة الشعب على المجتمع أكثر مما يتوقف على الحكومة . وتجاوب المجتمع وعاداته والعلاقات المتبادلة بين الناس أقوى تأثيرا من أى دساتير سياسية .

بعد ذلك يبدى بين بضعة ملاحظات على الدستور الذى تزهو به انجلترا كثيرا ، معلقا عليه بقوله : « من المسلم به أنه كان نبيلاً إبان العصر المظلم الحقير الذى صيغ فيه . فعندما اجتاحت الطفيان العالم ، فإن أقل تزحزح عنه كان خلاصا ماجدا . ولكن من السهل توضيح أنه غير كامل وعرضة للتأويلات المتضاربة وغير قادر على تحقيق ما يتظاهر بالوعد به » . ما أهم الصفات التى يجب أن تتحلى بها الحكومة - المسئولية - التى اعتبرها بين غير موجودة اطلاقا فى الدستور البريطانى . انه معقد بطريقة تجعل من المستحيل معرفة المسئول عن شيء بعينه . والجزء الوحيد المشكور فى ذلك الدستور هو حق الشعب ، نظريا على الأقل ، فينص على اختيار أعضاء مجلس العموم House of Commons بالانتخاب . واقترح بين قاعة تشريعية واحدة للمستعمرات ينتخب أعضاؤها ديموقراطيا ، ورئيسا ، ووزارة ذات قسم تنفيذى مسئول أمام الكونجرس .

ادخر بين أقدح الفاظه وأعظم احتقاره لدستور الملكية الوراثية . هاجم مبدأ الملكية كله من أساسه ، ولاسيما الصورة الانجليزية من هذا المبدأ .

عرف العالم حكومة الملوك ، أول ما عرفوها ، من الوثنيين الذين حاكمهم فى هذه العادة أبناء إسرائيل . كانت الاختراع الأكثر ازدهارا ، الذى أقامه الشيطان لنشر عبادة الاصنام . قدم

الوثنيون فروض العبادة للوكهم الاموات، وتحسن العالم المسيحي بفعل نفس ذلك الشيء للوكهم الأحياء .. واضفنا نحن الى شر الملكية ، شر حق الوراثة . ولما كان الشر الاول تحقيرا وتقليلا لأنفسنا ، فان الشر الثاني ، كحق ، اهانة لنا ، وفرض على ذريتنا .. ومن اقوى البراهين الطبيعية على سخافة حقوق الوراثة للملوك ، أن الطبيعة نفسها تشمئز منها ، والا فانها تسخر منا فتعطينا « حمارا » بدل « اسد » .

ورجوع شرعية الوراثة الانجليزية للعرش الى عصر الغزو ، امر مشكوك فيه ، في نظر بين ، فيقول : « نزل بايجلتر صعلوك فرنسي ومعه عصا مملوكة ، فاقام نفسه ملكا لانجلترا بغير موافقة السكان الوطنيين ، وهذه ببساطة نشأة دنيئة حقيرة - وبالتأكيد لا تنطوي على شيء الهى » . اذا امنت الملكية فريقا من الناس الاخيار والعقلاء ، فلا مانع . ولكنها « تفتح بابا » للاغبياء والاشرار والمفسودين » .. أولئك الناس الذين ينظرون الى أنفسهم على أنهم ولدوا ليحكموا بينما ولد الآخرون ليطيعوا ، سرعان ما يتخلقون بالوقاحة . وهم بخلاف سائر الجنس البشرى قد تسمت عقولهم منذ عصر مبكر ، بالعظمة والصلف .. وعندما يتولون الحكومة بالوراثة ، فكثيرا مايكونون جهلاء وغير صالحين لآى شيء فى جميع انحاء المملكة » . والسماح للملوك القصر والشيوخ بالجلوس على العرش يخلق عددا من الشرور والمساوىء فى الحالة الأولى يكون الحكم الحقيقى للمملكة فى يدى وصى على العرش ، وفى الحالة الثانية يصير الحكم عرضة لنزوات ملك عجوز خائر .

وردا على القول بأن وراثة العرش تمنع قيام الحروب الأهلية ، اشار بين الى أنه منذ عصر الغزو اجتاحت انجلترا : « مالا يقل عن ثمانى حروب أهلية وتسعة عشر تمردا » ، وقال :

لا يعمل الملك في انجلترا الا القليل جدا زيادة على اعلان الحروب وتوزيع المناصب ، وهذا ، ببساطة ، معناه انه يفقر الأمة ويضمها معا من آذانها . فباله من عمل رائع حقا ان يتقاضى رجل عنه ثمانمائة الف جنيه استرليني سنويا ويعبد من أجل هذا العمل ! ان رجلا أميناً واحداً لأعظم قيمة للمجتمع وفي نظر الله أيضا ، من جميع أولئك السوق المتوجين الذين عاشوا في هذه الدنيا .

أدى بين فروض الاحترام ، في عدة فقرات الى جورج الثالث . فكتب بعد مذبحه لكسنجتون ، يقول : « انى لأبذل الى الأبد فرعون انجلترا القاسى القلب والسيىء الطباع ، واحترق ذلك الوغد ذا اللقب الرائف « أبو شعبة » الذى يسمع من مذابحهم دون شعور ، وينام ناعم البال ودمهم على روحه » . ثم يستطرد في فقرة لاحقة ، فيقول : « يقول البعض ، ولكن أين ملك امريكا ؟ فأرد عليك ، يا صديقى ، بقولى : انه بحكم فوق ، ولا يعمل على ابادة الجنس البشرى ودماره كما بفعل وحش بريطانيا الملكى » .

واذ فجر بين بعض الآراء الشعبية عن الحكومة الملكية ، انتقل الى « بعض الافكار عن الحالة الراهنة للشئون الامريكية » . فأكد النقاش الاقتصادى للانفصال من بريطانيا ، وعن ادعاء المحافظين بأن امريكا ازدهرت بسبب صلتها بانجلترا ، فقال :

كان بوسع امريكا ان تزدهر بذلك القدر ، وربما بأكثر منه لو لم تتدخل في شئونها اية قوة اوروبية . فمواد التجارة اتى اغنت امريكا بها نفسها هي ضروريات الحياة ، وستجد دائما سوقا لمنتجاتها طالما كانت عادة اهل أوروبا ان يأكلوا .. يجلب قمحنا ثمننا في اية سوق اوروبية ، وسلعنا المستوردة يجب ان ندفع ثمنها ، ولذا يمكننا ان نشتريها من أين يحلو لنا .

اما القول بأن بريطانيا قامت بحماية المستعمرات ضد الاسبانيين والفرنسيين والهنود فلم يقبله بين في احتقار ، وعلق عليه بقوله : « كان يمكن أن تحمي بريطانيا تركيا لنفس الدوافع ، أى من أجل التجارة والمستعمرات وعلى أية حال كان الدفاع على حسابنا ، كما كان على حسابها » .

ادرك بين أن من أقوى الروابط التي تحافظ على عدم انفصال المستعمرات ، فكرة عاطفية بريطانية ، إذا كان هذا حقيقيا . وهى تجلب العار على سلوكها . فحتى الوحوش لا تأكل صغارها ، ولا يعلن الموحشون الحرب على عائلاتهم .. فقد اتخذ الملك وأذنا به العبارة « الدولة الوالدة أو الدولة الأم » يسوعيا لغرض بابوى وضع ، لكسب انحياز غير عادل على الضعف الساذج لعقولنا . فان أوروبا ، وليست إنجلترا هى الدولة الأم لأمريكا . قال بين ، ان الدنيا الجديدة كانت ملجأ لمحبي الحرية المدنية والدينية المضطهدين من جميع أنحاء أوروبا .. لا يصل عدد السكان ، الذين من أصل انجليزى ، حتى فى هذه المحافظة ، الى ثلث عدد سكانها الكلى ، وهذا ما يجعلنى استاء لاطلاق عبارة « الدولة الوالدة أو الدولة الأم » على إنجلترا وحدها ، اذ يكون هذا انانية وزيفا وبخلا وضيقا فى التعبير » .

علق بين على تحذير جورج واشنطن « أن نبتعد عن التحالف الدائم مع أى جزء من العالم الأجنبى » ، وعلى سياسة توماس جيفرسون : « السلم والتجارة والصداقة مع جميع الأمم - ولا نشتبك فى تحالف مع أى أمة منها . » علق بين على هذين القولين مقترحا أن هناك مساوئ عديدة للعلاقة المستمرة مع بريطانيا :

.. لأن أى خضوع أو اعتماد على بريطانيا العظمى يؤدى الى الاشتراك المباشر لهذه القارة فى الحروب والمعارك الأوروبية ،

ويضعنا في موقف العداء مع الأمم ، التي بغير ذلك تسعى الى صداقتنا والتي ليس بيننا وبينها اى كدر او شكوى . ولما كانت أوروبا سوقا لتجارتنا ، وجب علينا الا نكون اية علاقة انحياز مع اى جزء منها . ان صالح أمريكا الحقيقي هو فى الابتعاد عن المنازعات الاوروبية ، الأمر الذى لن تستطيعه أمريكا وهى الكفة الراجحة فى ميزان السياسة البريطانية . فأوروبا زخرة بالكثير من الممالك الراضية فى السلام ، واذا اندلعت نيران حرب بين إنجلترا واية قوة اجنبية ، تحطمت تجارة أمريكا بسبب علاقتها ببريطانيا .

استعرض بين مساوىء الحكومة البريطانية المتعددة الصور ، فاستنتج :

ليست قوة بريطانيا هى التى تنصف هذه القارة . فسرعان ما ستكون شئوننا كثيرة ومعقدة فلا تستطيع قوة بعيدة عنا ان تدبرها تدبرا مريحا ، وهكذا تجهلنا ، لان البريطانيين اذا لم يستطيعوا قهرنا فلن يستطيعوا ان يحكمونا . فاذا كان علينا دائما ان نقطع ثلاثة آلاف او اربعة آلاف ميل لعرض موضوع او تقديم شكوى ، ثم ننتظر اربعة او خمسة شهور ليصلنا الرد ، الذى عندما يصل يحتاج الى خمسة او ستة شهور اخرى لتفسيره . وعلى هذا ينظر اليه بعد بضع سنوات على انه حماقة و «معيلة» . انها اسخافة ان تستمر جزيرة تحكم قارة . لم تجعل الطبيعة ، بحال ما ، التابع اكبر من الكوكب المتبوع .

ألقى بين مرافعه مشيرة للعواطف من أجل المتسككين وضعاف القلوب ، الذين مازالوا يعتقدون ان الاتفاق او الصلح ممكن ، فقال :

أيمكنكم ان يهيئوا اليها الزمن الذى مضى ؟ ايمكنكم ان تمنحوا البقاء لبرائته السابقة ؟ كذلك لايمكنكم الصلح بين بريطانيا

وأمرىكا . لقد انقطع الآن آخر حبل للرجاء . يلقى شعب إنجلترا الخطاب ضدنا ، وهناك أضرار لن تغفرها الطبيعة ، وإذا غفرتها فلن تكون طبيعة بعد ذلك . وكما أن العاشق لن يغفر لمن يهتك عرض معشوقته ، كذلك لن تغفر هذه القارة لبريطانيا مذابحها .

بينما يرزح العالم كله تحت عبء الظلم ، يجب أن تفتح أمريكا أبوابها على مصاريعها للحرية وتعد ملجأ للبشرية المضطهدة .

كرس بين الباب الأخير من كتيبه لموضوع عملى جدا ، وهو « المقدرة الحائية لأمريكا » ، ليحصل على ثقة الأمريكيين ويقتنعهم بأن لديهم القوة البشرية والتمرين الصناعى والموارد الطبيعية ، ليس فقط لشن الحرب بنجاح على بريطانيا ، بل ، إذا اقتضت الضرورة ، على العالم المعادى . تحتوى المستعمرات الآن على عدد ضخم من الرجال المسلمين والمدرين ، ويمكنها تكوين أسطول بحرى يعادل أسطول بريطانيا فى وقت قصير لأن القطران والأخشاب والحديد والحبال متوافرة لدينا بكميات كبيرة وان « بناء السفن لمفخرة أمريكا التى لا تزال تتفوق فيها على العالم اجمع . » وعلى أية حال ، ان أمريكا فى حاجة الى أسطول للدفاع والحماية ، لأن البحرية الانجليزية قليلة الجدوى وهى على بعد ثلاثة أو أربعة آلاف ميل ، وعديدة النفع اطلاقا وقت نزول الخطر . »

وعلى ضوء المجادلات الدينية التى اشتبك فيها بعد ذلك ، من الممتع أن نبين آراء بين الدينية فى هذه المرحلة من حياته .

أما فيما يختص بالدين ، فأقرر أنه واجب لا غنى عنه لجميع الحكومات أن تحمى جميع أساتذة الدين الغيورين ، ولست أعرف دهلا آخر يجب أن تقوم به الحكومة (وهذا طعن واضح ضد الكنيسة ، يبنى من ورائه فصل الكنيسة عن

الحكومة) . . اما عن نفسى فانتى اؤمن تماما وبعقيدة انها مشيئة
الاله القادر على كل شيء ، ان تكون بيننا خلافات فى الآراء
الدينية ، فهذا يسمح بمجال اوسع لطيبتنا المسيحية . واذا
اتفقت طريقة تفكيرنا جميعا ، اجتاحت تكويناتنا الدينية الى مادة
للنقاش ، والى هذا المبدأ الحر ، انطلع الى جميع القيم التى
بيننا ، لنكون كأطفال أسرة واحدة لا يختلفون الا فيما يطلقون
عليه الاسم الاول او الاسم المسيحى .

لخص بين أسباب تمسكه برأيه فى « أنه ما من شيء يسوى
أمورنا بسرعة وبسهولة مثل الاعلان الصريح لاستقلالنا » . . ختم
كتيبه « الإدراك العام » بذكر أربعة عوامل : (١) طالما أن أمريكا
تعتبر من رعايا بريطانيا ، فما من دولة أخرى يمكنها التدخل فى
الخلاف بينهما . (٢) لا يمكن انتظار مساعدة من فرنسا أو
اسبانيا لاصلاح الصدع بين بريطانيا وأمريكا وتقوية العلاقة
بينهما لأن مثل هذه الخطوة ستكون ضد مصالحهما . (٣) طالما
يعترف الأمريكيون بأنهم رعايا بريطانيا ، فانهم سيعتبرون فى نظر
الأمم الأجنبية عصاة متمردين ، وهكذا لا يكسبون الا القليل من
عطفهم . (٤) اذا أعد الأمريكيون تقريراً يوضحون فيه شكواهم
ضد بريطانيا وعزمهم على قطع كل علاقة بها ، وإرسال نسخ
من هذا التقرير الى جميع الدول ، معبرين عن نواياهم السلمية
مع تلك الدول ، ووعبتهم فى اقامة علاقات تجارية ، صارت النتائج
فى صالحنا حداً .

واختتم بين قضيته بقوله :

. . اذا لم يعلن الاستقلال فستظل القارة تشعر بأنها مثل
رجل دائم التأجيل لعمل كربه من يوم الى يوم ، رغم أنه يعلم أن
ذلك العمل لابد ان يتم ، ويكره أن يبدأ فيه ، وفى الوقت نفسه

يرغب في الانتهاء منه ، ويظل مشغول البال باستمرار بضرورة ذلك العمل .

لماذا ، بدلا من أن يخلق كل منا في الآخر مستيريا أو متسائلا ، لماذا لا يمد كل منا الى جاره يد الصداقة من كل قلبه ، ونتحد في رسم خط ، كعمل من أعمال النسيان وبدفن في حيز النسيان كل نزاع سابق . ولننقض على اسم عضو من حزب الأحرار وعضو في حزب المحافظين ، ولا يسمع بيننا سوى « مواطن صالح » و « صديق وفي » و « مؤيد فاضل لحقوق الإنسان وحقوق ولايات أمريكا الحرة والمستقلة » .

كانت هذه هي الرسالة الثورية التي بعث بها « الإدراك العام » الى الشعب الأمريكي ، صاعدا السلم من أسفل الى الأرض ، ومن الأدلة العملية الى النداءات المنحازة لشخص مفعم بالعواطف ، ووطنى عنيف ، وثورى مفطور .

يمكن تصوير الآثار الفورية والتلقائية لكتيب « الإدراك العام » بالاستشهاد بأقوال بعض القادة المعاصرين . لقد تبخرت شكوك جورج واشنطن عندما كتب الى جوزيف ريد في نورفوك : « أن مزيدا قليلا من مثل هذه الأدلة المتأججة كالتى عرضت في فالموث Falmouth ونورفوك ، اذا أضيف الى المذهب السليم والأسباب المفحمة التى يضمها كتيب « الإدراك العام » لن يترك الأعضاء فى حيرة فيما يختص بتقرير مبدأ الانفصال » . وبعد ذلك ببضعة أسابيع كتب أيضا الى ريد : « من الخطابات الخاصة التى تسلمتها أخيرا من فرجينيا Virginia أرى أن كتيب بين بعنوان « الإدراك العام » ، قد أحدث تغييرا عجيبا هناك فى عقول كثير من الناس » . وكتب جون آدمز الى زوجته يقول : « أرسلت اليك كتيباً عنوانه (الإدراك العام) وضع للدفاع عن مذاهب ، من المعقول أن تتوقع أن وقف الطغيان

ومقاومة الظلم سرعان ما ستكون عقيدة عامة » . وبعد أن قرأته البيجيل Albigail أجابت : « إن هذا الإدراك العام ، جاء في الوقت المناسب كشعاع من الوحي لتبديد شكوكنا وتحديد اختيارنا . » وقال بنيامين رش عما كتبه بين : « يخرج من المطبعة بأثر قلما أنتجته حروف الطباعة والورق في أى عصر وفي أية دولة . » وذكر الجنرال تشارلز لى Charles Lee : « أعترف بأنه اقنعنى » . وذكر فرانكلين : « لقد أحدث اثرا ضخما . » وقال وليام هنرى درايتون William Henry Drayton : « جاء هذا الإعلان كقصف الرعد على أعضاء المؤتمر الكونتيننتال » .

وعلق السير جورج ترفليان George Trevelyan في كتابه « تاريخ الثورة الأمريكية » ، بقوله :

من الصعب أن نذكر اسم أى انشاء بشرى كان له ذلك الأثر الفوري وفي الحال ، وأمتد إلى نطاق واسع ، وكان له مثل ذلك الدوام . . سرق هذا المؤلف ، ونظم شعرا وحوكى ، وترجم إلى لغة كل دولة كان للجمهورية الجديدة من يودونها فيه . وبودون لها أطيب الامانى . . وتبعنا للصحف المعاصرة ، حول كتيب « الإدراك العام » إلى الاستقلال أولوفا لم تتحمل من قبل مجرد فكرة الاستقلال . لم ينقص ما فعله هذا الكتيب عما تفعله المعجزات ، وحول المحافظين إلى أحرار .

بعد بضعة أشهر من ظهور « الإدراك العام » زودت معظم الولايات موفديها بتعليمات أن يصوتوا طالبين الاستقلال . وترددت ماريلاند Maryland وحدها ، وعارضت نيويورك وفى الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦ أى بعد أقل من ستة شهور من ظهور كتيب بين الشهير من المطبعة ، اجتمع الكونجرس الكونتيننتال فى قاعة الدولة بولاية فيلادلفيا ، وأعلن استقلال الولايات المتحدة

الامريكية . ورغم ان بين لم يكتب القرار بنفسه ، فانه كان على صلة قريبة من توماس جيفرسون اثناء صياغته . وباستثناء بدد ضد الرق ، نادى بين به ، كانت المبادئ التى نادى بها يتضمنها ذلك القرار الشهير .

ان سرد حياة بين اللاحقة مطابقة غير مباشرة لقصة « الادراك العام » . ويمكن تصوير الاحداث الهامة باختصار . فبعد الاستقلال مباشرة ، انضم بين الى جيش الثورة . ولما كان خطيبا كثير الحجج فى دفاعه عن القضية الامريكية ، اسهم بقسط كبير فى الوحدة القومية وروحها ، بمجموعة من الكتيبات ، وكل منها يحمل عنوان « الازمة » . يبدأ الكتيب الاول من هذه المجموعة بسطور كثيرة الورد على الالسنه : « هناك اوقات تختبر فيها ارواح الناس . يتراجع جندى الصيف ووطنى ضوء الشمس ، عن خدمة وطنهما ، ولكن من يقف فى هذه الخدمة الآن ، يستحق شكر كل من الرجل والمرأة . » وبعد بضعة اشهر ، اذ عرف الكونجرس فيمة بين كاخصائى فى الاعلام ، وداعية الى الاخلاق الفاضلة ، عينه وزيرا للجنة الشؤون الخارجية - وبدا كان بين اول وزير للولايات المتحدة ، بيد ان الاحداث اجبرته على الاستقالة من منصبه . فعين بعد ذلك امين سر لمؤتمر بنسلفانيا . وفى سنة ١٧٨١ ، اوفد الى فرنسا مع جون لورنز John Lorens لاحضار مساعدة مالية للحكومة الامريكية التى كانت فى اشد الحاجة الى المعونة ، فعاد فى السنة نفسها بالأموال والامدادات .

واذا انتهت الثورة فى عام ١٧٨٣ ، عكف بين على اختراعاته الميكانيكية مصمما اول جسر حديدى معلق واخذ يجرى التجارب على قوة البخار . فقرر استشارة المهندسين فى فرنسا وانجلترا عن بعض المسائل الميكانيكية فذهب الى أوروبا عام ١٧٨٧ حيث بقى مدة خمسة عشر عاما .

ما ان وصل بين الى الخارج حتى اندلعت نيران الثورة الفرنسية ، نأيدها بين بحماس اذ وجد فيها دفعا جديدا عن آرائه الديموقراطية . ودفاعا عن هذه الثورة رد على هجوم ادموند بيرك Edmund Burke أخرج كتيبـه الذائع انجلترا اجتمعا للقبض عليه بتهمة الخيانة العظمى بسبب المذهب المشروح في ذلك الكتيب ، فر الى فرنسا حيث انتخب في البرلمان الفرنسى عضرا ممثلا لكاليه Calais وفى محاولة لانقاذ لويس السادس عشر من الاعداء ، اشتبك بين في نقاش مع بعض المتطرفين محاولة لانقاذ لويس السادس عشر من الاعداء ، اشتبك بين في أمثال روبسبير Robespierre ومارات Marat . وعندما تسلم هذان العنصران الحكومة ، قبض على بين وجرد من جنسيته الفرنسية الترقية ، وسجن مدة عشرة شهور ، ونجا من المقصلة بأعجوبة . ولما أفرج عنه في السجن بواسطة السفير الأمريكى جيمس مونرو James Monroe عولج من ضعفه حتى استعاد صحته في بيت مونرو .

كان مؤلفه العظيم في ذلك الوقت هو « عصر العقل Age of Reason » الذى أطلق عليه أحيانا « ثورة اللحد » . والواقع أن بين كان يعتقد بوجود اله واحد ليس في دين معن . وكان « عصر العقل » ينتقد « العهد القديم » انتقادا لأدعا ، وضعه بين لابقاف موجة الألحاد التى اجتاحت فرنسا في ههر الثورة . ومع ذلك ، فان علماء اللاهوت والجماعات الدينية الأرثوذكسية أدانوا بين بشدة ووصفوه بأنه متطرف خطير ، وغير مؤمن .

عندما رجع بين الى أمريكا في سنة ١٨٠٢ وجد أنه لم يستقبل كبطل ثورى ، بل كان منفيًا من المجتمع بواسطة القادة السياسيين وأنضاء الكنيسة ، بسبب تأليف كتيب «عصر العقل» ونظرياته السياسية المتطرفة . وفى نيوروشيل New Rochelle

ونيو يورك حيث استقر ، ضمن عليه بحق التصويت بحجة انه ليس مواطنا امريكيا . ليس هذا فحسب ، بل وحدثت محاولة لاغتياله . وبعد سبعة اعوام من سوء المعاملة والكرهية والاهمال والتقر واعتلال الصحة ، مات في سنة ١٨٠٩ في الثانية والسبعين من عمره ، فمنع من الدفن في مقابر الكواكر Quaker (اصدقاء مذهب جورج فوكس) .

بقيت العداوة والاكاذيب والتعصبات العنيفة التي لقيها بين في اواخر سني حياته الى العصور الحديثة . فقد اشار اليه ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt بقوله : « ذلك الملحد الصغير القلبر » ، وهكذا كان بين مثل «الامبراطورية الرومانية المقدسة» ، التي لم تكن امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة ، فلم يكن بين ملحدا ولا صغيرا ولا قلبرا . وحديثا حتى سنة ١٩٣٣ منع اذاعة برنامج اذاعي عن بين في محطة اذاعة مدينة نيويورك .

انتخب بين في «قاعة الشهرة لعظماء الامريكيين» ، ولكن هذا لم يكن قبل سنة ١٩٤٥ ، اى بعد تأسيس تلك القاعة بخمس واربعين سنة . وفي السنة عينها اعادت مدينة نيوروشيل لذلك البطل الثورى حقوق المواطنين التي فقدتها في سنة ١٨٠٦ .

كان ذلك هو الرجل الذى استحق ، ربما اكثر من اى شخص آخر ، لقب «مؤسس الاستقلال الامريكى» . ذلك الذى كان اول من استخدم العبارة «الولايات المتحدة الامريكية» ، الذى رأى مسبقا ان «الولايات المتحدة الامريكية ستكون عظيمة في التاريخ مثل مملكة بريطانيا العظمى» ، والذى أعلن ان «قضية امريكا هي ، بمعنى اكبر ، قضية البشرية كلها» . وما من اشارة توضح خلق بين خير من رده على عبارة فرانكلين : «اينما توجد الحرية ،

يوجد وطني» . فقال بين : «حيثما لا توجد الحرية يوجد
وطني» .

وحتى في عصره ، لم تكن أنشودة الكراهية وعدم الاعتراف
بالفضل ، عامين . وقد تجاسر أندريو جاكسون Andrew Jackson
أن يقول : «ليس توماس بين بحاجة الى تمثال مصنوع بالأيدي
اذ أقام تمثالا في قلوب جميع عشاق الحرية» .

٣ - القديس حامى المشاريع الحرة

آدم سميث ADAM SMITH

« ثروة الامم »

بعد ان مضى شهران على اسهام كتاب «الادراك العام» في اعلان الاستقلال والاحداث المعاصرة الاخرى للثورة الامريكية ، ظهر في لندن كتاب قدر له ان يحدث رد فعل عميق في مجال آخر من مجالات النشاط البشرى . وعلى تقيض كتيب بين الملهب للمشاعر ، كانت رسالة آدم سميث الطويلة ، ذات المنجلدين بعنوان «تساؤل عن طبيعة واسباب ثروة الامم» ، قنبلة زمنية ، جذبت قليلا من الانتباه في اول الامر ، والواقع ان هذا المؤلف لم ينجح في احداث الاثر المرجو كاملا ، الا في القرن التالى لموت مؤلفه بعد الثورة الامريكية ، وكانت الثورة الفرنسية في طور التدبير ، وتقدم الانقلاب الصناعى بسرعة مدفوعا الى الامام باكتشاف قوة البخار . وقد وصف أحد المعلقين الحقبة الماضية بأنها «العصور المظلمة للعصر الحديث» . وفى انجلترا ، كان كل مظهر من مظاهر الحياة الاقتصادية تحت المراقبة الدقيقة للحكومة .

جمدت الاسعار ، وحددت الاجور وساعات العمل ، وعدل الانتاج ، وسيطرت الدولة تماما على التجارة الخارجية من واردات وصادرات ، وتكاد الحرب تكون موجودة باستمرار . فتنقلب السياسة القومية جيشا وبحرية قوين ، وشعبا ضحما ، والاستيلاء على المستعمرات في جميع بقاع الارض ، واضعاف الدول المنافسة مثل فرنسا بالطرق الطبية او الشريرة . ولقى كل اقتراح لتوزيع الثروة بالعدل ، معارضة عنيفة من الطبقات الحاكمة . واقتصر التعليم على القلة المحبوبة ، وكانت القوانين الجنائية بالغة القسوة والحقوق السياسية للجمهور موجودة نظريا اكثر منها عمليا .

وكما كانت الحال لعدة أجيال ، مازالت تملك الارستوقراطية القائمة قابضة على زمام الحكومة . غير انه قامت طبقة جديدة قوية من ائتجار والصناع ، تطالب بامتيازات خاصة لانفسها ، فحصلت عليها . كانت الصادرات في نظر هذه الفئة نعما ، والواردات كراث ، ويجب الا يسمح للاموال بمغادرة الدولة . يجب الاحتفاظ دائما بميزان تجارى مرموق ، يجب ان تكون اجور العمل منخفضة ، وساعاته طويلة ، ويجب حماية الصناعات الوطنية بتعريف جمركية عالية . ومن الضروري امتلاك أسطول تجارى قوى ، وفرض كل اجراء من شأنه ان يساعد التتجار تلقائيا ، وذلك لفائدة الامة ككل . وتحت ضغط الاصوات القوية اصدر البرلمان قرارا بتحويل جميع هذه المقترحات الى قوانين .

بعد ذلك جاء آدم سميث معترضا نفس ما اعتبره آراء خطأ وضارة . ويمكن اعتبار حياة رجولة سميث حتى هذه المرحلة اعدادا للعمل الضخم الذى وطد نفسه للقيام به . كان مواطنا اسكتلنديا التحق في الرابعة عشرة من عمره (سنة ١٧٣٧) بجامعة جلاسجو حيث وقع تحت نفوذ استاذة العظيم فرنسيس

هتشسون Francis Hutcheson الذى كثيرا ما كان يكرر مذهبه « السعادة العظمى للعدد الاعظم » ، حتى صار ذلك المذهب فلسفة سميث الدائمة . وبعد ذلك ذهب الى جامعة اكسفورد حيث بقى ست سنوات كرس معظم وقته فيها لقراءة الادب على مدى واسع . ولما عاد الى اسكتلندة ، أخذ يلقي المحاضرات فى ادنبره Edinbure حتى سنة ١٧٥١ عندما عين أولا استاذاً لكرسى علم المنطق ثم الميثافيزيقا ثم اخيرا الفلسفة الاخلاقية فى جامعة جلاسجو . ظل مدة اثنتى عشرة سنة يعمل محاضرا موهوبا ذائع الصيت ، وزادت شهرته عندما نشر كتابه «نظرية العواطف الاخلاقية» الذى لقي رواجاً عظيماً ، وهو مؤلف اعتبره معاصروه افضل من «ثروة الامم» . واذا أغرته المكافآت المالية السخية ، استقال من منصبه كأستاذ ، ليصاحب احد الشبان النبلاء كرفيق ومدرس ، فى رحلة الى أوروبا تستغرق ثلاث سنوات . وهناك تعرف على رواد الاقتصاد والفلاسفة والمفكرين السياسيين لذلك العصر ، ولاسيما فى فرنسا .

وفى سنة ١٧٥٩ ، تضمنت مذكرات سميث فكرة «ثروة الامم» ، ولكن العمل فيه سار ببطء الى أن أتى ثمرته . فاستغرق سنوات من التأمل والدراسة والقراءة والملاحظات المبدئية والتحدث الى أناس من مختلف المشارب فى الحياة ، ومراجعات لاتنتهى ، قبل أن بعد هذا المؤلف للطبع . وقبل نشر هذا الكتاب ، قضى سميث معظم ثلاث سنوات فى لندن حيث ناقش كتابه هذا مع بنيامين فرانكلين مندوب المستعمرات الأمريكى . ولم يخرج ذلك الكتاب من المطبعة الا فى التاسع من مارس سنة ١٧٧٦ . ومنذ ذلك التاريخ طبع منه عدة طبعات ، وترجم الى معظم اللغات الحية فى العالم .

كان كتاب «ثروة الامم» دائرة معارف أكثر منه مجرد

رسالة في الاقتصاد . واطلق عليه أحد النقاد اسم «تاريخ ونقد جميع الحضارات الأوروبية» . بدأ سميث بمناقشة موضوع تقسيم العمل ، ثم عرج على نشأة النقود وفانديتها ، وأسعار السلع ، وأجور العمل ، وأرباح التجارة ، وإيجار الأرض ، وقيمة الفضة ، والفرق بين العمل المنتج وغير المنتج . بعد ذلك شرح التقدم الاقتصادي في أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وقام بتحليلات واسعة لنقد السياسات التجارية والاستعمارية للام الأوروبية ، ودخل الملك ، ومختلف طرق الدفاع عن العدل ، وإقامته في المجتمعات البدائية ، ونشأة ونمو الجيوش القائمة في أوروبا ، وتاريخ التعليم في العصور الوسطى ، ونقد للجامعات في عصره ، وتاريخ القوة الدنيوية للكنيسة ، وتضخم الديون الشعبية ، وفي النهاية اختبار لمبادئ نظام الضرائب وأنظمة الدخل العام .

قد تكون القضية العامة التي بنى عليها سميث كتابه «ثروة الأمم» من وضع نيقولو ماكيافيلي Niccolo Machiavelli وبصها : كل بشر تحركه أولا وقبل كل شيء ، مصالحه الشخصية . وليسبت الرغبة في الثروة الا أحد المظاهر هذه . وتقف دوافع الانانية وراء جميع أنشطة البشرية . وزيادة على هذا ، فبدلا من أن يجد سميث أن هذا المظهر في سلوك الإنسان ممنوع وغير مرغوب فيه ، اعتقد أن انانية الفرد تؤدي الى صالح المجتمع . قال أن خير طريقة لرؤاهية الأمة ، هي السماح لكل إنسان بأن «يبدل جهدا منتظما ومستمرًا بدون انقطاع لتحسين حالته . . . لانتوقع الحصول على غذائنا من انسانية الجزار أو صانع البيرة أو الخباز ، بل من نظرتهم الى صالحهم . اننا نخطب أنفسنا ، ليس عن حبهم لخير البشر ، وانما عن حبهم لأنفسهم ، ولانحدث اليهم قط عن حاجتنا وانما عن منفعتهم» . وبسبب أمثال هذه الفقرات ،

تحدث راسكين Ruskin عن سميث على أنه «الرجل الاسكتلندي ذو نصف التربية ونصف الذكاء ، الذي علم التجديف الصريح ، «انك ستبغض الرب الهك ، وتلعن ناموسه ، وتحسد جارك على خيراته » .

قال سميث : «أن الصناعة الحديثة تغدو ممكنة بتقسيم العمل ، وتكديس رأس المال . وكل من هذين مفسر بالصالح الشخصى أو «النظام الطبيعى» ، كما وصفه فلاسفة القرن الثامن عشر . ودون وعى ، تقود «يد الهية» الانسان كى يسهم فى خير الكل بالعمل من أجل نفسه ومن أجل ربحه . ومن الطبيعى ان يتبع ذلك ، أنه يجب أن يكون هناك أقل قدر ممكن من تدخل الحكومة فى النظام الاقتصادى - فخير حكومة ، كما قال توم بين فى مناسبة أخرى ، هى الحكومة التى تحكم بأقل مايمكن من الحكم .

تناول سميث صناعة الدبابيس ، كتفسير بيانى لشرح مزاي تقسيم العمل : «فالصانع الذى لم يتعلم هذه الصناعة .. ولايعرف طريقة استعمال الآلات المستخدمة فيها ... فربما أنه قلما يستطيع بأكبر جهد أن يصنع دبوسا واحدا فى اليوم ، وبالتاكيد لا يستطيع اطلاقا أن يصنع عشرين دبوسا» . ويتقسيم عملية الصنع «الى ثمانى عشرة عملية متفرقة ، تقوم بها جميعا فى بعض المصانع ، عدة أياد متفرقة ... رأيت مصنعا صغيرا من هذا النوع حيث يعمل عشرة رجال فحسب ... يصنعون فيما بينهم ثمانية وأربعين ألف دبوس فى اليوم» كان هذا «نتيجة للتقسيم الصحيح لعملياتهم الصعبة وتجميعها» .

وأردف سميث يقول ان نشأة تقسيم العمل كانت عند الشعوب البدائية :

فمثلا ، يوجد بين افراد قبيلة من الصيادين او الرعاة ، شخص معين يقوم بصناعة القسي والسهام بحذق ومهارة اكثر من أى شخص غيره فى تلك القبيلة . فغالبا مايقايز هذا الشخص على القسي والسهام بالماشية أو بلحوم الصيد مع زملائه . فيحد أنه بهذه الطريقة يحصل على ماشية ولحوم صيد اكثر مما لو أنه ذهب بنفسه الى الحقل ليصيدها . وعلى هذا ، فمن نظرته الى صالحه ، صارت صناعة القسي والسهام عمله الرئيسى ..

ويتفوق شخص آخر فى صناعة هياكل واغطية أكواخهم الصغيرة أو بيوتهم المتنقلة ..

وبنفس هذه الطريقة يصير شخص ثالث حدادا أو نحاسا ، ويغدو شخص رابع دباغ جلود .. وهكذا ، اذ يتأكد كل فرد من قدرته على مبادلة كل مايريد عن حاجته مما يصنعه بنفسه ، بما يريد عن حاجة رجل آخر مما صنعه هذا الاخير ، كلما ساحت له الفرصة ، فإن هذا يشجع كل انسان على أن يقصر جهده على عمل واحد بعينه ، وينمى في نفسه كل حذق وبراعة وموهبة يملكها لاتقان ذلك النوع المعين من العمل الذى ارتضاه لنفسه .

« ينتقل سميث بعد ذلك الى موضوع النقود وأسعار السلع ، فيذكر مبدأ يهاجمه علماء الاقتصاد الاصليون على أنه خطأ ، ولكنه أقر فى حقبات تالية على أنه صرخة وثرثرة المفكرين الاشتراكيين ، فيقول سميث : «العمل وحده لاتتغير قيمته أبدا ، وهو وحده المستوى الحقيقى والاخير ، الذى به تقدر وتقارن جميع السلع ، فى جميع الازمنة والامكنة . انها ثمنه الحقيقى ، أما النقود فثمنه الاسمى فقط » .

لم يكن سميث أكثر صراحة فى أى موضع آخر من كتاب «ثروة الامم» ، وأحيانا ليس أكثر سخطا ، منه فى تعليقاته على

عدم المساواة في المساومة بين أصحاب العمل والعمال ، وفي معارضته لفكرة المتاجرة القائلة بأن الأجور المنخفضة تجبر العمال على أن يعملوا أكثر ، وبذا يزدون في رخاء انجلترا . فيبدي ملاحظته على النقطة الأولى قائلا : «يرغب العمال في الحصول على أكثر مايمكن ، ويرغب السادة في اعطاء أقل مايمكن . فوطبد العمال العزم على الاتحاد ليرفعوا أجور العمل ، واتحد أصحاب العمل ليخفضوها » .

ويستطرد قائلا :

اذن ، فليس من الصعب التنبؤ بمن من هذين الطرفين سيكون له انفوز ، في جميع الظروف العادية ، في هذا النزاع ، فيجبر الآخر على التسليم بشروطه . ولما كان أصحاب العمل أقل عددا ، فيمكنهم الاتحاد بسهولة أكثر ، فضلا عن أن القانون دائما الى جانب السلطات ، أو على الأقل ، لا يحرم اتحاداتهم بينما هو يحرم اتحاد العمال . ليس لدينا قرارات برلمانية ضد الاتحاد لخفض أجور العمل ، ولكن هناك قرارات كثيرة ضد الاتحاد لرفعها . وفي جميع أمثال هذه النزاعات ، بوسع أصحاب العمل الصمود مدة أطول بكثير . فصاحب الأرض أو المزارع أو صاحب المصنع ! والتاجر ، يمكنهم ، حتى ولو لم يجدوا واحدا ان يصمدوا ، عموما ، لمدة سنة أو سنتين بما أدخروه من قبل من مكاسبهم ، بينما لا يستطيع كثير من العمال الصمود أكثر من أسبوع ، ويستطيع قليلون الصمود مدة شهر وقلما تجد من بوسعه أن يصمد بدون عمل مدة سنة . ومع الوقت الطويل ، قد يصبح العامل ضروريا لصاحب العمل ضرورة صاحب العمل للعامل ، ولكن هذه الضرورة ليست هكذا مباشرة .

يبدو عطف سميث الواضح على العمال الفقراء في مثل هذه الفقرات :

« يتكون الجزء الاعظم في كل مجتمع سياسى من الخدم والعمال والصناع على اختلاف انواعهم ، ولكن مايعمل على تحسين ظروف هذا الجزء الاعظم لايمكن اعتباره ، بحال ما ، متعبا للمجموع . فما من مجتمع بوسعه ان يعيش سعيدا في رخاء ، طالما كان هذا الجزء الاعظم من أعضائه فقيرا بائسا . هذا مؤكد . وعلاوة على ذلك ، فانه من العدل ان يحظى أولئك الذين يقدون ويكسبون ويسكنون جموع الشعب كلها ، بنصيب من انتاج عملهم ، فيتمتعون بالغذاء . الغذاء والمسكن الملائمين . . . وهذا مكافأة حرة على العمل . . . تزيد في نشاط سواد الشعب . واجور العمل تشجع النشاط ، الذي هو كاية صفة بشرية اخرى ، يتحسن بنسبة مايناله من تشجيع . . . واننا لنجد العمال اكثر نشاطا واجتهادا وسرعة حيث الاجور عالية ، منهم حيث الاجور منخفضة » .

ثم يقول :

« يشكو تجارنا واصحاب مصانعنا من الشكوى من الاثر السئ الذى تحدثه الاجور العالية في ارتفاع الاسعار ، وبالتالي قلة مبيعات منتجاتهم محليا وفي الخارج ، ولايقولون شيئا عن الارباح العالية . انهم صامتون عن الآثار الوبيلة لأرباحهم . انهم يشكون فقط من ارباح غيرهم » .

تنبا سميث بنظريات مالثوس قبل نشر كتاب «مبادئ السكان » باثنتين وعشرين سنة .

« تتكاثر كل فصيلة من الحيوانات طبيعيا بالنسبة الى وسيلتها في الحياة ، ولايمكن لأى فصيلة ان تتكاثر بما يزيد على تلك الوسيلة . اما في المجتمع المتحضر ، فنجد بين الطبقات الدنيا فقط من الناس ، أن قلة مقومات الحياة هي التى تحد من تكاثر

الاجناس البشرية ، ولايمكنها ان تفعل ذلك باية طريقة غير ابادة الجزء الاعظم من الاطفال الذين يولدون نتيجة للزواج المشر .

وبالنظر الى ارباح العمل في العصور الحديثة ، من الصعب تصديق كل تلك المنوعات والقيود الاقطاعية التي سادت في القرن الذي عاش فيه آدم سميث . لم يكن تحريم اية صورة من صور التنظيم العماني سوى أحد القيود الصارمة المفروضة على العمال . كما كانت قوانين التلمذة الصناعية ، وقانون الإقامة اشد واكمى من القيد السابق .

يرجع تاريخ قانون التلمذة الصناعية الى عصر الملكة اليزابيث . وكما يصفه سميث ، ينص على «أنه محظور على اى شخص ان يمارس في المستقبل اية حرفة او مهنة او اى عمل غامض ، في انجلترا ، في ذلك الوقت ، الا اذا كان قد سبق له ان تتلمذ في ذلك العمل لمدة سبع سنوات على الاقل » . وفي اثناء هذه السنوات السبع ، كان صاحب العمل يمد التلميذ بالقوت الضروري فحسب . وبطبيعة الحال ، انتهز أصحاب العمل المكدومو الضمير هذا القانون كى يستغلوا عمالهم لياخذوا الكثير ويعطوا القليل ، بينما كان الصناع المتعلمون أشبه بالعبيد . ولكى يشهر سميث بهذه الطريقة ، قرر انه لا حاجة اطلاقا لمدة التلمذة الطويلة هذه ، لانه بالامكان استيعاب معظم الحرف في بضعة أسابيع . ثم ان قوانين التلمذة الصناعية كانت تدخلا تعسفيا في حقوق العامل يمنعه من ابرام عقد عمله ، ومن اختيار عمله ومن الانتقال من عمل قليل الاجر الى عمل آخر اكثر اجرا .

وبالمثل ، كان قانون الإقامة ظالما ايضا : «أجرؤ على القول بأنه قلما يوجد رجل فقير في الأربعين من عمره ، في انجلترا ، لم يشعر في اى وقت من حياته بأنه مغبون غبنا اى غبن بسبب قانون

الاقامة هذا » . وكما حدث في قانون التلمذة الصناعية ، صدر ذلك القانون في العصر اليزابيثي أيضا . كان الغرض الاساسي منه اقرار النظام في توزيع اعانات الفقر . كانت كل ابروشية مسئولة عن الاهتمام باعضائها الفقراء . ولمنع زيادة عدد الفقراء في المجتمع ، لم يسمح للفقراء الجدد بالاقامة هناك الا اذا كان لهم معين يكفل معيشتهم . ويتطبق هذا القانون على العمال ، كان الاثر العملي لهذا القانون خلق طبقة من المسجونين مؤبدا في مسقط رأسهم ، واضعا عقبات كاداء في طريق العامل الراقب في الانتقال من منطقة الى اخرى . كان هناك مثل أيضا ، في تقدير آدم سميث ، لعدم المساواة في تدخل الحكومة في حقوق الانسان وفي الناموس الطبيعي للنظام الاقتصادي .

حاول سميث التمييز بين العمل المنتج والعمل غير المنتج بقوله :

« لن تفتقر الامم العظمى بالتبذير العام وسوء السلوك ، ولو انها قد تفتقر بهما أحيانا ، فكل الدخل القومي أو معظمه ، في معظم الدول ، يستخدم في الاحتفاظ بالايدي غير المنتجة . هكذا الشعوب التي تحتفظ ببلاط فخم كبير العدد ، وبمؤسسة اكليريكية كبيرة ، واساطيل عظيمة وجيوش ضخمة ، تلك التي ، في زمن السلم ، لاتنتج شيئا بعوض ماينفق على الاحتفاظ بها ، حتى ولو كانت الحرب قائمة . فمثل أولئك الناس ، الذين لاينتجون شيئا ، يعيشون بما ينتجه عمل أناس آخرين . واذا ضوعفوا الى عدد غير ضروري ، فانهم في سنة معينة يستهلكون جزءا عظيما من هذا الانتاج غير تاركين مايكفى للاحتفاظ بالعمال المنتجين » .

ولسوء الحظ ، أن المستعمرات الامريكية لم تلق بالا كذلك الى النصائح للسليمة عن عمل العبيد .

«أعتقد ان تجارب جميع العصور وكافة الامم ، تبرهن على ان العمل الذى يقوم به العبيد ، رغم انه يبدو انه لا يكلفهم سوى نفقات الاحتفاظ بأولئك العبيد ، فهو فى النهاية أغلى عمل . فالشخص الذى لا يمكنه اكتساب اية ممتلكات لا يمكنه الحصول على اية منافع الا ان يأكل أكثر ما يستطيع ، ويعمل اقل ما يمكن . فأى عمل يقوم به أكثر مما يكفى لشراء ما يلزم لحياته ، لا يمكن اعتصاره منه لا بالعنف ليس غير ، لا بمحض ارادته واختياره» .

بعد ذلك انتقل سميث من قضايا العمل الى الدفاع عن اصلاح قضايا الارض . وهنا أيضا يرى أن النوائح الحكومية غير الحكيمة ، واتقوانين غير الملائمة ، تقف فى طريق التقدم . فمعظم الاراضى البريطانية فى القرن الثامن عشر ، كانت خاضعة للوصاية . بوسع مالك الارض أن يصدر قواعد لتقسيم أرضه وبيعها ، يلتزم بها ورثته لعدة قرون بعد موته . ومن العادات القديمة الاخرى ، حق الابن الاكبر فى جميع الميراث عن والديه . وهذه عادة اقطاعية تمنع تفتيت الملكيات الكبيرة . فبهذا القانون يكون الابن الاكبر هو الوارث الوحيد . وقد علق سميث على هذا بقوله : «لاشئ يمكن أن يضر بصالح اية أسرة كبيرة ، الا ذلك الحق ، الذى لكى يغنى فردا واحدا منها ، يسوق بقية الاولاد الى فقر يودى بهم الى مد ايديهم للسؤال» . وعلى هذا ، حث بالحاح على حرية الاتجار فى الاراضى بإلغاء قوانين التوصية وقانون حق الابن الاكبر فى الميراث ، وغير هذه من قيود نقل ملكية الاراضى بالهبة او بالتوصية او بالبيع .

تتناول فقرة شهيرة من كتاب «ثروة الامم» ، المستعمرات ، ويؤكد مصدر حجة ، أن هذه «لاتزال أفضل ملخص لسياسة المستعمرات ، كتب حتى ذلك الوقت» . وتنقسم مناقشة هذه القضية الى ثلاثة اقسام : (١) «دوافع اقامة مستعمرات جديدة» :

استعرض فيها المشروعات الاستعمارية لكل من اليونان وروما وإفينيسيا والبرتغال واسبانيا . (٢) «أسباب رخاء المستعمرات الجديدة» ، يذكر تلك العوامل ، مثل الأراضي الواسعة والرخيصة ، والاجور العالية ، ونمو السكان السريع ، والمأم المستعمرين بالزراعة والفنون الأخرى . (و يقارن بين السياسات الاستعمارية المستنيرة لانجلترا ، وبين السياسات الاستعمارية الضيقة والمقيدة لكل من البرتغال واسبانيا . (٣) «عن الميزات التي حصلت عليها أوروبا من اكتشاف أمريكا ، ومن طريق الوصول الى جزر الهند الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح» . وهذا اكتشافان يقول عنهما سميث : «انهما أعظم وأهم اكتشافين سجلهما تاريخ البشرية» .

هاجم سميث القيود الموضوعة على المستعمرات لاجتكار تجارتها فقال، انها اعتداء على «الحقوق الطبيعية» لتلك المستعمرات كان النظام التجارى فى المستعمرات سخيفا وباهظ النفقات ، شأنه شأن النظام المستعمل فى الدولة المستعمرة نفسها . كذلك كان هناك استنزاف مالى للقوة المستعمرة ، لان المستعمرات لن ترضى بمحض اختيارها ، أن تفرض على نفسها ضرائب تكفى نفقات الدفاع عن نفسها .

استطاع سميث أن ينظر الى المستعمرات الامريكية المتمردة بموضوعية أكثر من نظرة معظم مواطنيه . اعتقد أن الحل المناسب لهذه القضية هو تمثيل تلك المستعمرات الامريكية فى البرلمان البريطانى - الاتحاد بدلا من الانفصال ، بتمثيل مبنى على الدخول الضريبية . وإذا انتهى الامر ، كما يمكن أن ينتهى ، بأن يزيد الامريكيون فى الضريبة البريطانية ، فانه من الممكن نقل تلك الاموال عبر الاطلنطى «الى جزء الامبراطورية الذى أسهم أكثر من غيره فى الدفاع العام وتأييد انكل» . قد يكون هذا ردا على تأكيد توم بين بأنه من السخافة الاعتقاد أن بوسع جزيرة أن تستعمر قارة استعمارا دائما . اذ عندئذ يجب أن تنعكس الاوضاع .

أكد سميث على ضرورة استقلال المستعمرات الأمريكية إذا لم يكن تسوية الخلافات سلمياً بينها وبين إنجلترا ، ولو أنه اعترف بالواقع ، فقال : « ان الاقتراح بأن تتنازل بريطانيا العظمى عن كل سلطة لها على مستعمراتها ، وتركها تنتخب حكامها وتشرع قوانينها ، وتصنع السلم أو تعلن الحرب كما يترأى لها الاصلاح لنفسها ، يعنى اقتراح نظام لم يحدث قط من قبل ، ولن تتخذة أية امة في العالم . . . فما أصعب ما يصير حكمها ، وما اقل الدخل الذى تدفعه بالنسبة الى النفقات التى انفقت عليها ! » .

يتجلى رأى سميث النير وبصيرته الثاقبة في هذه الفقرة التى يتنبأ فيها بمستقبل أمريكا :

« لقد تحول أهالى المستعمرات الأمريكية ، من بائعين وتجار وقضاة الى سياسيين وشرعيين ، استخدموا في تكوين صورة جديدة من الحكومة الامبراطورية واسعة ، معللين أنفسهم بأنها ستصير أعظم وأقوى امبراطورية شهدها العالم ، ومن المتوقع ان يحدث هذا » .

ان أشهر قسم ، وهو بيت القصيد ، في كتاب «ثروة الامم» ، هو الجزء الرابع وعنوانه «عن أنظمة الاقتصاد السياسى» . تناول فيه سميث نظامين مختلفين : نظام التجارة ونظام الزراعة ، وشغل موضوع التجارة مكانا يبلغ ثمانى مرات ما شغله الكلام عن الزراعة . فتناول مبادئ «حرية العمل» التى اقترنت باسمه منذ ذلك الوقت . وقد انتهت المناقشة الخاصة بكل من العمل والاراضى والسلع والنقود والاسعار والزراعة والماشية والضرائب الى نقطة واحدة هى حرية التجارة داخليا وخارجيا . لن تحصل الاممة على التقدم الكامل والرخاء الا عن طريق التجارة غير المقيدة ، فى الداخل وفى الخارج . . ناشد سميث الامم إلغاء الرسوم الجمركية والتبرعات والتحرير من النظام التجارى ، والاحتكارات التجارية

للشركات المتعمدة . فكل هذه القيود تعوق النمو الطبيعي للصناعة والتجارة وحرية وصول السلع الى المستهلكين . كما تترك المبدأ الزائف ، مبدأ «التوازن التجارى» الذى يجذب التجار . ليست النقود سوى أداة «وليس هناك مقياس يمكننا بواسطته معرفة على أى جانب يقع مايسمى بالتوازن التجارى بين دولتين أو أى منهما تصدر بأكبر قيمة . . ليست الثروة فى النقود ولا فى الذهب ولا فى الفضة ، وإنما فيما تشتريه النقود ويستحق الشراء فعلا» . وتقسيم العمل ضرورى ومنطقى بين الامم كما هو بين الافراد .

« الميزات الطبيعية لدولة على أخرى فى إنتاج سلع بعينها ، عظيمة فى بعض الاحيان ، لدرجة ان العالم كله يعلن أية من العيب منافستها فى تلك السلع . فبواسطة الاقبية الزجاجية والاحواض والحوائط الدافئة يمكن إنتاج أنواع من العنب باللغة الجودة فى اسكتلندا . وكذلك يمكن صنع نبيذ جيد جدا منها بنفقات تبلغ ثلاثين ضعفا ، على الأقل ، لما يمكن جلبه من الدول الأجنبية ويكون مماثلا له فى الجودة . فهل يكون من المعقول إصدار قانون يحرم استيراد جميع الانبذة الأجنبية لمجرد تشجيع صنع النوعين المعروفين بالكلاريت Claret والبرجندي Burgundy فى اسكتلندا ؟ »

اخص سميث الميزات الاقتصادية للتجارة الحرة فى هذه الحقائق :

« شعار كل رب أسرة حازم الا يحاول ان يصنع فى منزله مايكلفه صنعه أكثر مما يدفع فى شرائه . . . وماهو حزم فى مسلك كل أسرة قلما يكون غباء فى مملكة عظمى . فإذا كان بوسع دولة أجنبية أن تورد لنا سلعة بأرخص مما يكلفنا صنعها بأنفسنا ،

فمن الخير أن نشتريها منها نظير نوع ما من منتجات صناعتنا ،
مستخدمة بطريقة تحقق لنا بعض الميزات .

أكد سميث المنافع المتبادلة من التجارة الأجنبية بقوله :

« إذا تمت تجارة أجنبية بين أي مكانين ، حصل كل منهما
على فائدين واضحين . تأخذ تلك التجارة فائض انتاج أرض
وعمل كل منهما الذي ليس له طلب فيهما ، وتجلب بدلا منه شيئا
له طلب ... وبهذا التبادل لا يعوق ضيق السوق المحلية تقسيم
العمل في أي فرع بعينه من الفنون أو الصناعة أن يسير إلى أعلى
درجات الكمال . وإذا ما فتحت دولة ما سوقا أوسع لأي جزء من
انتاج عملها يفيض عن الاستهلاك المحلي فيها ، فإنها تشجع بذلك
قوتها الانتاجية وتحسنها وتزيد في انتاجها السنوي إلى أقصى
حد ، وبدا تزيد في الدخل الحقيقي والثروة الحقيقية للمجتمع » .

يتضح أن سميث كان عقيدا محضا في تأكيده على حرية
التجارة مع بعض استثناءات أو تحديدات معينة رغب في ابدائها
لتطبيق هذا المبدأ ، فأشار في بضع حالات بقوله : «ومن المفيد
عموما لقاء بعض الأعباء على الصناعة الأجنبية لتشجيع الصناعة
المحلية . وأول تلك الأعباء ، هو عندما يلزم نوع معين من الصناعة
للدفاع عن السولة «حتى ولو لم يكن تحقيق ذلك لأسباب اقتصادية
محضة ، لأن «الدفاع أهم بكثير من الرخاء» . ولما كان سميث
يعيش في دولة محاربة ، فقد سلم بأن الأمم الفنية التي من المفيد
لنا أن نتبادل معها التجارة في وقت السلم تغدو أعداء أشد خطرا
في وقت الحرب من الدول الفقيرة . كما وافق على أن إصدار
تعريف جمركية وقائية على «الصناعات الناشئة» يساعدها على
النمو بسرعة أكثر ، ربما إلى درجة تسمح بإمكان الدفاع عنها
اقتصاديا . وزيادة على ذلك ، أوصى سميث بأن كل تخفيض في
التعريف الجمركية يجب أن يتم «ببطء وتدرجيا وبعد تحذير

طويل جدا» . وذلك لحماية الاستثمارات النباتية فى الصناعة غير القادرة على الصمود أمام المنافسة الأجنبية ، ولتزويد العمال بمهنة يبحثون فيها عن أعمال جديدة . كانت هذه اعترافات راقعية لمجادلات خصوم التجارة الحرة .

إذا رفعت الحكومة أيديها عن الأعمال والصناعة والزراعة ومعظم الأنشطة اليومية للامة ، كما قال سميث ، فما الذى يعتبره وظائف مناسبة للحكومة؟ سيكون نطاق المسئولية ضيقا . فالوظيفة الأساسية للحكومة تقتصر على صد الهجوم الأجنبى وإقامة العدل، وكذلك يرغب سميث فى أن تقوم الحكومة «بتشييد وصيانة أنواع معينة من الإشغال العامة ، وبعض المؤسسات العامة ، التى لا يمكن إطلاقا أن تكون لصالح أى فرد أو لصالح عدد بسيط من الأفراد تشدها وتصونها ، لأن الفائدة لأى فرد أو لعدد بسيط من الأفراد، لا يمكن أن تعوض نفقاتها ، ولو أنها كثيرا ما تفيد المجتمع الكبير بأكثر من نفقاتها» . وقد ذكر سميث فى القائمة البسيطة التى جردها لوظائف الحكومة ، صيانة الطرق الرئيسية وإضاءة شوارع المدن ، وإمداد الأهالى بالماء . وهكذا رأى آدم سميث هدرا بسيطا لبقاء ما أطلق عليه «الحيوان المراوغ المكار الذى يحمل اسما مبتدلا نسميه : السياسى» خارج المحافظة على الأمن الخارجى والنظام الداخلى .

كان سميث فى أحد استثناءاته سابقا كثيرا لعصره - اسهام الحكومة فى تعليم الشعب ، ويعلق فى تدعيم حجته بخصوص التعليم الشعبى ، بقوله :

« الرجل الذى لا ينتفع الانتفاع المناسب بالموهب العقلية للانسان ، يستحق الأزدراء ، أن أمكن ، أكثر من أزدرائنا للجهان، ويدو مشوها فى عضو رئيسى من أعضاء أخلاق الطبيعة البشرية.. ورغم أن الحكومة لاتجنى فائدة من تعليم الطبقات الدنيا من

الشعب ، فمما يستحق اهتمامها الا يكونوا غير متعلمين تماما . ومع ذلك ، فلا تجنى الحكومة فائدة كبيرة من تعليمهم . فكلما كانوا متعلمين ، كانوا اقل عرضة للانسياق في تيار الخزعبلات والخرافات التي تسبب افطع حالات الاخلال بالنظام بين الامم الجاهلة . وزيادة على ذلك ، فان الشعب المتعلم الذكي اكثر احتشاما ونظاما من الشعب الجاهل الغبي . يشعر كل فرد منهم بأنه محترم وبأنه جدير باحترام رؤسائه الشرعيين . وعلى ذلك ، يكون اكثر استعدادا لان يحترم اولئك الرؤساء . . وفي الدول الحرة ، حيث يتوقف أمن الحكومة كثيرا جدا على الحكم الذي يكونه الشعب على مسلك هذه الحكومة . ولهذا يكون من المهم جدا الا يكون الشعب ميلا الى الحكم عليها بهور أو بتعصب» .

ان تقدير آدم سميث وكتابه غير المتحيز وغير المحابي ، معقد ، حتى بعد مرور حوالى مائتى عام . فمثلا ، هناك نظرية باكل Buckle في كتابه « تاريخ المدنية » اذ يقول : « ربما كان كتاب ثروة الامم . . . أهم كتاب وضع ، سواء اعتبرنا مايضمه من كمية الفكر الاصلى ، او نفوذه العملى » . ويقول ماكس ليرنر Max Lerner ، ولو أنه كان اقل ميلا الى سميث : « ربما فعل كتاب ثروة الامم مثل ما فعله اى كتاب حديث في تشكيل منظر الحياة كله كما نعيشها اليوم» . أبدى ليرنر ملاحظته ببصرة ، فقال : « من قرءوا ذلك الكتاب هم الذين ارادوا الافادة من نظرتهم الى العالم - الطبقة الثائرة من رجال الاعمال ولجانهم التنفيذية السياسية في برلمانات العالم ، ولجانهم التنفيذية الذهنية في الاكاديميات . وعن طريق هؤلاء استطاعت تلك الطبقة أن يكون لها نفوذ ضخم على سكان العالم الآخرين ، رغم أنهم عموما ، لم يكونوا معروفين لهم ، وعن طريقهم أيضا كان لهم نفوذ عظيم على الآراء الاقتصادية والسياسة القومية » .

أيد حكم هذين الحجتين ، العالم الاقتصادي الانجليزي الشهير ج.أ.ر. ماريوت J.A.R. Marriott ، الذي أبدى ملاحظته قائلا . « ربما لا يوجد أى مؤلف فى اللغة كان له ، فى عصره ، مثل ذلك الاثر العميق على كل من الفكر العلمى الاقتصادى وعلى العمل الإدارى ، على حد سواء . وهناك أسباب قوية فى أنه لا يزال له هذا الاثر » . وأضاف عالم اقتصادى آخر هو و.و. سكوت W.R. Scott « كان سميث ، من الناحية الذهنية ، أستاذا فى رؤية الحياة الاقتصادية باستمرار وكنل » .

ومن ناحية أخرى ، وجد كثير من المفكرين الاحرار المتطرفين ، أنه من الصعب عليهم أن يغتفروا لسميث تماديه فى مبدأ « حرية العمل » الذى مارسه رجال الاعمال ورجال الصناعة الذين اعتبروا مؤلف سميث انجيلهم . هذا ، وان المذاهب التى دافع عنها الحماية العامل والمزارع والمستهلك والمجتمع عموما قد حرقها أناس عديمو المبدأ مغرضون ، إلى قذف دنيء لا ضابط له من أجل نفوسهم ، تحت سمع الحكومة وبصرها دون أن تتدخل .

كذلك هناك الجدل القديم عن أيهما أسبق ، أهو الكتكوت أم البيضة . هل كان لمبادئ سميث أن تتبع فى نمو التجارة والصناعة لو أنه لم يكتب كلمة واحدة ، أو هل كان لكتابه « ثروة الأمم » أن يحدث تلك التغيرات الواسعة التى تلت نشره ، مقدما فلسفة وخطة للحركة الجديدة ؟ ربما كانت الحقيقة فى موضع ما بمنتصف الطريق .

وانا لنعترف بأن آدم سميث اختار العصر الصحيح لميلاده فوقف فى منتصف الطريق بين حقتين تاريخيتين . نادى بالحرية الاقتصادية الجديدة فأصغى اليه عالم متقبل ، وأفاد من مبادئه للحصول على تحول اقتصادى عظيم . وفى أثناء الانقلاب الصناعى ، أدرك رجال الأعمال البريطانيين سلامة مذاهب سميث ، فنبذوا

القيود والامتيازات التجارية . وفي القرن التاسع عشر أبرزت
هذه المذاهب بريطانيا الى العالم كأغنى أمة . وكلما كانت آراء
سميث أقل تأثيرا على كبرى الدول التجارية الأخرى . وقليلون
هم الذين ينكرون أن آدم سميث يستحق بجدارة لقب « أبو علم
الاقتصاد الحديث » .

٤ - أفواه كثيرة

توماس مالثوس THOMAS MALTHUS

مقال عن : مبدأ السكان

مما أثار المتعة المحبوبة في أواخر القرن الثامن عشر ، خيالات
الحالمين وقتذاك . فقد أوحى المثالية المقترنة بالحركات الثورية
في أمريكا وفرنسا ، الى الخياليين بأن يستنتجوا أن كمال
الانسان قد لاح فوق الأفق ، واقترب خلق جنة أرضية .

ومن بين أولئك الحالمين اثنان ، أحدهما وليم جودوين
William Godwin في إنجلترا ، والماركيز دى كوندورسييه
Marquis de Condorcet بفرنسا . وكان لهذين اتباع
بالغو الاخلاص ، نادوا بعدد كبير من الامانى والخيالات لانبثاق
يوم جديد . وقد ذكر جودوين في كتابه « العدل السياسى »
آراء نموذجية بالمتفائلين الراسخين في التفاؤل ، مؤداها انه
« سيأتى يوم تكون فيه ممثلين بالحيوية فلا نحتاج الى ان ننام ،
ومفعمين بالحياة فلا نحتاج الى ان نموت ، ويتغلب تأكيد تنمية

القوى الذهنية على الحاجة الى الزواج . وبالاختصار ، يغدو الناس كالملائكة » . تغنى بأنه يتوقع أن « تتمشى تحسينات أخرى مع تحسن الصحة وطول العمر . لن تكون هناك حروب ولا جرائم ولا أقامة عدل ، كما يسمونها ، ولا حكومة . وعلاوة على هذا ، لن تكون هناك امراض ولا آلام ولا احزان ولا غيظ . سيسعى كل انسان بحماس شديد الى خير الجميع » .

كتب جودوين لازالة الخوف من مواجهة عدد كبير جدا من السكان مع وجود كميات قليلة جدا من الطعام ، كتب يقول : « قد تمر بلايين القرون ذوات عدد السكان المتزايد باطراد ، والأرض دائبة على اعطاء الطعام الكافي لحياة سكانها » . وأخيرا ، فكر في أن النزوة الجنسية قد تضحل ، كما اقترح كوندورسيه انها قد تتم بغير نسبة عالية من التكاثر .

اغرت هذه الفقايع الجميلة بوخزها ، فاعد الابرة شاب الكيريكى سليط اللسان اسمه ثوماس روبرت مالثوس ، يبلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة ، كان زميل كلية يسوع بكامبريدج . كان رده على انصار الكمال الاجتماعى أن أصدر « مقالا عن مبدأ السكان » في سنة ١٧٩٨ ، صار احد الكتب الكلاسيكية العظمية في الاقتصاد السياسى .

عاصر مالثوس آدم سميث وثوماس بين ولو أنه يصفرهما كثيرا . وهو ثاى أبناء دانييل مالثوس ، الرجل الريفى الميسور الحال وصديق روسو Rousseau ومدير مزرعته ، وكان من أشد المعجبين بجودوين . وكان الأب والابن مولعين بالجدال . فكان ثوماس يهاجم الآراء الخيالية ، بينما يدافع عنها دانييل . وأخيرا ، قرر ثوماس ، تلبية لرغبة والده الملحة ، أن يبين آراءه كتابه ، فكانت النتيجة ذلك المقال ، وهو كتاب أحدث أثرا عميقا خلال ال ١٥٦ سنة الماضية على الفكر البشرى والحياة البشرية ،

وربما لم يكن هذا الأثر واضحا في أى عصر أكثر مما هو في العصر الحاضر . وما عمله آدم سميث قبل ذلك بـ اثنتين وعشرين سنة في استفساره عن طبيعة وأسباب الثروة ، أكمله مالثوس بتحليل فاحص عن طبيعة وأسباب الفقر .

كان «مقال عن مبدأ السكان » وأثره على تحسين المجتمع في المستقبل ، مع ملاحظاته عن آمال المستر جودوين والمركز دى كوندورسيه وغيرهما من الكتاب الذين نشروا آراءهم دون ذكر أسمائهم ، كان أكثر قليلا من كتيب (٥٠٠٠٠ كلمة) في طبعة سنة ١٧٩٨ ، ومن الجلى أنه طبع منه عددا قليلا من النسخ ، لأن النسخ الموجودة الآن من تلك الطبعة نادرة جدا . وقال المؤلف بعد ذلك : « وضعت هذا الكتيب بناء على حافظ ذلك الوقت ، وبالمواد القليلة التي كانت في متناول يدى في مركز ديفى » . لم تكن فكرة ذلك المقال جديدة ، لأن كثيرين من كتاب القرن الثامن عشر ، ومنهم بنيامين فرانكلين ، قد ناقشوا مسألة زيادة السكان ، ولكن ما من أحد منهم قدمها بمثل تلك القوة ولا بمثل هذا الحماس ولا يمثل هذه البصيرة الواضحة ، كما فعل مالثوس .

ذكر مالثوس فرضيين أساسيين في بداية ذلك المقال :

أولا : الطعام ضرورى لحياة الانسان ، وثانيا : الغريزة الجنسية ضرورية بين الجنسين ، وستظل في حالتها الراهنة تقريبا .

لم يفكر الخياليون أنفسهم في أن الانسان قد يستطيع ، في النهاية ، أن يعيش بغير طعام .

ولكن المستر جودوين أعلن تخمينه بأن الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى ستخمد في الوقت المناسب . . وتكونت خير

المجادلات عن كمال الانسان ، من التأمل في التقدم الذى أحرزه حتى الآن منذ حالته الوحشية .. ولم يحدث أى تقدم نحو خمود الغريزة الجنسية بين الذكر والأنثى ، ويبدو انها لا تزال الآن بنفس القوة التى كانت عليها منذ ألفى سنة أو أربعة آلاف سنة خلت .

واذا افترض ماثوس أن « رسالاته » لم تكن قابلة للنقض .
أخذ يضع مبداه الشهير :

« .. ان قوة الانسان أعظم أكيدا من القوة التى فى الأرض لانتاج المادة للانسان . وإذا لم يوقف نمو عدد السكان ، فابهم سيزيدون بمتوالية هندسية ، بينما تزيد خيرات الأرض بمتوالية حسابية ليس غير . وان الالام البسيط بالأرقام ليبين ضخامة القوة الأولى بالنسبة الى الثانية » .

نمق ماثوس اقتراحه افضل من ذلك ، فأبرز قضيته بهذه الطريقة :

« بين الماكتين الحيوانية والنباتية ، نثرت الطبيعة بدور الحياة الى الخارج بيد سخية جدا ، وفى حرية . كانت تقتصد فى المكان والغذاء اللازم لتغديتهما . فينكمش جنس النبات وجنس الحيوان تبعا لهذا القانون المقيد العظيم ، ولا يستطيع جنس الانسان ، مهما كانت قوة الأسباب ، أن يفلت منه . كانت آثاره بين النباتات والحيوانات ضياع البذور والمرض والموت قبل الأوان . اما بين الجنس البشرى فالبؤس والرذيلة » .

وفى تقدير ماثوس ، وضعت هذه الحقائق الصعبة والواقعية ، غفبات لا يمكن تخطيها فى طريق كمال المجتمع . وما من اصلاح ممكن استطاع ازالة ضغط القوانين الطبيعية ، تلك العقبات التى تمنع « وجود مجتمع ، يعيش كل أعضائه فى

رخاء وسعادة وراحة نسبية ، ولا يشعرون بأى اهتمام نحو تزويد أنفسهم وعائلاتهم بوسائل الحياة » .

اختار مالثوس كتوضيح عمل متواليته الهندسية زيادة عدد السكان في الولايات المتحدة « حيث وسائل الحياة أكثر ملاءمة ، فان اخلاق الناس أكثر نقاء » وبالتالي ، يقل تقييد الزواج المبكر » .. وجد مالثوس أن عدد السكان ، باستثناء الهجرة ، قد تضاعف في مدة ٢٥ سنة . فاستنتج من هذا البرهان أنه حيث لا توضع قيود على الطبيعة ، وحيث لا يوجد تحديد للنسل ولا توازن ، يتضاعف عدد سكان الدولة في كل جيل . غير أن النقاد لفتوا النظر الى وجود عيوب في قاعدة مالثوس لأن الظروف التي كانت سائدة في الولايات المتحدة إبان الحقبة التي ذكرها مالثوس ، لم تكن نموذجية لأية حقبة أخرى في التاريخ الأمريكي ، ولا في تاريخ أية أمة أخرى .

استخدم مالثوس مقياسه من زيادة عدد السكان في إنجلترا ، أي أن عددهم يتضاعف كل ٢٥ سنة ، ثم عرج على مسألة الغذاء ، فاستنتج أنه « باستخدام أحسن سياسية محكمة ، أي بزيادة رفعة الأرض وبتشجيع الزراعة ، يمكن مضاعفة انتاج تلك الأرض في الخمس والعشرين سنة الأولى » .

بعد ذلك تبدأ المتاعب تتراكم في الجيل الثاني بينما يتضاعف عدد السكان مرة أخرى ، أي يصير أربعة أضعاف ما كان عليه أولاً بعد مضي خمسين سنة ، « ومن المستحيل افتراض أن الانتاج يمكن أن يصل الى أربعة أضعاف ما كان عليه أولاً . » فخير ما يمكن أن نأمل فيه هو زيادة موارد الغذاء الى ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل . وبالتعبير بالأعداد ، يكون قانون مالثوس لعدد السكان هو : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، .. والغذاء : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، .. الخ .

والنتيجة المنطقية لبحث مalthus هو وجوب إيجاد وسيلة مستمرة لايقاف ازدياد عدد السكان واطخر الوسائل جميعا هو قلة الغذاء . ومجموعة « الوسائل المباشرة » تقع في مجموعة « ايجابية » ، وتشمل المساكن غير الصحية ، والعمل الشاق ، والفقر الشديد ، والأمراض ، وسوء تربية الأطفال ، والمدن العظمى ، والأوبئة والقحط . ومجموعة « ممانة » وهى : الكبت الأخلاقى والرذيلة .

تبع ذلك بنتائج عملية حتمية معينة ، فى نظر مalthus . فاذا كان للمخلوقات البشرية أن يتمتعوا بأعظم سعادة ممكنة ، وجب عليهم عدم القيام بالالتزامات العائلية إلا اذا كان بوسعهم أن يمولوا عائلاتهم . أما من ليس لديهم موارد كافية ليعولوا أسرة ، فيجب عليهم عدم الزواج إطلاقا والتزام العزوبة . وعلاوة على هذه ، السياسة الشعبية كقوانين الفقراء التى يجب أن تمنع تشجيع طبقة العمال ومن اليهم على انجاب اطفال لا يمكنهم أن يكفؤهم .

« فالرجل الذى جاء الى العالم ولا يستطيع الحصول على القوت من والديه ، اللذين له عليهما حق عادل ، اذا لم يرغب المجتمع فى عمله ، فليس له حق فى أقل جزء من الطعام ، وليس له ، فى الحقيقة ، عمل حيث يكون » .

كتب هذا ردا على مقال بين بعنوان « حقوق الانسان » .

ليست الصدقة ، سواء اكانت خاصة أم حكومية ، مطلوبة ، لأنها تعطى نقودا للفقراء دون زيادة كمية الطعام الموجودة ، وبدا ترفع الأسعار وتخلق النقص فى المواد . كذلك خطة الاسكان الشعبى ممنوعة لأنها تحت على الزواج المبكر ، وبالتالي زيادة عدد السكان . وارتفاع الأجور نفس الأثر الضار . وعلى هذا

تكون الوسيلة الوحيدة للفرار من هذه المعضلة المعقدة ، هي
الزواج المتأخر مع « السكت الأخلاقي » ، أى ضبط النفس عن
الشهوات .

الواقع ، فى نظر مالثوس ، ان أى مشروع لتحسين المجتمع
وتخفيف انتشار الفقر ، عرضة لأن ينتهى بزيادة المساوىء التى
سعى الى علاجها . وهذا المسلك المتعنت المعادى للمجتمع من
جانب ذلك انساب الاكليركى ، قد غير وجهات نظر علماء الاجتماع
فى جيله والأجيال التالية . ومع ذلك ، تقبل الاغنياء ، فى عصر
مalthus ، والطبقات القابضة على زمام السلطة ، مذاهبه فى
حماس . اذا يقع اللوم ، فيما يختص بالفقر الواسع النطاق
والمساوىء الاجتماعية الأخرى ، على الزواج المبكر وكثرة النسل
بدلا من وقوعه على سوء توزيع الثروة .

يمكن توضيح مسلك مalthus نحو برامج المعونة الحكومية ،
فى هذه الفقرة المأخوذة عنه :

« تميل القوانين الانجليزية الخاصة بالفقراء الى زيادة سوء
الحالة العامة للفقراء ، بهاتين الطريقتين : الأولى تميل الى زيادة
عدد السكان دون زيادة كميات الطعام اللازم لهم . قد يتزوج
الرجل الفقير دون أن يدرك أنه غير قادر على أن يعول أسرته
معتمدا على نفسه فحسب . وعندئذ يمكن القول بطريقة ما ان
الحكومة تخلق الفقراء الذين تعولهم . ولا كان يجب ، فى حالة
زيادة عدد السكان ، أن توزع موارد الدولة على كل فرد بنسب
صغيرة ، فمن الجلى أن عمل أولئك الذين لا تعولهم معونات
الابروشية ، يشتري كمية من الأغذية أقل مما سبق . وهذا
يسوق الكثيرين منهم الى طلب المعونة . والثانية ، تنص على أن
كمية الأغذية المستهلكة فى الملاجئ على فئة من المجتمع لا يمكن
اعتبارها عموما الفئة القيمة ، تنقص من أنصبة الأعضاء الأكثر

قيمة . وهكذا ، بنفس هذه الطريقة يجبر عدد آخر على التواكل .

يختم مالثوس مقاله بملخص لآرائه :

« ينطبق نفس الشيء على ظروف أخرى . يمكن التأكيد بأن كثرة عدد السكان في أمة يتناسب مع كمية غذاء الإنسان التي تنتجها أو التي يمكنها الحصول عليها ، وتكون سعيدة تبعاً للحرية التي يوزع بها هذا الطعام ، أو الكمية التي يمكن أن يشتريها عمل يوم واحد . والدول المنتجة للقمح أكثر سكاناً من الدول ذوات المراعي . بيد أن سعادتها لا تتوقف على كثرة أو قلة عدد سكانها ، ولا على فقرها أو غناها ، ولا على شبابها أو شيخوختها ، وإنما على النسبة بين عدد السكان وكميات الطعام .

أثار ظهور مقال مالثوس عاصفة من النقد والاحتجاج والظعن ، ولا سيما من مصدرين ، هما : المحافظون اللاهوتيون والمتطرفون الاجتماعيون . ويقول أهم كاتب لتاريخ حياته ، وهو بونار Bonar : « أخطر ذلك المقال الافتراءات لمدة ثلاثين عاماً . » كان مالثوس أكثر رجل مذموم في عصره ، ووصف بأنه « رجل دافع عن الجدرى والرق وقتل الأطفال ، وهاجم المطاعم الشعبية والزواج المبكر ومعونات الأبروشيات ، ذلك الذي بلغت به الوقاحة أن يتزوج بعد أن وعظ عن مساوئ الأسرة ، الذي ظن أن حكم العالم سيئ ، وأن خير الوسائل يأتي بأسوأ النتائج وأكثرها ضرراً ، وبالاختصار ، هو الذي سلب الحياة كل مباحها » .

نجد عدد قليل من النقاد جميع مبادئ مالثوس باستخفاف فهذا هازليت Hazlitt « لم يجد ما يكتشفه بعد أن قرأ قوائم سلالة نوح Noah . بعد أن عرف أن الدنيا مستديرة » .

أما ملاحظة كوليريدج Coleridge فتقول : « نحن الآن بحاجة الى كتب ليعلمنا أن البؤس العظيم والرذيلة العظمى ينتجان عن الفقر ، وأنه يجب أن يكون هناك فقر في أبشع صورته حيثما يكون هناك أفواه أكثر من الأرغفة ، ورعوس أكثر من الأمخاخ؟ ».

أما المعلقون الآخرون فكانوا أكثر اقتداعا فقد كتب وليم نومبسون William Thompson رائد الاشتراكية الإنجليزية في أول عهدها ، يقول :

« لا توجه اهانة الى الفقراء أولئك الغالبية العظمى من البشر ، بالافتراءات البراقة ، أنه بواسطة عدد السكان المحدد، أو بعدم تناول البطاطس تكون سعادتهم في أيديهم ، بينما الأسباب باقية ، تلك التي تجعل من المستحيل عليهم ، أخلاقيا وبدنيا ، أن يعيشوا بغير البطاطس والنسل الذي لا طعام له . »

وجاء تعبير عنيف آخر من وليم كوبيت William Cobbett « كيف يستطيع مالثوس وأتباعه المعنفون الأغبياء ، كيف يستطيع أولئك الذين يريدون نبذ الطبقات الفقيرة ، ومنع الفقراء الزواج ، كيف تستطيع تلك الفئة الغبية المغرورة أن تنظر في وجه الرجل الكادح وهم ، في الوقت نفسه ، يطلبون منه أن يحمل السلاح ويخاطر بحياته للدفاع عن الوطن ؟ » .

تصادف أن كان كوبيت هو الذي مابز مالثوس بلقب « قسيس » . وقد تحدث كوبيت الى أحد المزارعين ، فقال :

« كم طفلا تريد أن تنجب ؟ »

أجاب المزارع : « لا يهمنى العدد ، قاله لا يرسل أفواها دون أن يرسل لحما » .

قال كوبيت : « ألم تسمع قط عن قسيس اسمه مالثوس؟ »

« لم أسمع عنه ، يا سيدى . »

« لو سمع قولك هذا ، لثارت ثائرتة ، لأنه يريد من البربر أن يصدر قانونا يحرم على الفقراء أن يتزوجوا فى سن مبكرة ، كما يحرم عليهم أنجاب عدد كبير من الأطفال . »

دهشت الزوجة قائلة : « يا له من وحش ! » بينما ضحك زوجها وظننى أمرح .

عندما ظهر المذهب المالثوسى لأول مرة ، قام ضده اعتراض يقول انه لا ينطبق وكون الخالق خيرا . واتهم مالثوس باصدار كتاب يتنافى مع تعاليم الدين . وهذا اتهام محطم ضد كاهن كنيسة معترف بها . وبسبب هذا النقد اكد مالثوس فى الطبعة الثانية لمقاله ، على « الكبت الأخلاقى » بصفته وسيلة تحفظ بعدد السكان داخل النطاق المحدد ، بينما حذف البؤس والرذيلة ، وبذا ازال « كل سوء ظن عن مراحم الرب » .

وفى برنامج تخليد الذكرى المئوية لموت مالثوس اى فى سنة ١٩٣٥ ، قام بونار يدافع عنه ضد أولئك الذين اعتقد بونار أنهم أساءوا تمثيل مالثوس ، كما أساءوا قراءته وأساءوا ذكر مقتطفات من أقواله وأساءوا فهمه . كان مالثوس ، فى نظره ، ايجابيا وليس سلبيا فى تقديم مذهبه . وقرر بونار أن « رغبة قلب مالثوس للجنس البشرى » تتضمن :

- ١ - نسبة وفيات منخفضة للجميع .
- ٢ - مستوى معيشة مرتفعا للفقراء .
- ٣ - نهاية هلاك الأرواح البشرية صغيرة السن .

راى مالثوس بوضوح أن الأمم تمنع سرعة ارتفاع نسبة

المواليد كلما صارت هذه الأمم متحضرة وأكثر تعلما ، واكتسبت مستوى معيشة أعلى . ونتيجة لذلك صارت آراؤه عن مستقبل المجتمع الانسانى ، متفائلة ، تدريجيا . لاحظ مالثوس ، انه فى انجلترا نفسها « يجب أن يقنعنا أسرع نظرة سطحية عن المجتمع ، بأن وسائل تحديد النسل بين جميع الطبقات ، تسير بدرجة كبيرة . » والواقع انه تناول مختلف الطبقات الاجتماعية - السادة (الجنتلمان) والحرفيين والمزارعين والعمال وخدم المنازل - كل طبقة على انفراد بسبب اختلاف ظروفهم الاقتصادية فاعتقد أن اللفتة على الاحتفاظ بمركز اجتماعى معين ، تمنع الزواج السريع . فمثلا :

على الرجل ذى التعليم الحر والدخل الذى لا يكاد يكفى لتمكينه من مصاحبة طبقة السادة (الجنتلمان) ، أن يتأكد تماما ، انه اذا تزوج وانجب أسرة ، اضطر ، عند اختلاطه بالمجتمع ، الى أن يخالط طبقة المزارعين المعتدلة وطبقة الحرفيين الاقل . أى يهبط درجتين أو ثلاث درجات فى سلم المجتمع ، وخصوصا عند هذا المستوى من السلم الذى ينتهى عنده التعليم ويبدأ الجهل ، لن يعتبره عامة الشعب عالما وخياليا وحشيا ، بل شرا حقيقيا واساسيا .

وكما يمكن أن نستنتج من أقوال المعاصرين ، لم يهمل مالثوس أثناء حياته . فالأثر الذى أحدثته الطبعة الأولى من « المقال » ، جعل الحكومة الانجليزية تجرى تعدادا للسكان فى سنة ١٨٠١ ، وهو أول تعداد حقق نتائج منذ مجيء الأرمادا Armada هذا ، وقد عورضت مقترحات التعداد السابقة على أنها منافية لتعاليم الكتب المقدسة ومنافية للتقاليد الانجليزية وهناك نتيجة ثانية للمقال ، هى تعديل قانون الفقراء الحكومى اجتنابا لبعض أخطاء حدها مالثوس .

كانت وطأة الأفكار المalthوسية على العلوم الطبيعية بالغة الشدة كما كانت على العلوم الاجتماعية . وقد أعلن كل من تشارلز داروين Charles Darwin والفريد رسل والاس Alfred Russell Wallace في حرية ، أنهما مدينان لمalthوس في تكوين نظرية النشوء بالاختيار الطبيعي . فكتب داروين يقول :

في أكتوبر سنة ١٨٣٨ ، أي بعد مضي خمسة عشر شهراً على أبحاثي المنظمة ، تصادف أن قرأت لغرض التسلية مقال عدد السكان لمalthوس . واذ كنت على أتم استعداد لتقدير «تنازع البقاء» (عبارة استعملها مalthوس) الذي يحدث في كل مكان ، وقد شاهدته أثناء ملاحظاتي الطويلة للحيوانات والنباتات ، طرا على بالي في الحال ، أنه تحت هذه الظروف ، تميل بعض الأنواع الصالحة الى أن تبقى بينما تتلف غير الصالحة . وينتج عن هذا جنس جديد . وأخيراً ، استوهم نظرية يمكن أن أعمل بمقتضاها .

وفي اتجاه مشابه ، كتب والاس :

كان «المقال» أول مؤلف قرأته ، حتى ذلك الوقت ، ويتناول أي مشكلة في علم الأحياء الفلسفي ، وبقيت مبادئه الرئيسية في ذهني كمعلومات مستديمة وبعد ذلك بعشرين سنة ، أمدتني بالحل الذي طال بحثي عنه فيما يختص بعامل فعال في نشوء الأجناس العضوية .

عندما خرجت طبعة سنة ١٧٩٨ لذلك «المقال» ، قوبلت بالاحتجاجات الفاضحة من رجال الدين والمتبردين الاجتماعيين . ولكن مalthوس لم يهتم بكل ذلك ، بل أعجب بموضوعه وعقد العزم على أن يستمر فيه الى أبعد من ذلك . ولتقوية أدلته طاف بأوروبا في سنة ١٧٩٩ بحثاً عن مادة لمؤلفه . «طاف خلال السويدي

والنرويج وفنلندة وجزء من روسيا ، وكانت هذه هي كل الدول المفتوحة أمام السياح الانجليز في ذلك الوقت» . ثم قام بجولة أخرى في فرنسا وسويسرا ابان فترة السلم القصيرة لسنة ١٨٠٢ . ونشر في خلال هذه المدة كتيبا عنوانه «بحث أسباب ارتفاع اسعار المواد الغذائية في الوقت الحاضر» ، متخذا وجهة نظره أن الاسعار والارباح تقدر مبدئيا تبعا لما أسماه «الطلب الفعال» .

بعد مضي خمس سنوات من ظهور الطبعة الاولى «للمقال» ، خرجت من المطبعة طبعة ثانية كبيرة جدا عبارة عن مجلد بحجم الكوارتو (ربع فرخ) يتكون من ٦١٠ صفحات . وكان ينقصها حماس الطبعة الاولى وأسلوبها الطلى وتأكيداتها الفتى ، وصارت على هيئة رسالة اقتصادية دراسية مثقلة بالمستندات والحواشى ، ولو أنها باستثناء تطور فكرة «الكبت الاخلاقى» فان المبادئ الأساسية لم تتغير . ظهرت اربع طبعات أخرى اثناء حياة ذلك المؤلف . وفي الطبعة الخامسة كان «المقال» عبارة عن خمسة أجزاء تبلغ في مجموعها ١٠٠ صفحة . والمؤلف الكبير الوحيد الذى وضعه مالتوس بالاضافة الى «المقال» ، لانشفاله بتنقيح هذا الاخير ، كان عنوانه هو :

« مبادئ الاقتصاد السياسى من وجهة نظر تطبيقها» ، الذى نشر في سنة ١٨٢٠ .

كانت حياة مالتوس الشخصية هادئة وأمنة نسبيا . كان حرا في مزاوله دراساته الاقتصادية وكتاباته ، مع قليل من المسؤوليات الاخرى حتى سنه عندما تزوج وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره . وفى السنة التالية عين أستاذا للتاريخ الحديث والاقتصاد السياسى فى الكلية الجديدة لشركة الهند الشرقية بمدينة هيليوبورى Hailybury ليقوم بتعليم موظفى تلك

الشركة المدنيين ، المعلومات العامة . كان هذا أقدم كرسى للاقتصاد السياسي أسس في كلية أو جامعة انجليزية . فبقى مalthus في هيليبورى لمدة ثلاثين عاما حتى مات في سنة ١٨٣٤ وقد أنجب ثلاثة أولاد ، بلغ اثنان منهم ، ولد وفتاة ، سن الرشد .

لم تخمد جذوة النار التي أشعلها مalthus ، اذ ظلت المجادلات المناصرة والمعارضة على أشدها . فبرزت عناوين حديثة تؤيد نظرية مalthus ، منها : «النضال عن مستقبل الانسان» و «الطريق الى البقاء» و «حدود الارض» و «كوكبنا المغتصب» ضمن مقالات عناوينها : «خيال المقات المalthوسي» و «كل بشهية» و «الشر المalthوسي» و «لن تجوع البشرية» . وماهى وجهة النظر الحديثة المبنية على نظريات مalthus اليوم ؟

ظهر عامل في مشكلة الانفجار السكانى ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وهو الاقبال المتزايد على طرق منع الحمل ، التى نشأ عنها تحديد منظم لعدد أعضاء الاسرات ، باستثناء الذين ينقصهم الوعى ومن تمنعهم الوسوس الدينية . وظهرت حركة عرفت بأسماء مختلفة ، منها : «المalthوسية الجديدة» و «تحديد النسل» و «الامومة المخططة» فأطلق عليها عموما اسم «اعظم حركة لاحصاء الشعوب فى العالم الحديث» . غير أن مalthus نفسه اشمأذ من فكرة منع الحمل ، نوعيا ، واستقبحها ، واعتبرت فى عصره شيئا «سيئا وغريبا وغير طبيعى» . ومع ذلك ، فقد صارت احدى الطرق الرئيسية لوقف التضخم السكانى فى المجتمع الحديث ، وبذا اضاف مalthus عاملا رابعا الى الثلاثى الخاص به : الرذيلة والبؤس والكبت الاخلاقى .

وفى سنة ١٨٠٠ عندما كان مalthus يكتب مؤلفه ، قدر تعداد العالم بـ ١٠٠٠ مليون نسمة . وفى المائة والخمسين عاما الماضية وصل تعداداه الى ١٠٠٠ مليون ونصف المليون . وهذه نسبة عالية فى النمو

السكانى نتجت عن زيادة طول العمر أكثر منها عن أية ظاهرة في ارتفاع نسبة المواليد ، ففي الامم المتقدمة من العالم ، انقذت حياة الكثيرين بسبب التغيرات الطبية والصحية والاجتماعية وجاء الانقلاب الصناعى في انجلترا بزيادة كبيرة في انتاج السلع المصنوعة ، فبودل على هذه بالاطعمة والمواد الخام من الدول غير الصناعية ، وتحسنت جميع وسائل النقل لتزيد في سرعة التحرك . فانقل فائض السكان بالهجرة الى القارات الناشئة حديثا . وتأخر ، على الاقل ، تكهنات مalthus البغيضة ، وربما اجلت الى ما لا نهاية ، فيما يختص بالعالم الغربى .

ومع ذلك فهناك مساحات شاسعة من الكرة الارضية تمثل تماما نظريات مalthus . . يتميز الشرق الادنى ومعظم قارة آسيا وغالبية دول امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية بدرجة عالية من الخصب الجنسى تناظرها نسبة وفيات عالية . فالارواح التى ينقدها الطب والوسائل الصحية في تلك المساحات ، عرضة لان يهلكها الفقر والمجاعات .

وعلى عكس نظرية هذا الموقف ، دخلت بعض امم الأرض البالغة التحضر والثقافة ، عصرا من الاستقرار أو تناقص عدد السكان ، وأهمها فرنسا والسويد وأيسلندة وأستراليا وانجلترا وويلز وأيرلندة . جاء هذا الاستقرار نتيجة انخفاض درجة الخصب الجنسى ونقص عدد الشباب وزيادة طول العمر .

زاد انتاج الاطعمة زيادة كبيرة منذ عصر مalthus ، وتتفق الدول على أنه سيصير بالامكان زيادتها أكثر من ذلك بطرق انتاج أكثر فاعلية ، كالزرى واصلاح الاراضى البور والاستعاضة بالاطعمة النباتية بدل الاطعمة الحيوانية ، وبمقاومة أفضل ، للافات الزراعية الحشرية . ويمكن ان يكون فائض المحاصيل في الولايات المتحدة وكندا ، دليلا على خطأ في المبدأ المalthوسى . ولكن ، على الرغم من

انتاجنا الضخم من الغذاء ، هناك مئات الملايين من البشر ، في الشرق وفي أماكن أخرى ، تقف على حافة الموت جوعاً ، أو في مستوى القوت الضروري . ولكن كون ثلثي سكان العالم يقاسون سوء التغذية والفحط واعتلال الصحة والمرض ، يجعل النظرية التي أثارها مالثوس منذ قرن ونصف قرن ، حقيقة وحيوية ، اليوم ، كما كانت وقتذاك .

وحتى أولئك النقاد ، الذين يقولون ان نظرية مالثوس أضعفت في نواح معينة بالتطورات التي لم تحدث في عصر مالثوس ، والتي لم يستطع مالثوس أن يتكهن بها ، حتى هؤلاء النقاد يوافقون على أن نتائج عظمى نشأت عن أفكاره . وكما لاحظ هوبهاوس Hobhouse بشدة : « كانت نظرية مالثوس أحد الأسباب في هزيمة مانتبات به هي نفسها . كان الاعتقاد بأن عدد السكان يزداد بسرعة كبيرة هو الذي عمل بطريقة غير مباشرة ليقاف ذلك » .

لم يعط أحد من المعلقين الكثيرين عن مقال مالثوس (مقال عن مبدأ السكان) ثناء أكثر عدلاً ولا أقوى بصيرة ، من جون ماينارد كينيس John Maynard Keynes ، الذي اعتقد أنه :

« يحق لهذا الكتاب أن يتبوا مكاناً بين تلك الكتب التي كان لها تأثير عظيم على تقدم الفكر . لقد تغلغل عميقاً في التقاليد الانجليزية للعلوم البشرية - في تقاليد الفكر الاسكتلندي والانجليزى الذي كان فيه على ما ظن ، استمرار خارق للشعور اذا صح لى أن أعبر عنه هكذا ، منذ القرن الثامن عشر الى الوقت الحاضر - تلك التقاليد التي اقترحتها الاسماء : لوك Locke وهيوم Hume وآدم سميث وبالي Paley وبنثام Bentham وداروين وميل Mill ، تقاليد تتميز بحب الحقيقة والوضوح الأعظم نبلا ،

- وبسلامة عادية خالية من كل عاطفة أو ميتافيزيقيا ، وبعدد المتعة العظيمة والروح الشعبية . هناك استمرار في تلك العبارات ،
- ليس عن الشعور فحسب ، بل وعن المادة الواقعية . الى هذه الصحبة ينتمى مالثوس .

٥ - حالة الفرد المختصرة

هنرى دافيد ثورو HENRY DAVID THOREAU

العصيان المدنى

يرسم اسم دافيد هنرى ثورو فى المخيلة شخصا دقيق الملاحظة فى الطبيعة ، محبا للعزلة وحياة الخلاء ، ونموذج الحياة البسيطة ، وشاعرا متصوفا ، وأستاذا لاسلوب النشر الانجليزى .

كثيرا مايتذكر الناس ثورو كمؤلف لبعض من أشد التقارير تطرفا فى التاريخ الأمريكى ، وكمحام ، كما يصفه أحد كاتبى تاريخ حياته ، «أعظم المذاهب العلنية للمقاومة ، سبق أن ظهر فى هذه القارة » . وقد تمادى الى أكثر مما قاله ثوماس جافرسون Jafferson . « خير حكومة هى التى تحكم بأقل ما يمكن » . ولكن ثورو استنتج أن «خير حكومة هى التى لاتحكم إطلاقا» . كانت هذه الالفاظ مقدمة مقالة ثورو الشهيرة «العصيان المدنى» التى ظهرت أولا كمجلة دورية غامضة قصيرة الاجل ، وهى

مجلة اليزابيث بيودي Elizabeth Peabody بعنوان :
«صحف فلسفة الفنون» ، في مايو سنة ١٨٤٩ ، وكان اسمها
الاصلى «المقاومة المدنية للحكومة» ثم غير هذا العنوان الى «عن
واجب العصيان المدني» ، ثم مجرد «العصيان المدني» . وعندما
نشرت لأول مرة ، لم تسترع كثيرا من الانتباه ، وقراها قليلون .
وفي اثناء المائة سنة التالية ، قراها الوف ، واثرت في حياة ملايين
البشر .

هل كان ثورو فوضويا فلسفيا في معتقداته ؟ وتحليل مقاله
«العصيان المدني» ، اساسه وماضيه ، نحصل على اجابة لهذا
السؤال المعقد .

اما عن ثورو نفسه ، فلاشئ في بدء حياته يمكن ان ينتج
متمردا اجتماعيا . ولد من ابوين احدهما فرنسي والآخر
اسكتلندي في بلدة كونكورد Concord بولاية ماساشوزتس
Massachusetts في سنة ١٨١٧ شب في بيئة محافظة فقيرة
وحسنة التربية . . . قضى اربع سنوات في هارفارد Harvard
لم تتميز بشئ ، ولو انه كانت هناك لحظة عن مستقبل
ذلك الشخص غير المنتمى الى الكنيسة السائدة في انه
كان يرتدى معطفا اخضر في الكنيسة «اذ كانت الانظمة تتطلب
معطفا اسود» . كان يقضى كثيرا من الوقت في مكتبة الكلية . وثار
متعة ثورو في الكتابة بواسطة اثنين من خيرة الاساتذة : ادوارد
ت . تشاننج Edward T. Channing وجون فيري John Verry
واذ كان ثورو سعيدا بعودته الى حقول كونكورد الخضراء
وغاباتها ، لم يغادرها بعد ذلك الا لزيارات قصار . فقام بعدد من
الاعمال المختلفة . فبعد ان اشتغل مدة قصيرة يعلم في مدرسة
شعبية لم يسعد فيها بحال ما ، قضى ثلاث سنوات شريكا مع
اخيه جون في ادارة مدرسة خاصة بهما . وتلا ذلك مدد متقطعة

ساعد فيها أباه في عمل الأسرة لصناعة الاقلام الرصاص ، وقام بعمل موظف عام في المجتمع ، ومساحا في البلدة ، والقاء المحاضرات من آن الى آخر ، وحاول ان يصير مؤلفا محترفا .

عاش ثورو فترتين قصيرتين في بيت رالف والدو اميرسون Ralph Waldo Emerson حيث تعرف على أعضاء النادي الراقى ، وأسهم بنشاط في مناقشات هذه الجماعة الشهيرة من الكتاب والمفكرين في ولاية نيو انجلاند New England وقد كان تأثير اميرسون قويا على نموه الذهني ، ويشمل تزويده ببعض الآراء لكتابه « العصيان المدني » .

لم يطمح ثورو ، بحال ما ، الى جمع ثروة او القيام بأى عمل سوى مايبداه بأقل ضروريات الحياة . كان شغفه دائما الحصول على وقت فراغ للامور ذات الاهمية الاساسية ، كما يراها هو ، وهى التجول في حقول كونكورد ودراسة الطبيعة على الطبيعة والتفكير والقراءة والكتابة - وعمل الاشياء التى يرغب فى عملها . كان يوسع الحصول على حاجاته البسيطة دون شغل نفسه فى حياة الاعمال الشاقة ، التى رأى جيرانه يقومون بها . فبدلا من آية التوراة القائلة بالعمل ستة ايام والراحة يوما واحدا ، آثر ثورو ان يعكس النسبة - مكرسا اليوم السابع فقط للعمل . وبالاختصار كان يسير على عكس تعاليم آدم سميث والحكم التى ذكرها فرانكلين فى كتابه « مسكين ريتشارد » ، والمثل الامريكية التقليدية التى تحت على العمل الشاق والثراء السريع .

ولتمثيل فكرة ثورو عن الحياة البسيطة الخالية من جميع السطحيات ، قضى سنتين فى والدين بوند Walden Pond بالقرب من كونكورد حيث بنى كوخا وعاش يزرع القول والبطاطس

ويأكل أبسط الاطعمة (وأهمها الارز ودقيق القمح والبطاطس والعسل الاسود) . وعاش منفردا بعيدا عن المجتمع .

كانت فترة تفكير وتدوين افكاره ، فانتج كتابا من اعظم الكتب في الأدب الامريكى بعنوان : « الغابة Walden » او « الحياة فى الغابات » (١٨٥٤) .

وبكل فخر ، كان كتاب « الغابة » سجلا لحياة ثورو فى عزلته الريفية ، وزاحرا بالأوصاف التذكارية للفصول والمناظر الطبيعية وحياة الحيوان حوله . ولكن « الغابة » كان أكثر من ملاحظات عالم طبيعى ، مثلما كان كتاب اسحق والتو Izaak Walton « صياد السمك الكامل » أكثر من كتيب عن صيد السمك . بل يعلق على المسطحات وحدود المجتمع والحكومة ، فصار ذا أهمية عالمية . وبمرور الاعوام جذب النقد الاجتماعى كثيرا من القراء ، كما فعلت الاجزاء التى تتناول التاريخ الطبيعى . وبالطريقة الخاصة التى وضع بها كتاب « الغابة » ، فهو وثيقة متطرفة مثل الكتاب المنشور قبل ذلك « العصيان المدنى » الذى يحمل له مشابهة كبيرة .

بينما كان ثورو يزور كونكورد فى سنة ١٨٤٣ بعد اقامته فى والدين بوند ، قبض عليه وسجن لعدم دفعه ضريبة الرأس . وقد حذا ، فى رفضه دفع الضريبة هذا ، حذو برونسون الكوت Bronson Alcott ، والد « السيدات الصغيرات » ، الذى قبض عليه قبل ذلك بسنتين لنفس التهمة . استعمل كل منهما هذه الوسائل احتجاجا على مساندة الحكومة لتجارة الرقيق . سجن ثورو لمدة ليلة واحدة فقط ، اذ تدخلت عمته ، رغم معارضته ، فدفعت الضريبة .

لم يذكر ثورو قصة احتكاكه بالحكومة لرفضه سداد ضريبة الرأس ، لم يذكرها فى مقاله « العصيان المدنى » الا بعد مرور عدة

سنوات . كتب ذلك المقال أصلا في ١٨٤٨ كمحاضرة . وخرجت النسخة المطبوعة ، من المطبعة ، في العام التالي . . كانت الحرب المكسيكية لسنة ١٨٤٦/٤٧ قد انتهت منذ مدة قصيرة ، وكانت تجارة الرقيق نتيجتها الملهية . وكان قانون العبيد الهاريين ، الذى أثار حنق ثورو بنوع خاص ، على وشك أن يصدر . أضف الى هذه الامور معركة ضريبة الرأس ، فكانت حافزا أوحى اليه بكتابة «العصيان المدني» .

كانت أية حرب بغیضة لمثل ثورو ، فما بالك بالحرب المكسيكية التى مقتها أشد المقت ، لان هدفها الوحيد ، حسب اعتقاده ، هو مد تجارة الرقيق الزنوج ، التى كان يمتقتها ، الى مناطق جديدة . فتساءل ثورو : لماذا ندعم بالمال حكومة «مذبذبة» بمثل هذه المظالم والغباء ؟ وهنا كان مولد مذهبه عن العصيان المدني . قرر ثورو ، وهو السياسى بقلبه وقالبه ، أن الوقت قد حان لاختبار طبيعة الدولة وحكومتها . ماذا يجب أن تكون عليه علاقة الفرد بالحكومة ، وعلاقة الحكومة بالفرد ؟ ومن اعتبارات هذه المسائل ، برزت فلسفة ثورو ، بوفائه الشخصى ومركزه الانسانى فى المجتمع .

كتب ثورو يقول : «ليست الحكومة فى خير صورها الا وسيلة . بيد أن معظم الحكومات ليس وسائل أحيانا . والمعارضات التى أثرت ضد الجيش القائم ، وهى كثيرة وبالغة الاهمية ، وتستحق أن تثار ضد الحكومة القائمة » .

اعلن ثورو، أن الحكومة الامريكية كانت حسنة نسبيا .

غير أن هذه الحكومة لم تنفذ أى مشروع من تلقاء نفسها ، ولكنها تبدى نشاطا وسرعة حركة فى ازالة ذلك المشروع من امامها لم تحافظ على حرية الدولة ، ولم تسو مسألة الغرب ، ولم تنشر

التعليم . فالاخلاق الكريمة التى فطر عليها الشعب الامريكى هى التى أنجزت كل ماتم من مشروعات ، وكان بوسعها أن تنجز أكثر منه لو لم تتدخل الحكومة أحيانا . لان الحكومة وسيلة ينجح بها الناس فى ترك كل واحد وشأنه . وكما قلت من قبل ، عندما تكون الحكومة فى اقصى كونها وسيلة ، فان المحكومين يصبحون فى اقصى حالات تركهم وشأنهم بواسطة تلك الحكومة .

بعد أن قدم ثورو قضية « ألا تكون هناك حكومة » ، مباشرة تقريبا ، أدرك أن الانسان لم يصل بعد الى درجة الكمال حيث يكون من المحتمل عدم وجود حكومة على الإطلاق ، فبدأ يعدل رأيه ، قائلا :

ولكى أتكلم من الناحية العملية ، وكمواطن ، بعكس الذين يسمون أنفسهم رجال «عدم الحكومة» ، فانى لأطلب فى الحال عدم وجود حكومة ، بل أطلب فى الحال حكومة أفضل . وعلى كل فرد أن يوضح نوع الحكومة التى تحظى باحترامه ، وستكون هذه خطوة الى الامام نحو الحصول عليها .

أكد ثورو على حقوق الاقليات فى الحكم ، والمغالطة التى تطلب حكم الاغلبية ، فقال : «تحكم الاغلبية» ، ليس لكونها عرضة لان تكون على صواب ، ولا لان هذا يبدو أكثر انصافا للاقلية ، ولكن لانها الافوى طبيعيا . ولكن الحكومة التى تحكم فيها الاغلبية، فى جميع القضايا ، لا يمكن أن يكون حكمها مبنيا على العدل ، حتى وأو كان على حد مفهوم البشر . فقد كان يعتقد اعتقادا راسخا أن المواطن لن يتخلى عن ضميره للمشرع ... يجب أن تكون رجلا أولا ، ثم رعيا بعد ذلك . ليس من الضرورى أن نتمى احترام القانون ، كما نتمى احترام الحق » .

تزدري ثورو السياسيين كطبقة ، فقال : «يخدم معظم

المشرعين والسياسيين والمحامين والوزراء وموظفى الحكومة ، الدولة برعوسهم غالبا . وبما أنهم قلما ، يدون أى تمييز أخلاقى فانهم يميلون الى خدمة الشيطان كاله دون وعى منهم . ويخدم قلة قليلة ، كالأبطال والمتحمسين للوطن والشهداء والمصلحين والرجال بمعنى الكلمة الدولة بضماثرهم أيضا ، ولذا فمن الضرورى أن يقاوموا الحكومة فى أغلب الاحوال ، ولهذا تعاملهم الحكومة عموما كأعداء .

بعد ذلك أخذ ثورو يهاجم الحكومة الامريكية لعصره ، قائلا : «لايمكننى الاعتراف لحظة واحدة بأن تلك المؤسسة السياسية هى حكومتى ، التى هى حكومة العبيد أيضا» . من واجب المواطن أن يقاوم الشر فى الحكومة الى حد عصيان قوانينها علنا وعمدا .

إذا تعهدت أمة بأن تكون ملجأ للحرية ، وكان سدس عدد سكانها عبيدا . فاعتقد أن الوقت ملائم للأشراف من شعبها أن يتمردوا ويثوروا . . يجب أن يكف هؤلاء الناس عن امتلاك العبيد وعن شن الحرب على المكسيك ، حتى ولو كلفهم هذا وجودهم كبشر .

وكذلك رثى ثورو للمواطن الذى يظن أنه قد أدى واجبه كاملا بمجرد الادلاء بصوته .

كل تصويت نوع من المقامرة ، كالضامة والطاولة ، مع إضافة مسحة اخلاقية بسيطة اليها . انه لعب بالحق والباطل ، بالمسائل الاخلاقية والمراهنة التى تصحبها بطبيعة الحال . ليست أخلاق المصوتين فى خطر . . وحتى التصويت على الحق لايعمل شيئا من أجله . . انه انما يعبر للناس عن رغبتك فى سيادة الحق . . . ليس هناك سوى قليل من الفضل فى أعمال جموع البشر .

ناقش ثورو الطريقة الصحيحة لعمل المواطن حيال القوانين

غير العادلة . هل الافضل : الانتظار حتى تعمل الغالبية على تغيير القوانين ، أم رفض طاعتها على الفور ؟ كان جواب ثورو القاطع هو : «إذا ارادت الحكومة منك أن تكون عاملها في انزال الظلم بشخص آخر ، فعندئذ أقول لك : اكسر القانون ... مايجب على أن افعله هو أن أرى أنني لاأعير نفسي ، بأية حال ، الى الظلم الذى أمقته وأحاربه .

قال ثورو ، انه من خصائص الحكومة أن تقاوم كل تغير وكل اصلاح ، وتسئ معاملتها من ينتقدونها . وتساءل : «لماذا تصلب المسيح دائماً ، وتحرم كوبرنيكوس Copernicus ولوثر Luther وتصف واشنطن وفرانكلين بالتمرد ؟»

أكد ثورو على أنه ينبغي لمن يقاومون تجارة الرقيق أن «يسحبوا دعمهم في الحال ، الشخصى والمادى ، من حكومة ماساشوزتس ، والا ينتظروا حتى يصيروا غالبية عظمى ، قبل أن يروا سيادة الحق بواسطتهم . وأعتقد انه يكفى أن يكون الله في جانبهم ، دون انتظار لتلك الغالبية . وزيادة على ذلك ، فكل رجل أكثر احقاقا للحق من جيرانه ، هو غالبية في حد ذاته » .

وكشعار للعصيان المدنى ، الذى هو طريق مفتوح امام كل مواطن ، أشار ثورو بأن يرفض المواطن دفع الضرائب . فاذا عبر ألف شخص أو أقل عن امتعاضهم من الحكومة بتلك الطريقة ، فلا بد أن يتبع الاصلاح ذلك ، حسب رأى ثورو . وحتى اذا كانت مقاومة السلطات تعنى العقاب ، «ففى ظل الحكومة التى تسجن أى فرد ظلماً ، يكون المكان الصحيح للانسان العادل هو السجن ايضا . . اذا خيرت الحكومة بين ايداع جميع العادلين في السجن وبين ترك الحرب وتجارة الرقيق ، فانها لن تردد في الاختيار» . فاذا دفع المواطن الضرائب لحكومة غير عادلة ، فانه انما يتجاوز عن المظالم التى تقوم بها تلك الحكومة .

ورغم هذا ، رأى ثورو ان طبقة أصحاب الاملاك تخاطر كثيرا اذا تمردت ، لان «الرجل الغنى - دون عمل مقارنات تشير الغضب - يباع دائما للمؤسسة التى جعلته غنيا . وبتعبير مركز، كلما زاد المال قلت الفضيلة ، اذ يقف المال دائما بين الرجل وأهدافه ، ويحققها له » .

واذ لم يكن ثورو غنيا ، كان بوسعه ان يقاوم . «يكلفنى عصيان الحكومة اقل ، بجميع المعانى ، مما تكلفنى طاعتها . أحس بأننى أساوى اقل فى هذه الحالة الاخيرة» .

كذلك كان ثورو واقعيا فى رؤيته قيمة الاعتراضات الاقتصادية التى منعت حكومة ماساشوزتس من القيام بعمل ضد تجارة الرقيق .

اذا تكلمنا من الناحية العملية ، فان المعارضين للاصلاح فى ماساشوزتس ، ليسوا مائة الف سياسى فى الجنوب ، بل مائة ألف تاجر ومزارع هنا ، يهتمون بالتجارة والزراعة اكثر من اهتمامهم بالانسانية . وليسوا مستعدين للوقوف الى جانب تحريم تجارة الرقيق ومعارضة الحرب مع المكسيك ، «مهما تكلف الامر» .

تمسك ثورو بمبادئه لمدة ستة أعوام ، وقرر أنه لم يدفع أية ضريبة رأس . ولم ترحضه مدة سجنه القصيرة عن اتهاماته للحكومة ، بل جعلته لايهتم بالسجن .

رأيت ان الحكومة تصف ذكية ، وأنها جبانة كامرأة تركت وحيدة مع ملاحقها الفضية ، وأنها لاتعرف أصدقاءها من أعدائها، ففقدت كل ماتبقى عندى من احترام لها . وهكذا ، ان تواجه الحكومة قصدا مشاعر الانسان الذهنية ولا الاخلاقية ، بل تواجه جسمه فقط وليس مشاعره . ليست الحكومة مسلحة بذكاء سام

ولا بأمانة ، وإنما هي مسلحة بقوة بدنية فائقة ، لم أولد لأجبر ،
سأتنفس كما يطيب لى .

فرف «رو بين الضرائب : «لم أتاخر أبدا» عن دفع ضريبة
الطرق ، ولا ضريبة المدارس ، لأننى أرغب فى أن أكون جارا طيبا ،
بقدر ماأنا رعية سيء» . أنه يدعم تجارة الرقيق والحرب بدفع
الضرائب العامة « أريد ، ببساطة ، أن أرفض التحالف مع
الحكومة ، وأن انسحب وأقف بعيدا عنها بطريقة فعالة» ، فى هذه
الامور .

لم تكن هناك رغبة من جانب ثورو للوقوف كشهيد او
قديس ، بل قال :

« لا أرغب فى العراك مع أى رجل أو أية أمة ، ولاأريد أن
أقوم بالتمييز بين شخص وآخر ، أو أضع نفسى فى موقف أفضل
من جيرانى ، بل أسعى الى عذر يجعلنى أتمشى مع قوانين البلاد .
اننى على أتم استعداد للسير تبعا لها . والحقيقة أنه لدى سبب
للشك فى نفسى فيما يختص بهذا الامر . وفى كل عام ، عندما يأتى
وقت جباية الضريبة ، أجد نفسى مستعدا لاستعراض القوانين
وموقف الحكومة العامة وحكومة الولاية وروح الشعب لاكتشف
حجة ألتمشى مع القوانين » .

وزيادة على ذلك ، اعترف ثورو أنه على الرغم من هبوط
القوانين من المستوى المثالى فان «الدستور ، مع كل أخطائه ،
جيد جدا ، والقانون والمحاكم محترمة . وحتى حكومة هذه
الولاية والحكومة الأمريكية رائعتان فى كثير من النواحي ، ونادرتان
المدرجة أننا ندين بالشكر من أجلهما » .

ورغم استفاده قلعة الغالبية ، فهو يؤمن ، بعض الشيء ،
بحكم الشعب . وفى نظره ، فالتشريع ينقصه القدرة على أن يعالج

سجاح «الموضوعات المتواضعة نسبيا ، للضرائب والمالية والتجارة والصناعة والزراعة . واذا كان كل ائكالنا على عبارات المشرعين فى الكونجرس ، لكى تقودنا ، دون ان تصححها التجارب الموسمية او شكاوى انشعب المؤثرة ، فلن تحتفظ أمريكا بمركزها بين الامم لمدة طويلة » .

ويختتم ثورو مقاله « العصيان المدنى » بعبارة من فكرته عن الحكومة الكاملة ، وتأكيدده الملح على اعتقاده بكرامة الفرد وقيمه .

ولكى تكون سلطات الحكومة عادلة بالمعنى الحرفى . . . يجب ان تحصل على موافقة المحكومين وبركتهم . لايمكن ان يكون لها حق مطلق على شخصى أو على ممتلكائى الا بقدر ماوافق عليه . والتقدم من ملكية مطلقة الى ملكية محددة ، ومن الملكية المحددة الى الديمقراطية تقدم نحو احترام حقيقى للفرد . . وهل الديمقراطية كما نعرفها هى التحسن الاخير الممكن فى الحكومة) اليس بالامكان ان نخطو خطوة نحو الاعتراف بحقوق الانسان وتنظيمها . لن تكون هناك ولاية حرة بحق ، ومستنيرة بحق الا اذا اعترف مجلس الشيوخ بالفرد كقوة عليا مستقلة ، يستمد منها كل قوته وسلطته ، ويعامل ذلك الفرد على هذا الاساس . وانى لامتنع نفسى بان اتخيل حكومة ، فى النهاية ، يمكنها ان تكون عادلة ازاء جميع الناس ، وتعامل الفرد بالاحترام على أنه جار لا يظن من الملائم لراحته أن يعيش القليلون بعيدا عن الحكومة ولايتدخلون فى شئوننا ولاحتضنهم تلك الحكومة التى أدت واجبها نحو الجيران والزلاء . فالحكومة التى تنتج مثل هذا النوع من الثمار وتدعه يسقط بمجرد نضجه ، ستمهد الطريق لحكومة اكثر كمالا ومجدا ، وقد تخيلت هذه أيضا ، ولكنى لم أرها فى أى مكان .

وبالاختصار ، كان خصام ثورو للحكومة فى كتابه « العصيان

المدنى» هو أن الحكومة تعيش للأفراد ولا يعيش الأفراد لأجل الحكومة . يجب ألا تخضع الاقلية للاغلبية اذا وجب تصحيح المبادئ الاخلاقية لتفعل هذا . ثم انه ليس للحكومة الحق في اهانته الحرية الاخلاقية باجبار المواطن على دعم المظالم . يجب أن يكون ضمير المرء دائما هو روجه المرشدة العليا .

يمكن اهمال اثر «العصيان المدنى» في عصر ثورو . . لم يتر اليه معاصروه من الكتاب في مؤلفاتهم . واذ كانت الحرب الاهلية بعد ذلك بعشر سنوات أو أكثر قليلا ، فيمكن افتراض أن ذلك المقال قد مر وترا شعبيا حساسا . ومن الجلى أنه دفن تحت التيار المكتسح لأدب أنصار الالغاء ، وظل غامضا ومنسيا الى القرن التالى .

والآن ينتقل المنظر الى جنوب أفريقيا والهند . ففى سنة ١٩٠٧ وقعت نسخة من كتاب «العصيان المدنى» فى يدى محام هندى فى أفريقيا اسمه مهانداس كاراتشاندى غاندى Mohandas Karamchand Gandhi كان غاندى يفكر من قبل فى ميزات المقاومة الايجابية كدفاع لشعبه . وهاك سردا لهذا الحدث كما ذكره المهاتما بعد ذلك باثنتين وعشرين سنة لهنرى صولت Henry Salt أحد كاتبى تاريخ حياته المبكرين :

كان اول لقاء لى مع مؤلف ثورو ، على ماأظن ، فى سنة ١٩٠٧ ، أو بعد ذلك ، لما كنت فى معمعان نزاع المقاومة الايجابية . أرسل لى أحد أصدقائى نسخة من مقال عن «العصيان المدنى» ، فترك فى نفسى اثرا عميقا . فترجمت جزءا منه لقراء صحيفة «الرأى الهندى فى جنوب أفريقيا» التى كنت احررها وقتذاك ، ونقلت بعض فقرات منه للقسم الانجليزى من تلك الصحيفة . يبدو أن ذلك المقال مقنع وصادق للدرجة اننى شعرت بالحاجة الى

معرفة المزيد عن ثورو . فعثرت على كتابك عن تاريخ حياته ، وعلى كتابه «الغابة» ، وبعض المقالات القصيرة الاخرى ، وقرأتها جميعا بمتعة بالغة ، وفائدة مماثلة .

وهناك قصة أخرى تختلف قليلا عن هذه ، رواها أحد الاصدقاء المقربين لغاندى فى جنوب أفريقيا وهو هنرى بولاك
: Henry Polak

لاستطيع الآن (١٩٣١) أن اتذكر أنه فى سنة ١٩٠٧ ، هل كان غاندى هو الذى عثر على نسخة من مقال ثورو (نشرته مكتبة سكوت Scott) ام أنا الذى عثرت عليها . ولكن كلا منا تأثر به غاية التأثير ، لمطابقة معنى مبادئ المقاومة الايجابية ، والعصيان المدنى . . فى مقال «عن واجب العصيان المدنى . وبعد التشاور مع المستر غاندى ، كتبت المقال فى اعمدة صحيفة «الرأى الهندى» وترجم الى اللغة الجيجاراتيه Gujarati التى كانت تلك الجريدة تظهر بها ، كما تظهر باللغة الانجليزية أيضا . وبعد ذلك ، نشر ذلك المقال فى صورة كتيبات او نشرات . وفى السنة نفسها ، نظمت جريدة «الرأى الهندى» مسابقة فى مقال عن «الفلسفة الاخلاقية للمقاومة الايجابية ، مع اشارة خاصة الى مقال ثورو ، الذى جذب انتباه المستر غاندى .

لما كان غاندى غير راض عن المصطلح «المقاومة الايجابية» ، وفى الوقت نفسه لم يجد مصطلحا بديلا ملائما ، وافق من فوره على استعارة «العصيان المدنى» لوصف حركته . قرر ان هذا المصطلح تعبير عن مبدأ الصلابة فى غير عنف ، مع تمسك بالحقيقة والعدالة . وهذه سياسة دبلوماسية تنطبق تماما وفلسفة غاندى . فصار «العصيان المدنى» فى يدى الهاتما غاندى انجيلا لعدم المقاومة . . صاغ غاندى لاتباعه الهندوكيين مصطلحا معادلا «ساتيجراها Satygraha» ويتكون من كلمتين سانسكريتيتين

ترجمتهما «قوة الروح» أو «القوة المولودة من الحقيقة والمحبة ،
أو عدم العنف» .

يقول كريشنالال شريدهاراني Krishnalal Shridharani وهو أحد كتاب تاريخ حياة غاندى : «ان نضال ثورو ضد تجارة الرقيق في الولايات المتحدة ، قد شبع غاندى بالايان بأن عدد المقاومة ليس هو ما يهم في «قوة الروح» وإنما الذى يهم هو نقاء روح التضحية» . وقرر غاندى :

الأوامر مستحيلة عندما تنحصر في عدد قليل من المتعاضين،
وهى متعبة عند وجوب تنفيذها ضد الكثيرين من ذوى النفوس
السامة ، الذين لم يقتربوا اثما ، والذين يرفضون دفع
الضريبة دفاعا عن مبدأ . وعندما يلجأ الافراد العزل الى هذه
الطريقة للتعبير عن احتجاجهم ، فقد لا يسترعون كثيرا من الانتباه .
بيد ان الامثلة الظاهرة تنتهج طرقا غريبة لمضاعفة انفسها . انها
تتحمل الاعلان ، وبدلا من أن تعاني الكراهية ، تحظى بالتهانى . .
حقق اناس ، امثال ثورو ، الفاء تجارة الرقيق بمثلهم
الشخصية .

بهذه العبارات كان غاندى يردد الفاظ ثورو عن قوة الاقلية
الصغيرة ذات العزيمة الثابتة . وبدا ، كما علق شريدهاراني «ان
يصنع ثورو سلاح العصيان المدنى الذى هو قاعدة هامة في مقال
غاندى «قوة الروح» ، لم يصنع ثورو هذا فحسب ، بل وأبرز
قوة عدم التعاون التى كبرها غاندى بعد ذلك كوسيلة لتحطيم
حكومة فاسدة» .

بقى غاندى في جنوب افريقيا طوال عام ١٩١٤ يقوم بمعركة
مع قوات الحكومة التى يقودها الجنرال جان سميثس

Jan Smuts ، وقد تميزت تلك الحملة بالاضطهاد والعنف المتعدد الصور ، والسجن وجميع الوسائل الاخرى المتوفرة لدى حكومة قوية لمحاولة قمع اقلية غير شهيرة . . افادت طرق غاندى من عدم التعاون وعدم المقاومة والعصيان المدني او «قوة الروح» ، وفي النهاية وافق رئيس الوزراء سمطس وحكومته ، على كل طلب هام للهنود ، ومن ذلك الغاء قانون بصمات الاصابع ، والغاء ضريبة الثلاثة الجنيهات على الرأس ، والتصديق على صحة زواج الهندوس والمسلمين ، وإزالة القيود المفروضة على هجرة الهنود المتعلمين ، والوعد بحماية الحقوق الشرعية للمواطنين الهنود .

وقرر اندوز Andrews ، وهو كاتب آخر لتاريخ حياة غاندى ، انه يجب اعتبار حملة جنوب افريقيا « ليس المثال الاول فحسب ، بل والمثال الكلاسيكى لاستخدام عدم المقاومة بواسطة جموع الناس المنظمة لدفع المظالم » .

وتبعاً لما قاله شريدهارانى ، كان تفسير غاندى للعصيان المدني هو أن :

بوسع أولئك الراغبين في طاعة القانون وحدهم . . . أن يكون لهم الحق في ممارسة العصيان المدني ضد القوانين غير العادلة . ويختلف هذا الامر تمام الاختلاف عن مسلك طريدى القانون ، لانهم يمارسونه علناً وبعد سابق انذار مناسب . . . لم يكن من اللائق ، اذن ، تنمية عادة كسر القانون او خلق جو من الفوضى . وانما يلجئون اليه فقط عندما تخفق جميع الوسائل الأخرى كالشكاوى والمفاوضات والتحكيم ، في دفع الظلم .

عاد غاندى الى الهند في أوائل سنة ١٩١٥ ، وبقي هناك حتى قتل في سنة ١٩٤٨ ، اغتاله مجرم هندوكى ، وهو يقود القوات التى جلبت الحرية للهند وباكستان . وحدث شغب

ومذابح وأحكام بالسجن لمدة طويلة وكبت للحريات المدنية وتوانب ظالمة للنضال بها . وكثيرا ما استخدم العصيان المدني ابان هذه السنين ، وشجذه غاندى حتى جعله سلاحا ذا اثر عجيب . كانت الخطوات الاولى اضطرابات ومظاهرات ومفاوضات ، وان امكن تحكيمها . واذا لم تات هذه بنتائج ، كانوا يلحثون الى الطرق الاقتصادية كالاضراب والمقاطعة التجارية والاعتصام . ومن الطرق الأخرى عدم دفع الضرائب .

وفى أغسطس سنة ١٩٤٧ منحت بريطانيا الهند الهندوكية وباكستان الاسلامية حق تقرير المصير .

لا شك فى أن المستقبل سىرى فوائد أخرى لاستخدام مبادئ العصيان المدني كما وضعها ثورو ونقحها غاندى . وان قوى الشعوب المظلومة فى كل مكان ، حتى فى الدكتاتوريات الحديثة الوحشية ، تستطيع بهذه الوسائل اوغام السلطات على الاحساس بها . ومن الأمثلة السائرة نضال شعوب جنوب أفريقيا الملونة ضد حكومة ستريجدون Strijdon وهو تحديد لنضال غاندى .

قال غاندى : « فحتى أكثر الحكومات استبدادا لا يمكن أن تقوم الا بموافقة المحكومين ، تلك الموافقة التى كثيرا ما يحصل عليها المستبد باستخدام القوة . وعلى الفور تكف الرعاية عن الخوف من انقوة المستبدة . لقد ذهب ربح ذلك المستبد ، وتعوضت القلوب من رعبها منه ، الجراة عليه » .

نبد ثورو الحكومة التسلطية والحكومة المطلقة فى أية صورة من صورهما . كانت مذاهبه ، على طول الخط ، ضد الشيوعية والاشتراكية ، او أى مذهب آخر يجعل الحكومة فوق حقوق الفرد . ويجب التنويه عن أن اتجاه الحكومة فى منتصف القرن العشرين ، يدل على أن افكار ثورو تقايل فى حرب خاسرة . ومع

ذلك ، ففي العالم عموما ، نجد مسألة علاقة المواطن بحكومته -
 اى طبيعة ومدى طاعته لها - لم تكن عاجلة اكثر من هذا .

كتب باريجتون Parrington يقول : « ان فلسفة الفردية
 فى القرن الثامن عشر ، والاباحية القوية التى اطلقها جان
 جاك روسو Jean Jacques Rousseau وقد بلغت ذروتها فى ميوانجلاند
 عن طريق ثورو . كان التجسد الكامل لرد فعل مبدأ «حرية
 التعامل» على النظام الاجتماعى المدعم بالقوة العسكرية ، واقسى
 ناقد للاقتصاديات الدنيا ، التى تحبط أحلام الحرية البشرية .
 بأعشابه ، وكان سعيد الحظ فى عدم تكهنه بمقدار بعد ذلك
 المستقبل ، مستقبل الاحرار ، الذى ثبت عليه آماله » .

٦ - مغامرة من أجل المساكين

هاريت بيتشرستو HARRIET BEECHER STOW

كابينة العم توم

اتفق نقاد « كابينة العم توم » ، من مادحين وقادحين ، في نقطة واحدة . فقد اذترفوا جميعا ، بغير استثناء ، بالأثر الهائل لذلك الكتاب على عصره ، وبنفوذه القوي في التحريض على الحرب الأهلية . وقد وصف أحد المعلقين المعاصرين القادحين ، هذا المؤلف بأنه : « تشمويه وحشى أوحى به التعصب لالغاء الرق » ، وأنه موضوع لاثارة الشقاق بين الأقسام . وأبدى أحد مشاهير المحاضرين والكتاب ، في أوائل القرن الحالى ، ملاحظته بقوله : « أحدث كتاب ، كابينة العم توم ، ضرا للعالم يفوق ما فعله أى كتاب آخر » .

وعلى نقيض هذين ، عبر عدد كبير من المعجبين ، عن عاطفتهم بخطاب جاء من لونيقلو يصف كتاب كابينة العم توم ، بأنه : « أحد الانتصارات العظمى التى سجلها تاريخ الأدب علاوة

على أثره الأخلاقي » . وقرظ آخرون ذلك الكتاب على انه « انتصار للحقيقة » و « خالد » وأن المؤلف « سيدة نابغة بدون جدال » .

ما من كتاب آخر كان أكثر موضوعية ولا أحسن توقيتاً وظيفياً . . زادت حدة النضال من أجل مسألة الرقيق . وزاد في حدتها التصديق على قانون العبيد الهاريين - ظل المطالبون بالغاء الرقيق عشرين سنة يصعدون من إثارة الرأي العام ضد الرق ، وانقسم الكونجرس من الوسط قسمين ، بتزايد المعارضين للرق من رجال الدين - من الشمال والجنوب - وهم يصيحون من منابرهم بالآيات المقدسة المحرمة استخدام العبيد وامتلاكهم . وبلغ الجو الثائر ذروته ينتظر شرارة فحسب لحدوث انفجار يهز العالم كله ، وقد زودهم كتاب كابينة العم توم بهذه الشرارة .

لم يكن الوقت مناسباً فقط ، بل ظلت الوراثة والبيئة تشكلان الشخص الملائم بالضبط لإثارة المغامرة ضد استرقاق البشر .

واذ كانت هاريت بيتشرستو ابنة رجل من أشهر الناس قداسة في القرن التاسع عشر ، وهو لايمان بيتشر Layman Beecher وشقيقة واعظ أكثر عاطفة من أبيه وهو هنري وارد بيتشر Henry Ward Beecher وزوجة واعظ ، وشقيقة ووالدة واعظ آخرين ، قضت حياتها كلها في جو ديني بحت . وزيادة على ذلك ، كان تعليمها الديني كلفينيا متعصباً ، متمسكة بروح جوناثان ادواردز وصموئيل Jonathan Edwards هوبكنز Samuel Hopkins وغيرهما من متصوفي نيو إنجلاند ، كما أحاط بها باستمرار منذ نعومة أظفارها تعاليم لاهوتية « كالنار والكبريت » . . فلما كانت هاريت تستطيع ألا أن تكون واعظة - ان لم يكن من منبر ، فعلى الأقل بالقلم . تجلى الأساس الديني

في جميع مؤلفاتها المتنوعة ومنها كابينة العم توم ، يحفرها الى الحماس الانجيلي وفصاحة التعبير بالآيات المقدسة .

ولدت هاريت بيتشر ستون ليتشفيلد Litchfield بولاية كنتيكت Connecticut في سنة ١٨١١ ونالت قسما من التعليم في هايرتفورد Hartford أفضل مما جرت العادة أن تناله النساء في عصرنا . وكان حوالى ثلثي تعليمها دينيا في طبيعته . وكانت مولعة بالقراءة . وزيادة على علم اللاهوت ، كان المؤلفان المفضلان لديها هما بايرون Byron وسكوت Scott اللذين كان لهما تأثير كبير في أسلوب كتابتها .

انتقل لايمان بيتشر ، الكثير التنقل ، مع أسرته من ليتشفيلد الى أبروشية في بوسطن Boston ، وكانت هاريت عندئذ في الرابعة عشرة من عمرها ، وبعد ذلك ببضع سنين انتقل ثانية الى سنسناتي Cincinatti حيث استدعى رئيسا للجمع اللاهوتي في لين Lane حيث بقيت هاريت الى سنة ١٩٥٠ تقوم بالتعليم في مدرسة هناك ، وتزوجت عضوا من كلية ذلك المجمع ، هو كالفين ستو Calvin Stowe ، فأنجبت سبعة من أطفالها السبعة . وبين آن وآخر ، كانت ترسم وتكتب القصص للنشر في المجالات هناك .

كانت السنوات التي قضتها في سنسناتي شكلية في كثير من النواحي . وتقع سنسناتي هذه على نهر أوهيو Ohio في مواجهة مزارع شاسعة يفلحها العبيد في ولاية كنتكي Kentucky وكانت مركزا لحركة ثائرة ضد الرق . وكان الرعاا المعارضون لالغاء الرقيق يجوبون شوارعها يحطمون المطابع المضادة للرق ، ويسيثون معاملة الزوج الأحرار . فألقيت الخطب العنيفة لابطال الرق . كما كانت سنسناتي ملجأ للعبيد الهاربين ، وهم في

طريقهم الى الشمال بالسكة الحديدية تحت الارضية الى الحرية
فى كندا . وكان المجمع نفسه مربى للعاطفة المناوئة للرق ، ولم
يحمه من هجوم الرعاع الا موقعه فى شارع وعمر موحل يبعد عن
المدينة بمسافة ميلين . وقد أوى بيت لايمان بيتشر الهاريين فى
عدة مناسبات . وصل الى اذنى هاريت ، مباشرة ، من أفواه
العبيد الهاريين قصص عن عائلات تفككت ، عن قسوة ملاحظتى
عمل العبيد ، وفظائع مبنى المزد ، واهوال مطاردة الهاريين .

رات مسز ستو بعينى رأسها ، مرة واحدة ، العمل فى
أنظمة الاحتفاظ بالعبيد . ففى زيارة قصيرة مع بعض الاصدقاء
لمدينة مايزفيل Maysville بولاية كنتكى ، سنة ١٨٣٣ ،
شاهدت عددا من المزارع بها عدد كبير من البيوت الريفية وعنابر
العبيد . هنا وجدت نموذج المزرعة التى تخيلتها لكتاب « كابينه
العم توم » وهى مزرعة شلبى Shelby . كما حصلت على
أفكار عملية لنظام عمل العبيد . وزادت ذخيرتها من عند أخيها
شارلز الذى يعمل رجل أعمال ويسافر الى نيو أورليانز
New Orleans وريف النهر الأحمر ، ان جاءها بقصص
بشعة عن الرق فى أقصى الجنوب . كانت هاريت مدينة لشارلز
بنموذج بطل كابينه العم توم ، وهو سيمون لجرى Simon Legree
الذى يتميز بوحشية ملاحظ العبيد ، وقد التقى به شارلز على
ظهر سفينة فى نهر المسيسيبي Mississippi

وفى السنوات التى قضتها هاريت ستو فى سنسنتاتى ، لم
تكن من مجبذى الغاء الرق المتحمسين ، وربما شاركت أباهما رايه
فى أن اللغاء يتكون من « الخل وحامض النتريك وزيت الزاج
(حامض الكبريتيك) مع الكبريت وملح البارود والفحم النباتى ،
ليتفجر فتتناثر المادة الاكالة » . والواقع أن مسز ستو كانت
متفرجة أكثر منها بطلة عاملة فى معركة الرقيق ، حتى عادت الى

نيو انجلاند اذ عين كالفين ستو استاذا بكلية بودوين Bowdoin
بولاية مين Maine ، فانتقل اليها مع أسرته في سنة ١٨٥٠ .

كانت نيو انجلاند كلها نائرة حنقا على اقرار قانون العبيد
الهاربين وخصوصا ضد أحداث ذات صلة بتطبيق ذلك القانون في
بوسطن . فأصحاب العبيد في الجنوب يمكنهم مطاردة العبيد
الهاربين داخل الولايات الحرة مع الزام موظفي هذه الولايات
بمساعدهتهم في استعادة مملوكيهم . وزيادة على ذلك ، فان الزوج
الذين نعموا بالحرية قانونا منذ مدة طويلة ، جمعوا وأعيدوا
الى أصحابهم السابقين ، وغالبا ما انفصلوا عن عائلاتهم في هذه
العملية .

تسلمت هاريت ستو خطابا من زوجة أخيها مسز ادوارد
بيتشر ترجوها فيه أن تكتب شيئا يجعل أمة بأسرها تشعر
بفظاعة الرق . وتبعا لتقاليد أسرة ستو ، قالت هاريت :
« بمساعدة الرب سأكتب شيئا ان أحياني الله » . وفي تلك
الآناء ، كان أخوها ادوارد نائرا ضد الرق في كنيسة بوسطن :
بينما يعقد أخوها الآخر هنري وارد ، مزارات في كنيسته بمدينة
بروكلين Brooklyn لتخليص العبيد من رقهم ومنحهم الحرية .

كان القسم الاول من كتاب « كابينة العم توم » ، الذي كان
ما يزال في طور التأليف ، هو غاية الموضوع ، ويصف موت توم .
وبينما كانت مسز ستو حاضرة في كنيسة برنسويك Brunswick
اثناء توزيع الذبيحة المقدسة ، استرجعت كافة المناظر المتجمعة
في عين ذهنها . وفي مساء ذلك اليوم نفسه ذهبت الى
حجرتها وأثقلت بابها وطفقت تكتب رؤيتها حتى نفذ ما لديها
من ورق الكتابة فاستعملت ورق اللف البنّي اللون واكملت فيه
قصتها . وعلى ذلك كونت هذه القصة الباب الذي عنوانه
« الشهيد » في كتاب « كابينة العم توم » . ولما قرأته لأولادها

كتب غيرت العالم - ١٢٩

وزوجها تأثروا جميعا تأثرا عميقا . ويقال ان كالفين ستو ، صاح
يقول : « أى هانى ، هذه ذروة قصة الرق التى وعدت شقيقتى
ايزابيل بكتابتها . ابدئى من البداية حتى تصلى الى هذه ،
تحصلى على كتابك » .

بعد اسابيع قليلة ، كتبت هاريت ستو الى جامايل بايلى
Gamaliel Bailey محرر صحيفة « العصر القومى » ، وهى
جريدة مناصرة لالغاء الرق تصدر فى واشنطن ، وكان بايلى
يعرف أسرة بيتشر فى سنسنانى حيث كان يصدر جريدة أخرى
مناهضة للرق عنوانها « الخير » ، حتى طرد من هناك فى كثير من
العنف . ذكرت مسز ستو فى خطابها أنها تعترم كتابة قصة اسمها
« كابينه العم توم » من « الرجل الذى كان شيئا » (وهذا عنوان
غير فيما بعد الى : (الحياة بين المساكين) فى صورة حلقات تفصل
الى ثلاث أو أربع . فعرض عليها بايلى ثلثمائة دولار لحقوق
النشر ، وبدأت صحيفة « العصر القومى » تنشر الحلقات فى
شهر يونية سنة ١٩٥١ .

توقعت مسز ستو أن ينتهى ذلك المؤلف فى شهر ، ولكنه
امتد باستمرار فى مناظر وأحداث وشخصيات ومجاذبات كانت
مكدسة فى ذاكرتها من تجاربها السابقة أو قراءة ما جاءها بالأقوام .
بينما كانت قوى خيالها وابتكارها تتأجج حماسا . امتدت
الحلقات الاسبوعية لمدة سنة تقريبا قبل أن تتمكن المؤلفة المتعبة
من الوصول الى خاتمة كتابها . بعد ذلك ، أصرت على أن الله
نفسه هو الذى كتبه ، ولم أكن أنا سوى أداة فى يده .

لم تكن الخطة الأصلية لقصة « كابينه العم توم » معقدة ،
ولو أنها تتضمن عدة شخصيات . ففي المنظر الافتتاحى : لكى
يسدد المستر ثلبي ، وهو صاحب عبيد خير من كنتكى ، ديونه ،
اضطر الى أن يبيع بعضا من خيرة عبيده ، ومنهم العم توم ، الى

نحاس في نيو أورليانز اسمه هيلي Haley . فاسترقت السمع فتاة نصف زنجية اسمها اليزا Eliza فعرفت ان طفلها هاري سيباع أيضا . وفي ديجور الظلام ليلا ، هربت مع ابنها وعبرت نهر أوهيو المتجمد طلبا للحرية في كندا . وكان زوجها جورج هاريس George Harris عبدا في مزرعة قريبة ، فهرب هو أيضا ولحق بها . وأخيرا ، وبعد عدة مغامرات مع قوات القبض على العبيد الهاربين التي طاردتهم ، وبمساعدة أعضاء جمعية الأصدقاء التي أسسها جورج فوكس ، وغيرهم من البيض المشفقين عليهم ، على طول الطريق ، وصلوا الى كندا ، ثم بعد ذلك الى أفريقيا .

أما العم توم فكان سييء الحظ ، اذ رفض الهروب . لئلا يربك سيده ، وفصل عن زوجته وأولاده . وأبان الرحلة في نهر المسيسيبي الى نيو أورليانز ، انقلد توم حياة الصغيرة ايفا Eva ولكي يعبر أبوها سانت كلير St. Claire من شكره لتوم ، اشتراه من النحاس . . كانت السنتان التاليتان مدة سعادة لتوم كخادم في بيت سانت كلير المنيق في نيو أورليانز مع الطفلة القديسة ايفا ورفيقها الزنجي الصغير توبسي Topsy . ثم ماتت ايفا ، وفي ذكراها ، اعتزم سانت كلير أن يعتق توم وزملاءه العبيد الآخرين ، ولكن سانت كلير قتل فجأة وهو يحاول أن يفرق بين اثنين من المتشاجرين ، فأمرت زوجته بارسال توم الى سوق الرقيق ليباع بالزاد العلني ، فاشتراه مزارع متوحش سكير من منطقة النهر الأحمر اسمه سيمون لجرى . وعلى الرغم من سلوك توم المسالم وبدله كل جهد لأرضاء سيده القاسي ، فان لجرى سرعان ما بدأ يمقت توم ، وكان يسيوطه كثيرا . وحدث ان اعتزمت اثنتان من الاماء كاسي Cassy واملين Emmeline الهرب من المزرعة والاختباء في مكان ما . فاتهم لجرى توم بمساعدتهما واشتبه في أنه يعرف أين تختبئان . وعندما رفض

توم الافضاء بأية معلومات ، ظل لجرى بسوطه حتى فقد وعيه . وبعد ذلك بيومين ، جاء جورج شلبى الصغير ابن صاحب نوم السابق ليشتريه ويستعيده ولكن بعد فوات الأوان ، اذ مات توم متأثرا بجراح ضربه الوحشى القاتل . فما كان من جورج الا ان ضرب لجرى فطرحة أرضا ، ثم عاد الى كنتيكي فاعتق جميع العبيد باسم العم توم ، واعتزم تكريس بقية حياته لقضية الفاء الرق .

رغم ان توزيع صحيفة « العصر القومى » لم يكن ضخما . فقد حظى كتاب « كابينة العم توم » باقبال حماسى فى خلال بضعة أشهر . وقبل ظهور الباب الأخير اخرج وليد أفكار مسز مستو من المطبعة فى صورة كتاب . تعهدت مؤسسة جون ب . جيويت John P. Jewett فى بوسطون بهذا العمل فى خوف عظيم بسبب طوله ، من جهة ، وكون مؤلفته امرأة ، من جهة اخرى ، وعدم شعبية موضوعه . ولكى يحتاط جيويت ضد أى خسارة مالية ، عرض على مسز ستو ٥٠٪ من الأرباح نظير أن تدفع نصف تكاليف الانتاج . ولكن ، بدلا من ذلك ، اختارت أسرة ستو أن تحصل على ١٠٪ من ثمن النسخ المبعة — فأضاع عليهم هذا القرار ثروة .

لم يكن كل من الناشر والمؤلفة متفائلا من نجاح « كابينة العم توم » . فعبرت مسز ستو عن أملها فى أن يأتيا ذلك الكتاب بما يكفى لشراء ثوب جديد من الحرير . كانت الطبعة الاصلية ٥٠٠٠ نسخة من جزئين ، وقد رسم على وجه الغلاف صورة كوخ زنجى .

بيعت ٣٠٠٠ نسخة فى اليوم الاول للنشر ، وبيع الباقى كله فى اليوم التالى ، بينما تدفقت الطلبات . وفى خلال اسبوع بيعت ١٠٠٠٠ نسخة ، وفى نهاية السنة الاولى كانت المبيعات ٣٠٠٠٠٠ نسخة فى الولايات المتحدة وحدها . كانت ثمانى آلات طباعة آلية

تعمل ليل نهار لسد المطلوب ، وتحاول ثلاثة مصانع للورق توريد الورق اللازم . ورغم هذا ، كان الناشر لا يزال فى حاجة الى ألوف من النسخ لسد الطلبات . « ويبدو أن كل شخص يعرف القراءة والكتابة فى الدولة قد قرأ هذا الكتاب .

كانت شهرة « كابينة العم توم » فى الخارج تزيد على المبيعات فى الولايات المتحدة نفسها . أرسل موظف صغير لدى بوتنام Putnam نسخة الى ناشر انجليزى ، فنال خمسة جنيهات نظير أتعابه . فظهرت عدة طبعات مسروقة ، اذ لم تكن هناك حماية دولية. لحق التأليف . وسرعان ما كانت هناك ثمانى عشرة مؤسسة انجليزية تمد السوق بالنسخ المطلوبة بأربعين طبعة مختلفة . وقدر أنه فى خلال سنة بيع مليون ونصف مليون نسخة فى بريطانيا العظمى والمستعمرات . ولم تحصل مسرستو على أى شىء من ثمن كل هذه المبيعات وفى الوقت نفسه ، كان الناشرون الأوروبيون مشغولين بجنى ثمار ذلك المحصول الذهبى . فقد ترجم هذه الكتاب الى اثنتين وعشرين لغة على الأقل ، ولقى النجاح فى فرنسا وألمانيا والسويد وهولندا والدول الأخرى بمثل النجاح الذى لقيه فى الدول المتكلمة بالانجليزية .

وزيادة على ذلك ، حولت هذه الرواية الى مسرحية وصارت واحدة من أشهر المسرحيات التى مثلت فى المسارح الأمريكية ، وظهر منها عدد لا يحصى من الطبعات قام بها جماعات مسرحية عديدة طافت حول العالم خلال القرن الماضى . ومرة أخرى ، لم تكسب مسرستو شيئاً مالياً ، اذ أن قانون حقوق الطبع والنشر والتأليف الذى كان سائداً فى سنة ١٨٥٢ لم يعطها اشرافاً على تحويل روايتها الى مسرحية . وعلى أية حال ، لم تستحسن مسرستو تحويلها الى مسرحية ، ورفضت أن تطلب تصريحاً بتحويل كتابها الى مسرحية .

وبالجملة ، فإن ما أحرزه كتاب « كابينة العم توم » من شهرة وربح ، لم يحرزه أى كتاب آخر فى تاريخ النشر ، فيما عدا التوراة الذى ضرب الرقم القياسى فى المبيعات . صار هذا الكتاب ملكا للملايين فى شتى صوره : الخيالية والمرحبة والشعرية والموسيقية ، كما طاف حول الكرة الأرضية .

كان تأثير كتاب « كابينة العم توم » على الرأى والعواطف المعاصرة هائلا مثل ضخامة مبيعاته . وفيما بعد وصف ابن مسز ستو وحفيدها اقبال الناس ، بقولهما : « كان مثل اشغال حريق ضخم ، عمل على تألق السماء كلها بطوفان العواطف الجارف الذى اكتسح أمامه كل شئ وعبر المحيط الشاسع نفسه ، حتى بدا أن العالم كله قلما كان يفكر فى شئ او يتحدث عن شئ سواه » .

بيد أنه جاءت من الجنوب عاصفة هوجاء من الغضب والانكار والقدح ، انصبت على مؤلفة « كابينة العم توم » . وسرعان ما وضع اسمها بين قوسين مع أمير الشرور . وامتلات أعمدة فى الصحف من النقد المفصل بقصد اظهار أخطاء ومغالطات تصوير مسز ستو للرق . ومن التعليقات النموذجية ، تقرير صحيفة « الرسول الأدبى الجنوبى » القائل بأن ذلك الكتاب « بغاء اجرامى لوظائف الخيال السامية » ، وأن مسز ستو ، اذ اقترفت اثما بتأليفه ، « قد وضعت نفسها خارج نطاق العلاج الطيب على يدى النقد الجنوبى » . وتسلمت مسز ستو شخصيا ، الوفا من الخطابات الغاضبة وخطابات السباب . . وفى البداية ، انتشر توزيع كتاب « كابينة العم توم » فى الجنوب بحرية ، غير أنه بعد رد الفعل العنيف المرير ، صار مجرد حوزة نسخة من هذا الكتاب ، خطرا أى خطر .

ومن قبيل التهكم ، كانت مسز ستو تأمل وتؤمن بأن روايتها

« كابينة العم توم » قد تكون وسيلة لحل نزاع الرق الذى طال أمده . وبعد أن قرأ أحد الأصدقاء الجنوبيين هذا الكتاب ، كتب اليها يقول : « سيكون كتابك مصلحا عظيما يوحد بين الشمال والجنوب » . . حاولت مسز ستو فى كتاب « كابينة العم توم » أن تقدم فى عدل طرفى النزاع فى جدال الرق - التصورى والدينى من ناحية ، والقاسى المتشائم من جهة أخرى . صور اثنان من أصحاب العبيد فى ذلك الكتاب ، هما المستر شلبى وأوجستين سانت كلير ، وهما أخوان من الجنوب عظيمي الفضل . وربما كانت ايفا الصغيرة ، ابنة سانت كلير أكثر الاطفال ملائكية فى الأدب كله . أما ألوغد الأعظم سيمون لجرى فهو رجل ملحد من ولاية فيرمونت Vermont . كما يتحدث كثير من كوميدية الكتاب عن شخصيتين أخريين من نيو انجلاند هما مس أوفيليا Miss Ophelia وماركس Marks . وقد أبانت مسز ستو بوضوح أن أهالى الشمال ينقصهم الوعي الكافى بصفة قاطعة عن الزواج ، ومع ذلك ، فقد يعطفون عليهم فى شىء من الغموض .

بيد أن هذه الاعترافات لم تكن كافية لأرضاء استياء الجنوب . فقد توالى الهجمات العنيفة من كل جانب واتهمت مسز ستو بتشويه الحقائق . مثال ذلك : أشير الى أن قوانين الجنوب صارمة وملزمة إزاء قتل العبيد مثلما هى صارمة إزاء قتل البيض ، وتحرم اللوائح عادة فصل الاطفال ، الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، عن أمهاتهم . هذا ، والعبيد كممتلكات بالغو القيمة فلا يجب اساءة معاملتهم اساءة خطيرة .

أما فى الشمال ، فاستقبل كتاب « كابينة العم توم » استقبالا مختلطا : فحتى البعض ، الذين يمتقنون الرق ، يتهمون هذا الكتاب لخوفهم من أن يثير حربا أهلية . كما ذم أهلى الشمال

المستثمرون أموالا فى أعمال قطن الجنوب خشية أن يعرض استثماراتهم للخطر . وعبرت صحيفة التجارة النيويوركية عن وجهة نظرهم هذه فى نشرة معادية تتساءل عن مدى صدق مسز ستو . ومع ذلك ، فعموما ، تقبل القراء الشماليون « كابينة العم توم » على أنه اتهام حق لنظام الرقيق . ولما لم يعمل شئ غير ذلك ، تحرك الضمير القومى والفرائز الانسانية فاثارت هذه القصة وأصابت نفقات عباراتها الدينية القوية هدفها من أن الرق يتناول أرواحا بشرية .

ومن الآثار المباشرة لكابينة العم توم ، استحالة التصديق على قانون العبيد الهاريين . فكان عدم التعاون مع القانون اجماعيا خارج الجنوب . والأشد من ذلك ، أن ذلك الكتاب ألهم مجموعة ضخمة من العاطفة ضد الرق، وربما جعل من المحتم نشوب حرب أهلية وبالتأكيد ، كان هذا الكتاب السبب الاكبر فى ذلك الالتحام المنتهى بكارثة ، كما أدرك ابراهام لنكولن Abraham Lincoln وهو يصافح مسز ستو عندما زارت البيت الأبيض فى سنة ١٨٦٢ ، وقال عنها انها « السيدة الصغيرة التى كتبت ذلك الكتاب المسبب لهذه الحرب الكبيرة . » وأبدى تشارلز سمير Charles Sumner ملاحظته بأنه « اذا لم يؤلف كتاب « كابينة العم توم » ، فما كان لابراهيم لنكولن أن ينتخب رئيسا للولايات المتحدة » .

أما القيمة الأدبية لكابينة العم توم ، فلم تلق الا اهتماما سطحيا فى بادئ الأمر ، رغم أن النقاد جميعا ناقشوها فيما بعد . ولاحظ المؤرخ جيمس نوردرودز James Ford Rhodes أن « الأسلوب عادى ، واللغة ، فى أغلب الاحوال ، مبتذلة وغير أنيقة ، وتقلب أحيانا الى اللغة العامية ، والدعاية مثكلفة » . وناقش أحد النقاد الجنوبيين وهو ستارك ينج Stark Young

استخدام مسز ستو للهجة الزوج ، فيقول : « رات كثيرا من السود ، ولكنها لم تجعلهم يتكلمون . اذننا مستحيلة ، ليس لديها احساس بوقع لغتهم أو حيويتها. » ويشير فان ويك بروكس Van Wyck Brooks الى « عيوب الكتاب الواضحة من حيث التركيب والعاطفية . » ورغم هذا ، يصفه بأنه « وثيقة انسانية عظيمة » . وتعتقد معلقة حديثة أخرى ، هي كاثارين أنثوني Katharine Anthony ان « كابينه العم توم قصة وصورة للأخلاق الامريكية . . وتستحق التقدير السامى بغير ماريب . ومن الجلى أن مسز ستو مولعة بالجَنوب . فبينما هي تمقته لأنه في جانب الرق ، براها تصور جوه بحرارة وعطف . كانت طليعة الكتاب الأمريكيين في تناول مسألة الزوج بجدية ، وتتخيل قصة بطلها رجل اسود . ورغم انها كتبت لغرض أخلاقى ، فقد نسيت المؤلفه الغرض الأصلى أحيانا في متعة انسياقها في سرد قصتها . » اما من حيث الوجهة التاريخية فبالطبع لهذه الرواية أهمية عظيمة كوثيقة اجتماعية أكثر منها عمل فنى أدبى أو كلاسيكى . وبالتأكيد هي أكثر من مجرد قصة ، كما وصفها قلم «كاو» فيقول انها : «مفعمة بالقتل والشهوة والحب المحرم والانتحار والتعذيب البالغ القسوة والنجاسة والسكر وشجار الحانات » .

اكسب كتاب « كابينه العم توم » مسز ستو ، قى الحال ، شهرة عالمية . ففي السنة التالية لنشر هذه الرواية قامت مسز ستو بثلاث رحلات الى الخارج ، زارت فيها إنجلترا واسكتلندة ، حيث التقى ورحب بها مئات من النبلاء وأفراد العائلة المالكة وعلية القوم ومن بينهم الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت وديكنز Dickens وجورج إليوت George Elliot وكنجزلى Kingsley ورسكين Ruskin وماكولى Macaulay وجلادستون Gladstone وفى رحلتها المظفرة هذه ، استقبلها ، بحماس بالغ ، عامة الشعب

الذين رأوا فيها بطله المساكين وفي ادنبره Edinburgh قدموا لها هدية بنسا قوميا بلغت حصيلته ألف جنيه ذهبي لمساعدتها في محاربة الرق ٠٠ لم يسبق قط أن مؤلفا أمريكيا خلق مثل هذه الاثارة البالغة ، ولا استقبل بمثل ذلك الاستقبال الحار في الجزر البريطانية .

وقد حاولت مرارا البرهنة على أن صورة الرق المرسومة في كتابها ليس فيها أية مبالغة ، ولا هي « وليدة الأكاذيب » كما اتهمها البعض بأنها كدست تلك الأكاذيب لتجعل منها مفتاحا لكابينة العم توم ، التي قالت أنها « ستضم جميع الحقائق الأصلية والوقائع والوثائق التي ستبنى عليها القصة مع بعض القصص الممتعة والمؤثرة الملائمة لقصة العم توم » . وينقسم هذا المؤلف الى أربعة أقسام تبدأ بوصف الشخصيات لتثبت أنهم أشخاص حقيقيون من الحياة الواقعية . ويشمل القسم الثاني قوانين العبيد مبينا أن اللوائح القائمة لا تحمي العبيد ، ثم يأتي سرد حياة العبيد كأفراد ، واخفاق الرأي العام في حماية العبيد ومناقشة الأثر غير الأخلاقي للرق على الأعمال الحرة في الجنوب . وأخيرا ، وجه اتهام للكنائس لموقفها المنقسم وغير الفعال حيال الرق .

كانت نشرة « المفتاح » ضعيفة ، وعيبتها الخطير أنها جمعت مادتها بعد ظهور « كابينة العم توم » ، وكان الكثير من تلك المادة مبنيًا على الشائعات . وعلى ذلك لم تحرز نجاحا مع الشعب ، ولم تضيف الا القليل من القوة لاتهام رواية « كابينة العم توم » . وكمثال للعدل الالهي ، قام الناشر الانجليزى الذى سرق « كابينة العم توم » وطبعها في انجلترا ، بطبع خمسين ألف نسخة من نشرة « المفتاح » متوقعا ضربة حظ أخرى ، ولكن هذه الأخيرة كانت سبب افلاسه .

كتبت مسز ستو بقلمها الكثير التصانيف ، مؤلفا آخر عن الرق ، هو رواية « دريد Dred » ، وهي « قصة المستنقع العظيم المشؤم » ، التي نشرت في سنة ١٨٥٦ ، وبيع منها مائة ألف نسخة في أربعة أسابيع ، رغم انها لم تصل الى شهرة « كابينة العم توم » كانت فكرة المؤلفة في « دريد » هي الأثر السيئ لنظام الرق على الرجل الأبيض - كل من المالك ، ومستأجر المراعي الأبيض الفقير . كان الخلط بين الجنسين ونتائجه السيئة على كل الأشخاص ، مسرحيا . ورواية « دريد » هذه غزيرة بتصوير البيض الفقراء ، والوعاظ المطالبين بانعاش الفقراء ، وحياة المزارع ولكن ليست بها شخصية أساسية واحدة ، مثل العم توم ، لتحظى بعطف القاريء .

أنتجت مسز ستو ، منذ ذلك الوقت حتى آخر عمرها وهو خمس وثمانون سنة ، سيلا لا ينتهى من الروايات والقصص وتواريخ الحياة والمقالات والمواضيع الدينية . ولمدة ثلاثين عاما تقريبا ، كان متوسط انتاجها كتابا واحدا في كل عام . ولكنها تركت موضوع الرق في معظم انتاجها . وفي أثناء الحرب الاهلية ، كان أهم ما أسهمت به خطابا الى نساء انجلترا تذكرهن باستجابتهن الشاملة والمحبة لكتاب « كابينة العم توم » ، والحادثة قبل ذلك بثمانية أو تسعة اعوام ، وتلومهن على تعاطفهن مع الجنوب ، وأعمالهن بعد نشوب الحرب . ونتيجة لذلك الخطاب ، عقدت اجتماعات كبيرة في الجزر البريطانية بقصد تغيير الراى الانجليزى الحاكم نحو قضية الاتحاد . وعلى هذا ، فربما لعب خطاب مسز ستو دورا هاما في منع التدخل الانجليزى ، في وقت كان يمكنه فيه تعريض الجانب الشمالى للخطر .

عند تقدير مركز هاريت بيتشر ستو في التاريخ ، قال كيرك مونرو Kirk Monroe : « انها لا تقف فقط في مقدمة

الصف الامامى بين نساء العالم ، بل وفي تشكيل مصير الشعب الامريكى ، فى فترة حرجة اشد الحرج فى تاريخهم ، كان نفوذها اقوى من نفوذ أى فرد آخر ٠٠٠ وبالطبع لايمكن لأى فرد انجاز منع الرق وحده ، ولايمكن ان يقوم به أى شخص واحد .
 وأشار مونرو وهو يستعرض العناصر التى حققت النصر النهائى ، قائلا : «ولكن اعظم هذه العناصر كلها ، وأقواها تأثيرا هو «كابينة العم توم» .

ربما كان التقدير النهائى لكتاب «كابينة العم توم» ، والذي يمكن ذكره بعد قرن ، هو ماقررتة مؤلفة أخرى اسمها كونستانس رورك Constance Rourke ، اذ قالت : « ولو أنه تهشم من فرط الهياج الذى صاحب حياته المستقبلية ، ورغم عيوبه فى بعض الامور الاساسية ، فمازال يحتفظ بصفات ترفعه فوق مركزه المعاصر كرسالة ، صفات تفند التهمة السهلة العادية ، وهى المبالغة . والواضح ان هذا الكتاب يفتقر الى الواقعية الحقيقية ، ولكن ربما كان من الواجب الان نحكم عليه بالواقعية اطلاقا . ومن الجلى أنه ينقصه الصلابة ووضوح الرؤية الخاصين بالكتابة العظيمة . ليست عاطفيته حرة قط ، ولكنها صلبة وجامدة من الناحية العقلية ومريضة وعاطفية بحسب الاختيار ، انها تجرى فى سباق لا نهاية له ، ويبدو أن الهستيريا قد خلقت هذا السباق . بيد ان القوة السليمة لتلك العاطفة انتجت اتساعات فى امتدادها ، واتزانات غير محسوبة ، ويذكر امتصاصها المتدفق بالنتيجة الضخمة للعمل ، ومجموعاتها المفككة للاقدار المتشابكة ، يذكران على الأقل بمعنى يميز شعر الملاحم . كما أنها تتصف ، قبل كل شئ . بالحركة المؤثرة نحو أهداف مجهولة على مسافات طويلة

تغدو الفكرة التي لاتقاوم للسرد الاعظم ، المذكور هنا بالعواطف العميقة ، لان المخامرة ليست حرة ابدا ، وانما تقطع دائما عند نهايتها ، او تساق الى الخطر .

وقد أكد فان ويك بروكس Van Wyck Brooks ان «كأبيئة العم توم» قد نقل من الجو الذي كتب فيه ، ورغم ذلك ، بقي صورة شعبية عظمى لعصر ولأمة » .

٧ - عراف طبقة العصامين

KARL MARX كارل ماركس

DAS KAPITAL واس المال

قال فريدريك انجلز Friedrich Engels في وراثته
لكارل ماركس : « كان ماركس ، قبل كل شيء ، ثوريا هدفه
العظيم في الحياة أن يتعاون بهذه الصورة أو تلك ، لقهر المجتمع
الراسمالي ومؤسسات الحكومة التي خلقها » . بهذه الالفاظ
لخص معاون ماركس وتلميذه وأخلص أصدقائه ، في ايجاز ، القوة
الدافعة في حياة ذلك المتمرّد الاجتماعي الشهير .

ولد ماركس في عصر كثير الشغب . كان الجو مشحونا
بالمتمرّد والقلق . كانت ذكرى الثورة الفرنسية مازالت عالقة
بالاذهان ، وثورة أخرى قريبة . وتميزت السنوات العشر التالية
بمرارة عامة واسعة النطاق ، وبالتلذذ والنقد ضد الحكومة
القائمة . وفي سنة ١٨٤٨ نمت هذه الحالة الى قوة متفجرة ،
ونشبت الثورات خلال أوروبا . وحتى في انجلترا ، قامت حركة

العمال مطالبين باشتراكهم في السياسة ، وهددت الحكومة القائمة وقتذاك . سرى الضغط في كل مكان لتخفيف حدة سوء المعاملة الناتج عن مبدأ العمال الجديد ، والغاء بقايا الاقطاع . كان الوقت مناسباً جداً ليول كارل ماركس الهدامة والمناهضة للكنيسة .

درس ماركس الصغير القانون والفلسفة في بون Bonn وبرلين بهدف الحصول على منصب أستاذ ، ولكن الباب أقفل في وجهه بسبب آرائه المتوترة والمتزايدة بأطراد ، فاتجه نحو الصحافة . تأسست صحيفة دورية جديدة اسمها Rheinische Zeitung ، في سنة ١٨٤٢ ، فصار ماركس أول مكاتب لها ، ثم مالبت أن صار رئيس تحريرها . وبسبب الهجوم المتكرر لتلك الصحيفة على حكومة بروسيا Prussia ، واتجاهها المتطرف عموماً ، أوقفت من الصدور وعمرها لايزيد على السنة الا قليلاً .

انتقل ماركس الى باريس ليدرس الاشتراكية ، ويكتب في جريدة أخرى قصيرة الاجل اسمها Franco-German Year Books فتعرف هناك على أهم ممثلي الفكر الاشتراكي والشيوعي . وأهم حادث في حياته ومستقبله هو بداية صداقته التي استمرت طول حياته مع فريدريك أنجلز وهو زميل الماني غني نسبياً، وابن صاحب مصنع للقطن ، ومن أنصار المثل الاشتراكية ، مثل ماركس نفسه . وضع أنجلز أساس كتاب ماركس « Das Kapital أي رأس المال » في سنة ١٨٤٥ مع نشر كتابه «حالة الطبقات العاملة في إنجلترا» .

وإذ استمر ماركس في إثارة الآراء ضد الحكومة البروسية ، طردته السلطات الفرنسية على أنه أجنبي غير مرغوب فيه . فلجأ الى بروكسل Brussels وبقي فيها ثلاث سنوات ثم عاد الى ألمانيا لمدة قصيرة ، ونفى ثانية فعاد الى باريس أبان

نورة ١٨٤٨ ، وفي تلك السنة ، بالاشتراك مع انجلز ، كتب ونشر كتيبه «الشيوعى البين» الشهير ، وهو احد الاعمال الادبية المتطرفة ذات الاثر القوى والبالغة العنف ، التى اخرجتها المطابع . ويختتم هذا الكتيب كلامه بصيحة تحريض على الثورة :

« يعتبر الشيوعيون انه من الامور السطحية ان يخفوا آراءهم ونواياهم . أنهم يقررون فى صراحة ان أهدافهم لا يمكن تحقيقها الا باستخدام العنف فى قلب النظام الاجتماعى المعاصر كله . فلترتجف الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية . لن يخسر العمال غير قيودهم . وامامهم العالم كله ليربحوه . اذن ، فاتحدوا يا عمال العالم ! »

ايضا ذهب ماركس ، كان بالغ النشاط ومثرا عدائيا ، ينظم حركات العمال ، ويرأس تحرير الصحف الشيوعية ، ويثير التمرد .

جعل تدهور الثورات الاوروبية ١٨٤٨ - ٤٩ الدنيا ضيقة جدا لاتسع لماركس . هاجر الى انجلترا فى صيف عام ١٨٤٩ وهو فى الحادية والثلاثين من عمره ، وقضى آخر حياته فى لندن ، وتزوج قبل ذلك جينى فون وستفالين Jenny von Westfalen ابنة موظف بروسى ، بقبت معه حوالى اربعين سنة شريكته الوفية تقاسمه فترات الفقر المدقع والحرمان وسوء الحظ لم يعيش من اولادهما الستة غير ثلاثة . ومن هؤلاء الثلاثة انتحر اثنان . ومما لاشك فيه ، ان ثلاث سنوات من الشدائد المتناهية قد لونت آراء ماركس ، وتعد مسئولة عن الحقد والمرارة فى كتابته . ولم ينقذ اسرة ماركس من الموت الحقيقى جوعا سوى المساعدات المالية ، فى كثير من المرات ، من فريدريك انجلز . وكان دخل ماركس الوحيد مما يكسبه ، جنبها واحدا فى الاسبوع يتسلمه من صحيفة نيويورك

تريبيون New York Tribune ، وبعض الأجر المتقطع من كتابة بعض الموضوعات القصيرة .

ورغم البؤس والدائنين الملحين ، والمرض والحاجة ، التي أحاطت به باستمرار في منطقة سوهو Soho القدرة ، التي أقام بها في لندن . . كان كعادته دائما ، لا يكل في تقدمه في القضايا الاشتراكية سنة بعد سنة . كان يذهب الى المتحف البريطاني لفترات تصل الى ست عشرة ساعة في اليوم ، يجمع الكميات الهائلة من المواد لؤلؤه الذي سيكون عنوانه Das Kapital أى رأس المال . ومع عدم حساب فترات التعطل عن التأليف بسبب الاعمال الأخرى والمرض استغرق إعداد هذا الكتاب أكثر من ثمانى عشرة سنة . أما أنجلز الذي كان يعول أسرة ماركس في تلك الاثناء ، فقد ينس من إكمال الكتاب ، وقال : « اليوم الذى تذهب فيه النسخة الخطية الى المطبعة ، سأسك طينة » . كما أشار اليه هو وماركس بقولهما : « ذلك الكتاب اللعين » ، واعترف ماركس بأنه « كابوس حقيقى » .

كان أعظم حادث في حياة ماركس إبان هذه السنين هو تأسيس أول جمعية دولية للعمال الرجال في سنة ١٨٦٤ ، والتي تعرف الآن باسم الدولية الأولى . انها مجهود لضم الطبقات العاملة في العالم كله معا في جمعية دولية . هذا ، ورغم أن ماركس كان متقاعدا أمام الجمهور ، فقد كان القوة المحركة وراء العرش ، وكان يكتب معظم مستندات الجمعية وعناوينها ولوائحها وبرنامجه . غير أن العراك الداخلى والمنافسة على الرئاسة والنزاع الذى وقعت فيه الجمعية بعد فشل تمرد باريس في سنة ١٨٧١ ، كل هذه أدت الى حل الجمعية . وبعد ذلك أعقبتها الجمعية الدولية الثانية ، وتمثل الجماعات الاشتراكية الغربية .

عم الجمعية الدولية الثالثة أو الكومنترن Comintern للعالم الشيوعي .

وأخيرا انتهت مدة تأليف كتاب «رأس المال» . ففي أواخر سنة ١٨٦٦ ، أرسلت النسخة الخطية للجزء الاول الى هامبورج Hamburg . وفي أوائل السنة التالية خرج الكتاب المطبوع من المطبعة باللغة الألمانية . ولم تكن هناك ترجمه انجليزية له الا بعد حوالي ثلثين سنة . وأول ترجمة الى لغة أخرى على ضوء أحداث المستقبل - كانت باللغة الروسية في سنة ١٨٧٢ .

كانت إنجلترا في عصر ماركس ، المعرض الأول لأعمال النظام الرأسمالي . وعلى ذلك أخذت الأمثلة الموضحة لنظرياته الاقتصادية ، كلها تقريبا ، من تلك المملكة . كانت الأمثلة المروعة كثيرة ، لأن تنظيم الرأسمالية في منتصف العصر الفيكتوري كان في أسوأ حال بها فكانت الأحوال الاجتماعية بين عمال المصانع سيئة بما يعجز عنه الوصف . واذ بنى ماركس أبحاثه على التقرير الرسمية لمفتشى الحكومة . فقدم الحقائق دقيقة في كتاب « رأس المال » . قامت السيدات بجر القوارب في الترع بالبحال المربوطة في اكتافهن ، طوال الطريق . وربطت السيدات الى العربات كما تربط دواب الحمل ، لنقل الفحم الى خارج المناجم البريطانية . أما الأطفال فكانوا يعملون في مصانع النسيج عندما يبلغون التاسعة أو العاشرة من العمر ، ولمدة خمس عشرة ساعة في اليوم . ولما جاءت أدوار العمل ليلا ، كانت الأسرة التي ينام فيها الأطفال دافئة دائما لا تبرد إطلاقا ، اذ كانت تستعمل بالدور . وقد أنشب السبل وغيره من أمراض الأماكن المزدحمة أطفاله فيهم وقتلهم في نسب عالية .

لم تكن الاحتجاجات على هذه الأحوال الفظيعة قاصرة على

ماركس بحال ما ، فان الكتاب الرقيقى القلوب المختصين بالأمور الانسانية امثال تشارلز ديكنز وجون رسكين وثوماس كارليل ، كتبوا كثيرا فى حماس شديد ، يطلبون الاصلاح . واثير البرلمان أخيرا الى اصدار تشريع اصلاحى .

زها ماركس كثيرا بشرحه العلمى للمسائل الاقتصادية والاجتماعية . وكما قال انجلز : « كما ان داروين اكتشف قانون التطور فى الطبيعة العضوية ، كذلك اكتشف ماركس قانون التطور فى التاريخ الانسانى . » ذكر ماركس ان الظواهر الاقتصادية « يمكن ملاحظتها وتسجيلها بالدقة الملائمة للعلوم الطبيعية . » ويشير كثيرا الى مؤلفات علماء الاحياء والكيمياء والفيزياء (الطبيعة) . ومن الجنى انه كان يأمل فى ان يصير « داروين علم الاجتماع » او ربما « نيوتن الاقتصاد » . وبالتحليل العلمى للمجتمع ، اعتقد ماركس انه اكتشف كيف يمكن تحويل العالم الرأسمالى الى عالم اجتماعى .

اسهمت طريقة ماركس « العلمية » كثيرا فى تفهم الناس له على نطاق واسع ، لأن فكرة التطور فى جميع المجالات قد جذبت خيال القرن التاسع عشر . ويربط نظريته عن التنازع التاريخى بنظرية داروين عن النشوء أو التطور ، فأضفى الوقار على آرائه ، وفى الوقت نفسه جعلها ، حسب اعتقاده ، غير قابلة للدحض .

فى رأى ماركس واتباعه ، ان أسهامه البالغ فى دراسة الاقتصاد والتاريخ وغيرهما من العلوم الاجتماعية الأخرى ، كان تقدما لمبدأ اطلق عليه « المادية الجدلية » وهو مصطلح غامض عسير الفهم ، ولو انه مشروح شرحا وافيا فى كتابات سابقة ، فان كتاب « رأس المال » يستخدم هذه النظرية بالتفصيل .

اخذ ماركس الطريقة الجدلية عن الفيلسوف الالمانى هييجل Hegel ، وتقول فى جوهرها أن كل شئ فى الدنيا فى حالة تغير

مستمر . وينحقق التقدم بتفاعل القوى المتعارضة ، كل مع الأخرى . فمثلا : بتعارض النظام الاستعماري الانجليزى مع الثورة الامريكية نتجت عن ذلك الولايات المتحدة . وكما عبر عن ذلك لاسكى Laski بقوله : « قانون الحياة هو تجارب المناقضات ، وينتج عنها النمو » .

قاد هذا التمهيد ماركس الى تكوين نظريته عن « المادية التاريخية » او «التفسير الاقتصادى للتاريخ» قال ماركس وانجلز في جدالهما : « ما تاريخ كل المجتمع الحاضر سوى تاريخ نضال الطبقات : الحر والعبد ، والنبلاء والعوام ، السيد والمسود ، رئيس المؤسسة وعامل المياومة ، وبالاختصار ، وقف الظالم والمظلوم ، كل منهما فى مواجهة الآخر ، ونشبت بينهما حرب مستمرة » .

قال انجلز وهو يقرظ ماركس :

« لقد اكتشف الحقيقة البسيطة المختبئة تحت «الأعشاب» الفكرية ، وهى ان الكائنات البشرية يجب أن تحصل على الطعام والشراب والملبس والسكن ، أولا وقبل كل شيء ، وقبل أن تجد المتعة فى السياسة والعلوم والفن والدين ، وما الى ذلك . وهذا يتضمن ان انتاج النوازم الضرورية للحياة ، وطور التقدم الاقتصادى الحالى لامة أو لحقبة من الزمان ، تكون الاساس الذى بنت عليه الحكومة نظراتها القانونية والأفكار الفنية والدينية لأولئك المختصين » .

وقصارى القول ، ان التنازع من أجل الطعام والمأوى نراع بالغ القوة ويقرر كل شيء آخر من الأمور البشرية .

وتاريخ البشرية ، تبعا لماركس ، هو أولا ، قصة استغلال طبقة لأخرى . وفى عصور ما قبل التاريخ ، كان هناك مجتمع

قبائلى أو مجتمع لا طبقي . أما فى العصور التاريخية فيقول
ماركس : « تكونت الطبقات وصارت جموع السكان البشرية ،
أولا عبيدا ثم خدما (الحالة الاقطاعية) ثم عبيدا بالأجر لا يمتلكون
شيئا (العصر الرأسمالى) » . وبتطبيق نظرية « المادية الجدلية » ،
اقتنع ماركس أن الخطوة الحتمية بعد ذلك هى تمرد العمال
و « دكتاتورية الطبقة العصامية » يتبعه الملكية الشيوعية والعودة
الى نظام المجتمع اللاتبقى .

طور ماركس ، فى كتابه « رأس المال » قضيته ضد النظام
الرأسمالى ، ليبرهن ، فى تقديره ، على أن هلاكه أخيرا واختفاء
أمران لا مفر منهما . وهنا كون مايعتبره الشيوعيون عموما اسهامه
الثانى البالغ الأهمية فى العلوم الاجتماعية ، وهى نظرية قيمة
العمل . كذلك لم تكن هذه أصلا نظرية من تفكير ماركس . فاذ
سار على نهج علماء الاقتصاد الأكبر منه سنا ، وهما آدم سميث
ودافيد ريكاردو ، أكد أن العمل مصدر كل القيم . وذكر ماركس
فقرة من بنسامين فرانكلين ، الذى لاحظ ، منذ قرن مضى أن
« التجارة ليست الا مبادلة عمل بعمل . وتقاس قيمة كل شيء
بالعمل . » وأخذ عن سميث تعريف رأس المال بأنه « كمية معينة
من العمل مكتلة ومحفوظة فى صورة احتياطي » كما أن ريكاردو
اقترح أن ثمن أية سلعة وقيمتها يجب أن يقدر بكمية العمل
الداخلية فيها .

اتخذ ماركس هذه الأقوال كمقاييس بنى عليها نظريته عن
« قيمة الفائض » . فذكرها أولا فى مقاله «نقد الاقتصاد السياسى»
(سنة ١٨٥٩) ، ثم نقحها وذكر الصورة المنقحة فى كتابه « رأس
المال » . ولما كان العامل لا يملك شيئا ، فليس لديه غير سلعة
واحدة ليبيعها - وهى عمله . ولكى يتحاشى الموت جوعا ، يجب
عليه أن يبيعها . وتبعا للنظام الاقتصادى السائد، يشتري صاحب

العمل هذه السلعة بأقل ثمن ممكن . اذا ، فالقيمة الفعلية للعمل تزيد كثيرا على الأجر المدفوع . فالعامل الذى يدفع له صاحب العمل أربعة شلنات فى اليوم ، يكسب هذا المبلغ فعلا فى ست ساعات ، ولكن يطلب منه أن يعمل عشر ساعات ، إذن فصاحب رأس المال يسرق من العامل تلك الساعات الأربع الزائدة . وإذا فسر الأمر على هذا النحو ، فإن الأرباح ، وفوائد المبالغ والاوراق المالية ، وإيثار المساكن ونحوها ، مشتقة كلها من قيمة كد العمل الزائد المسروق من العمال . إذن ، يمكن أن نستنتج منطقيا أن نظام صاحب رأس المال ليس سوى طريقة شريرة وضعت لاستغلال طبقة العمال وسرقتهم .

ولو أن نظريات ماركس عن القيمة وقيمة الفائض كانت قيمة لأغراض الدعاية والتحريض على الثورة ، فإن علماء الاقتصاد عموما يعتبرونها الآن غير صحيحة وعديمة الأهمية . ومن العوامل التى جعلتهم يبتدونها ، ازدياد استخدام الآلات التى تنتج أنواعا كثيرة جدا من كميات العمل المطلوب لمختلف السلع . وقال فريهوف Freehof ، « يكتشف الكيميائى اكتشافا واحدا عن خصوبة التربة ، فيضاعف مائة مرة إنتاج عشرة ملايين من العمال الزراعيين . اذا ، فالكيميائى هو الذى خلق قوة الإنتاج . » وقال ناقد آخر فى دحض هذه النظرية : « يفوص الناس من أجل الآلىء لأنها عظيمة القيمة . وليست الآلىء ذات قيمة عالية لأن الناس يفوصون من أجلها . » لم يعلن ماركس أن العلم أو التكنولوجيا أو الفن أو التنظيم ، يضيف شيئا الى القيم والأسعار .

والواقع ان علماء الاقتصاد لم يتفقوا أبدا على طريقة لقياس القيمة رغم قرنين من التفكير والكتابة عن هذا الموضوع . وبدو أن الطلب والمنفعة هما المعايير الأكثر قبولا على نطاق واسع .

وكما علق بارزون Barzun : « حطم علم الاقتصاد الحديث نظرية ماركس ، ولكنه لم يقدم نظرية علمية لتحل محلها » .

اما نظرية ماركس عن قيمة الفائض فقادته الى الخطوة التالية في فرضه . فلكي يقابل كل رأسمالى المنافسة الوحشية ، يحاول استخراج مزيد من القيمة الفائضة بطرق شتى ، مثل : اطالة ساعات العمل ، أو تخفيض الأجور أو استخدام طريقة المد « Stretch out » . ويستخدم مزيدا ومزيدا من الآلات لتقلل العمل وتسرع الإنتاج . وباستخدام الآلات التى تحتاج فى ادارتها ، الى قوة بدنية أقل . ويمكن استبدال الرجال بعمل النساء والأطفال الأرخص أجرا . ويصف ماركس نتيجة ذلك ، هكذا :

انهم يشوهون العمل الى جزء من رجل ، وينزلونه الى مستوى قطعة زائدة بالآلة ، ويحطمون كل بقية من الجمال الى عمله ويحولونه الى كد مقيت . ويبعدون عنه القوى العقلية لعملية العمل بنفس نسبة وجود العلم فى ذلك العمل كقوة مستقلة . ويشوهون الظروف التى يعمل فيها ويعرضونه أثناء عملية العمل الى استبداد مقيت جدا لوضاعته ، ويحولون عمره الى وقت عمل ، ويجرون زوجته وطفله تحت عجالات تمثال رأس المال .

وهكذا يلج ماركس بأن استخدام الآلات لاسراع الانتاج وزيادته ، لا يفشل فقط فى تسهيل حظ العامل ، ولكن له آثارا ضارة ، مثل خلق البطالة ، وزيادة انتاج السلع على القدر المطلوب ، وقتل لذة العامل فى عمله ، ويستطرد ماركس قائلا :

« الآلات امضى سلاح لقمع الاضرابات التى هى التمرد الدورى للطبقة العاملة ضد السلطة المطلقة لرأس المال . كانت الآلة البخارية ، منذ البداية ، خصما مكن الرأسمالى من أن يطا تحت قدميه المطالب المتزايدة للعمال الذين هددوا نظام المصانع

المولود حديثا ، بأزمة . من الممكن كتابة تاريخ بأكمله عن المخترعات التي ظهرت منذ عام ١٨٣٠ لغرض وحيد هو تزويد رأس المال بسلاح ضد تمردات طبقة العمال . »

وبتحريف، نظرية المثلوس تحريفاً معيناً ، يقول ماركس ان زيادة عدد السكان يتبع دائماً طريق الرأسمالية . يحتاج هذا النظام الى « جيش صناعي احتياطي » لعصور امتداد الانتاج الضخم عند خلق صناعات جديدة أو احياء صناعات قديمة . وفي طبيعة الأشياء ، يجب على قوة العمل الفائض ان تتحمل مددا طويلة من البطالة بعد ذلك تظهر أعظم لعنة للرأسمالية : الكساد واللعن . فيما أن العمال يتقاضون أجورا لا تكاد تفي بما يسد الرمق ، فلا يستطيعون شراء جميع ما تنتجه المصانع ، فتكتظ الأسواق بالبضائع ، وتقل قوة العمل ، ويتبع ذلك كساد عنيف .

ولكى يبحث الرأسمالي عن مخارج للبضائع الكثيرة المكسدة في مخازنه ، يتجه الى المجالات الأجنبية فيحاول ايجاد اسواق في الدول المتخلفة في الخارج ليشحن اليها السلع التي لا يستطيع عماله شراؤها . وهذه المحاولة والبحث عن المواد الخام التي تمكن مصانعه من الاستمرار في العمل بغير انقطاع، تؤدي الى الالتجاءات الدولية والحروب الاستعمارية .

اعتقد ماركس ان النتيجة النهائية لنضال الرأسمالي وشعبه هي زيادة التركيز والاحتكار، لأن «أحد الرأسماليين يقتل الكثيرين دائما . » تختفي الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين صغارهم . وأخيرا تبقى حفنة من كبار الرأسماليين تواجه جموع العصاميين . وعندما يأتي ذلك الوقت، يجد العصاميون فرصتهم، وتصف إحدى فقرات كتاب «رأس المال» الأكثر حيوية والجديرة بالتذكر ، الخطوات المؤدية الى حل المشكلة :

« بينما هناك انكماش مستمر في عدد النبلاء الراسماليين ، فانه يقابله ازدياد في عدد الفقراء وفي الظلم والاستعباد والانحلال والاستغلال . غير انه ، في الوقت ذاته ، تزداد باطراد حدة غضب طبقة العمال ، تلك الطبقة التي يزداد عددها ، وهى مطيعة ومتحدة ومنظمة بنفس ميكانيكية طريقة الراسمالى للانتاج . وان احتكار الراسماليين ليفقدوا قيدا يغل طريقة الانتاج التي ازدهرت به وحته . هذا ، وتصل مركزية وسائل الانتاج واشترائية العمل ، الى نقطة تبرهنان عندها على عدم ملاءمتهما لبقاء الراسمالية . ينفجر هذا ، ويدق ناقوس موت ممتلكات الراسمالى الخاصة ، اذ أن المالكين السابقين صاروا مملوكين سابقين .

ينتهى صراع الطبقات بانتصار العصاميين .

لما استولى العصاميون على الحكومة ، نبثوا دكتاتوريتهم . ومع ذلك ، فقد نبأ ماركس بأن هذه المرحلة « لبست الافرة انتقال الى الفاء جميع الطبقات ، وخلق مجتمع من الأحرار المتساوين . » لم يحدد الوقت اللازم لاستمرار الدكتاتورية - وهذه نقطة اعتبار ممتعة في نظر الثمانى والثلاثين سنة في روسيا السوفيتية التي ظلت في القبضة الحديدية لنظام سلطة لا تبدى أية علامة على ارخاء تلك القبضة . والحقيقة ان ماركس غامض تماما في وصف طبيعة مجتمع طبقاته . وبعد أن تقوم الدولة بدورها في التعليم والتنظيم ، ستبدل الحكومة ، ولن يكون هناك أية قوة أو اتصال وسيسود السلام والرخاء لكل فرد . وسيكون الهدف الرئيسى للمجتمع هو : « التطور الكامل الحر لكل فرد . » وسيكون المبدأ الرشده هو ، « لكل شخص حسب قدرته ، ولكل فرد حسب حاجاته » .

علق كثير من النقاد على تناقض هذا الحلم الخيالى الجميل ، ذلك التناقض البراق وغير المطابق للحقيقة السابقة ، حقبة حرب

الطبقات الدموية والوحشية . وعلى أية حال ، فكما كتب هاليت
Hallett

ان « المجتمع اللاطبقي » لماركس ، مجتمع غامض غموض
سماء الفكتوريين الارثوذكس ، ويوحى بقليل من الثقة وقليل من
الحماس . فما ان تطرد الثورة العالمية الى الخلف ، حتى يكون من
الصعب ان تجد شيئا في عظام الماركسية الجافة ، يثير حماس
الناس او يسوقهم الى قوة احتمال جديدة ، أو محاولات جديدة .

ورغم هذا ، فالماركسية لها قوة الدين لملايين الشيوعيين
المنصرين للشيوعية . أما المادية الجدلية فيمكن ان تكون عقيدة
تفوق كل العقائد الأخرى . ويقول ماركس ان الديانات القديمة مثل
المسيحية ، تعلم ايماننا ايجابيا بنصيب الانسان المقسوم له في
الحياة ، كما تمجد الاذعان والوداعة والهوان . اذن فهي تعمل
« كافيون الناس » تعمى العصاميين وتقودهم الى حتفهم ، وتضع
عقبات ضخمة في طريق الثورة .

الى أي حد يصدق ماركس ؟ هذا سؤال شغل الكثير من
العلماء الاجتماعيين واللاهوتيين وغيرهم من الكتاب والمفكرين طوال
القرن الماضي . ففي كثير من الأساسيات ، أظهر الزمن أخطاء
جوهرية في نظرياته وتكهناته ، وما عاد أي عالم اقتصادي غير
ماركسي يأخذ ، بعين الجسد ، نظرياته عن العمل فيما يختص
بالقيمة وقيمة الفائض ، وهذه نقطة أساسية في الفكر الماركسي .
ولم يحدث ، في أية دولة ، نزاع بين الطبقات أدى الى ثورة
العصاميين ، كما تنبأ ماركس . وأكد أحد أتباع ماركس
المشهورين ، وهو سيدني هوك Sidney Hook ، ان هذا
المذهب أيضا ، أساسي للعقيدة الشيوعية ، لأنه كتب يقول :

« اذا أمكن اعتبار حقائق نزاع الطبقات بنجاح ، فان جميع
الهيكل النظري لماركس يتهدم ويسقط أرضا . »

اتبع النظام الرأسمالى طريقا مخالفا تماما ، على الاقل ، نى
الأمم الأقل استنارة ، لما تنبأ به ماركس . فبدلا من البؤس والفقر
والآلام بين طبقة العمال ، حدث العكس تماما . فامت اتحادات
عمل قوية ، وأنظمة حكومية ، لتوقف فائض المنافسات الرأسمالية
ومنافسات المشاريع . ورغم احتقار ماركس « لعلماء الاقتصاد
والخيرين ، ومن يعطفون على الانسانية ، ومن يعملون على تحسين
أحوال طبقة العمال ، ومنظمى الصدقات ، وأعضاء جمعية الرفق
بالحيوان ، والمتعصبين للاعتدال ، والمصلحين الباحثين من كل
نوع يطرا على المخيلة . » نجح أمثال هؤلاء الناس فى تخفيف أسوأ
شورر الرأسمالية وجعلوا النظام يسير بسهولة معقولة يمكن أن
تتوقعها فى أية لحظة مؤسسة بالغة التعقيد من صنع الانسان .
وكما علق تفرير حديث فى القرن العشرين كتبه فند Fund
« من بين جميع الأمم الصناعية العظمى ، ان الأمة التى تشبثت
بالرأسمالية الخاصة ، جاءت أقرب الى الهدف الاشتراكى الذى
يوفر الرخاء للجميع فى مجتمع لا طبقى ، وهذا مستوى من
الرفاهية المادية فوق ما تدركه الغالبية العظمى لسكان العالم » .

علق ماركس آمالا قوية على اضعاف الروابط القومية بين
العصاميين بقصد ان بعد لهم احساسا بالتضامن الدولى بين
العمال فى كل مكان . وقد ثبت فشل الحصول على هذا الهدف
المرغوب فى حربين عالميتين ، وبواسطة الحماس القومى المتمثل فى
منظر العالم الحالى - ليس أكثر وضوحا مما هو فى روسيا والصين
وغيرهما من البلاد الشيوعية . وتبعاً لحكم ماركس ، تحدث ثورة
العصاميين أولاً فى الأمم الأكثر تحولا الى صناعية ، مثل انجلترا
والمانيا والولايات المتحدة بينما روسيا اقل نضجا للتمرد - وهذا
تكهن آخر لم تتمخض عنه الأحداث التالية .

أثرت الطريقة الجدلية التى استخدمها ماركس تأثيرا بالغ

القوة على المؤرخين اللاحقين ، ولو انه كما علق وليم هنرى
تشمبرلين William Henry Chamberlin بقوله :

« تفشل طريقة المادية التاريخية لماركس في ان تكون السبب
في الاختلافات الواضحة بين الناس الموجودين في نفس مستوى
النمو الاقتصادي . أهمل ماركس في حساب بعض العوامل
الحيوية مثل : الجنس والدين والجنسية . لم يحسب الأهمية
العظمى للشخصية البشرية . ومن المشكوك فيه ما اذا كان يمكن
تفسير حادث تاريخي واحد تفسيراً صحيحاً بمصطلحات هذه
النظرية » .

ومع ذلك ، فبينما ندرس المفالطات في أفكار ماركس ،
نجد من الصعب التغلب على تأثيره في عصرنا . وقد كان تأثيره
على العالم الرأسمالي مفيداً ، في نواح معينة هامة . فيتأكد
عيوب النظام الصناعي ، وبخداع خطر ثورة العمال ، حدثت
اصلاحات أساسية . وبالاختصار اجبر تكرار الشيوعيين
والاشتراكيين المستمر لعيوب الرأسمالية ، على تصحيح كثير من
تلك الشرور . وبذا قلل كثيراً ، ان لم يمنع تماماً ، إمكان تمرد
العصاميين الذي تنبأ به ماركس .

أما غزو الماركسية لروسيا والصين وغيرها من المناطق
الواسعة الأخرى ، جارفة في طريقها حوالى تسعمائة مليون
شخص ، فكان هو المشكلة الأكثر إلحاحاً في العالم الحديث .
ومن قبيل التهكم : كان ماركس يضمّر احتقاراً بالفا للروس
عموماً ، وللثوريين خصوصاً . فان استنتاجاته فيما يختص
بالحكم القيصري في عصره ، لتليق بروسيا الشيوعية : « سياسة
روسيا لا تتغير . قد تتغير طرقها وتكتيكها ومناوراتها ، ولكن
النجم القبطى لسياستها (سيادة العالم) نجم ثابت » .

الواقع الآن ، ان روسيا تنفذ القليل من آراء ماركس ومثله عن الشيوعية . وكما لاحظ الرئيس ترومان Truman في عام ١٩٥٠ ، ليست روسيا دولة شيوعية ، ولم يكن ستالين Stalin شيوعيا احمر . فمثلا هناك دكتاتورية في الحزب الشيوعي ، أو بالحرى ، سلطة كهنوتية ، أكثر منها دكتاتورية حقيقية للعصامين .

يقول ماركس ، سرعان ما « ستبدل » الحالة السياسية ، ولكنها ازدادت قوة أكثر فأكثر بمرور الزمن . فابتداء من لنين Lenin ، وجد القادة الشيوعيون ان الوعظ بمبادئ ماركس اسهل من ممارستها . فبينما هم دائبون على ذكر الفلسفة الماركسية شفويا ، عدلوا العقيدة التي ورثوها عن ماركس تبعا لمتطلبات الأحوال السياسية والوسائل الملائمة . واذا رأى ماركس نشاط أتباعه ، قال ذات مرة : «لست ماركسيا» ويبدو من المحتمل انه ربما خالجه شك في استخدام نظرياته في منتصف القرن العشرين . ومن الأمثال الاشتراكية المحبوبة : « لو عاش ماركس أثناء حكم ستالين لما عاش طويلا » .

لم ينشر في حياة ماركس سوى الجزء الأول من « انجيل الطبقات العاملة » ، فبعد موته في سنة ١٨٨٣ اخذ انجلز مذكرته الخطية غير الكاملة وغير المرتبة بنظام ، للجزءين الثاني والثالث . فظهر الجزء الثاني في سنة ١٨٨٥ والثالث في عام ١٨٩٤ قبل موت انجلز بعام واحد . ويضمن تنقيحات واستعمالات للنظريات الأساسية الخاصة « بتداول رأس المال » و « عملية الانتاج الرأسمالى ككل » . وتتركز شهرة ماركس على الجزء الاول اما الجزءان الآخران فلم يقرأ الا قليلا . ورغم هذا فان مؤلفا آخر عن « نظرية قيمة الفائض » التي كانت مخصصة للجزء الرابع من كتاب « رأس المال » تعهد به كارل كاوتسكى

Karl Kautsky ، من مخطوطات ماركس ، ونشر في المانيا
(١٩٠٥ - ١٩١٠) .

حقيقة ، ان كتاب « رأس المال » صعب القراءة ، ويصفه الناقد بارزون بأنه « ردىء التأليف وسيء الترتيب ويفقر الى النظام والمنطق وتناسق المواد » . ويقول ناقد آخر (كروس Croce) انه لاحظ « التأليف الغريب لهذا الكتاب والخلط في النظرية العامة ، والجدل والتهكم المرييين والصور التاريخية أو الانحرافات » . ويعتبر هذا المؤلف غير متمثل وسيء الترتيب ومعدوم التناسب . « بينما يقرر ناقد ثالث (ستاندين Standen) ان « خطة الأجزاء الثلاثة رائعة على نطاق واسع » ، نراه يقول « طريقة تقديم كتاب رأس المال ممله في انحرافاته المطولة ، وبطئه المتعب » .

ومن المشكوك فيه وجود شخص في التاريخ أوحى بآراء أكثر تناقضا عنيفا من كارل ماركس . فمن الناحية العلمية ، ليس به عرض وسط بين الرأي الذى يجعله « يهوديا أوحى اليه الشيطان فخطط لسقوط الحضارة » وبين صورته المضادة تماما « كقديس محبوب انكر ذاته وكرس نفسه لطبقة العالم غير الموروثة في القرن التاسع عشر » . وبدأ ناقد لاذع حديثه بقوله : « باسم التقدم الانسانى ، أقرر أن ماركس قد سبب موتا وبؤسا وتدهورا ويأسا أكثر مما سببه أى شخص آخر عاش على ظهر البسيطة »

إذا ، فما هو السر في نفوذه وقوته على الملايين من سكان الأرض ، وانجذابهم اليه ؟ واقتراح نيل Neill أن ماركس هو القائد الرمزي لمن لا يملكون شيئا في نضالهم ضد من يملكون ويعتقد بارزون أن « قوة ماركس هي بالضبط في أنه شارك المبتونين مشاعرهم . وان تعصب المساواة ليكن في أعماق كبده ، يرتبط به الطموح والغيرة من السلطة وكلاهما على

استعداد لتحطيم النظام الأخلاقي الحاضر باسم نظام أسـمى
 يراه هو . « ويأتى تفسير آخر من هارولد لاسكى : « العاطفة
 الرئيسية الكامنة فى اعماق نفسه ، والتي تحركه ، هى شغفه
 بالعدالة . ربما يكون قد مقت بشدة ، ولكنه كان غيورا وكان
 فخورا . ولكن المحرك الرئيسى لحياته هو أن يرفع عن كواهل
 الناس ذلك العبء الذى ظلمهم . » ويأتى تقدير تفهمى آخر
 من فريهوف ، إذ كتب يقول : « أن هدية كارل ماركس الانشائية
 العظمى الى المجتمع الحديث، سواء أكان اشتراكيا أو رأسماليا،
 على حد سواء ، هى صورة ضرورة وجود مجتمع ينعدم فيه الفقر
 والمعاناة . صار هذا المثل الأعلى تحديا لكل نظام اجتماعى . وحتى
 أى نظام اجتماعى، مثل نظامنا، الذى ينبذ نظرياته الاقتصادية ،
 لابد أن يقبل ذلك المثل الأعلى بطريقته الخاصة . وهكذا ، فإن
 ذلك الرجل الذى عاش هو نفسه فقيرا ، قد وهب العالم أملا فى
 انعدام الفقر تماما . هذا هو انجاز كارل ماركس . وهذه هى
 الطريقة التى غير بها عقلية العالم الحديث » .

٨ - عملاق بحرى ضد فيل

الفريد ت . ماهان ALFRED T. MAHAN

اثر القوة البحرية على التاريخ

عندما وصف ناقد معاصر كتاب القائد البحرى الفريد ت . ماهان ، الذى عنوانه « اثر القوة البحرية على التاريخ » بأنه « كتاب مدهش ، ولكنه أعظم قبلة حارقة ، فى العصور الحديثة . » اذ ابدى بصيرة رائعة . صور ماهان القوات البحرية الحديثة للعالم بأكثر مما صورها أى فرد آخر . « وأطلق على قلمه « الأقوى من أى أسطول » ، بينما كانت البوارج العاتية الضخمة أطفاله ، وليس قصف مدافع عيار ١٦ بوصة غير صدى صوته . » وبالتأكيد ، ما من مؤرخ آخر قد أحدث بكتابته مثل ذلك التأثير المباشر الواسع النطاق ، مثلما فعل ماهان .

أوضح ماهان ، طوال التاريخ المسجل ، أن القوة البحرية هى العامل الحاسم فى السيطرة العالمية . فالسيطرة على البحر ضرورة لكل أمة تصبو الى القيام بدور أعظم فى الشؤون العالمية ،

وتحصل في الوقت نفسه على أكبر قدر من الرخاء والأمن في وطنها . فالقوة البرية غير المتصلة بالبحر ، مهما كانت عظيمة ، فمصيها الانهيار والزوال ، لأن البر ، كما أشار ماهان « هو تقريبا كل العقبات، بينما البحر هو تقريبا كل السهل المفتوح . » فالأمة القادرة على السيطرة على هذا السهل بقوتها البحرية ، والاحتفاظ بأسطول تجارى قوى ، يمكنها استغلال ثروة العالم » .

أى نوع من الرجال كان ذلك « القبيلة الحارقة ماهان » ؟ ربما كان آخر رجل يختاره المرء كشورى أو غير استقرارى من الطراز الاول ، أو مقلق للسم . ولد ماهان في سنة ١٨٤٠ ، ابن مهندس حربى ومدنى ، في وست بوينت West Point وتخرج في جامعة أنابوليس Annapolis ، وقضى مدة طويلة من حياته على ويرة واحدة كضابط بحرى يتناوب العمل بين البحر والبر ، باستثناء عمل محدود أبان الحرب الأهلية الأمريكية . . لم يمارس قط أى التحام مسلح . واتسعت خبرته بالعمل في البرازيل والشرق والرحلات خلال أوروبا .

مرت خمس عشرة سنة بعد تلك الرحلات دون أى عمل مميز ، فيما عدا تأليف كتاب صغير عنوانه « خليج المياه الساحلية » ، خاص بالتاريخ البحرى للحرب الأهلية ، الذى عهد الى ماهان بكتابته في سنة ١٨٨٣ . جاءت بعد ذلك الفترة التى أبرزت شهرته وأحدثت تغييرا متطرفا في مستقبل حياته . دعا القائد البحرى ستيفن ب . لوس Stephen B. Luce ماهان ليحاضر عن التكتيك والتاريخ البحرى في الكلية الحربية المنشأة حديثا في نيويورك Newport

هذا بالضبط هو نوع الفرصة التى كان ماهان ينتظرها . واذ لم ينجح قط كضابط بحرى شهير ، ومل الروتين البحرى «

ومازال برتبة كابتن (رقى الى قائد مؤخرة الاسطول بعد تقاعده) . بدا أن المهمة الجديدة مرسله من عند الله . منح اجازة مدتها سنة للقراءة والتفكير قبل الذهاب الى نيويورك . وبعد ذلك ، في سبتمبر سنة ١٨٨٦ ، بدأ سلسلة من المحاضرات في مجموعة صغيرة من الضباط ، تلك المحاضرات التي قدر لها أن تنشر بعد ذلك بأربع سنوات في صورة منقحة باسم « أثر القوة البحرية على التاريخ » (١٦٦٠ - ١٧٨٣) .

ذكر ماهان في خطاب بعث به الى ناشره الانجليزى انه اختار المصطلح « القوة البحرية Sea power » كعنوان لكتابه كى « يجلب الانتباه ويحظى بالتداول .. » وقال « لقد نبذت تماما الصفة (بحرية maritime) لضعفها في جذب انتباه الناس او الالتصاق بأذهانهم .. » ومن الجلي أيضا أن كلمة « قوة power » تضرب على وتر حساس في عصر البخار والكهرباء والقوة السياسية . إذن ، فقد اختير العنوان « أثر القوة البحرية » بعناية ليحدث انطبعا خاصا في أذهان القراء . وان هذا الكتاب الشهير ، الذى تتوقف عليه ، قبل غيره ، شهرة ماهان ، هو في جوهره سرد وتفسير لسمو وتقدم القوة البحرية البريطانية من منتصف القرن السابع عشر الى نهاية الحروب النابليونية .

يبدأ ماهان بتتبع تقدم وتدهور القوة البحرية العظمى في خطوط عريضة ، مستعرضا بالتفصيل تلك العناصر اللازمة لامة تهدف الى بلوغ القوة فى البحر . ويختصر ماهان هذه الظروف الى ستة ، هى : الموقع الجغرافى ، والملاءمة الطبيعية (ومنها الانتاج الطبى والجو) وامتداد الحدود ، وعدد السكان ، ونوع الشعب ، ونوع الحكومة .

أخذ ماهان يتناول « عناصر القوة البحرية » ، فأوضح فى كل مثال كيف تغلبت بريطانيا على خصومها . وتبعاً لتفسيره ،

تكون القوة البحرية اوسع بكثير من « القوة الحربية البحرية » اذ لا تتضمن الاولى الأسطول الحربى فحسب ، بل والسفن التجارية وقاعدة قوية فى الوطن . فكتب ماهان يقول : « بينما يضم تاريخ القوة البحرية فى اكتساحه العريض كل ما من شأنه أن يجعل الأمة عظيمة فى البحر أو بجانب البحر ، فهو فى أكثر معانيه تاريخ حربى . » ومع ذلك ، فقد أكد دائما ، أن القوة البحرية الحربية ، والحملات والمعارك ليست الا وسائل لتحقيق هدف . لا يمكن أن تزهو البحرية التجارية ، ولا تنجح البحرية الحربية ، كل منهما بغير الأخرى . يتوقف الرخاء القومى على المجموعة المكونة من الاثنتين معا .

وبدراسة الموقع الجغرافى ، وهو أمر ذو أهمية أولية ، أكد ماهان على المزايا البالغة الكامنة لدى أمة ذات موقع «لايجبرها على الدفاع عن نفسها برا ، ولايجبرها على توسيع رقعة أرضها عن طريق البر . . . بالقياس الى أمة أحد حدودها قارى . » « ومن أمثلة ذلك إنجلترا فى ناحية ، وفرنسا وهولندا فى الناحية الأخرى . فمنذ وقت مبكر فى تاريخ هولندا الحديث ، أنهكت قواها لاضطرارها الى الاحتفاظ بجيش ضخم ليحارب من أجل المحافظة على استقلالها . كما أن فرنسا ضعفت بتقسيم ثروتها وقوتها البشرية بين بناء قوة حربية بحرية ، وبين مشاريع التوسع . كذلك كان موقع فرنسا أكثر تعرضا للهجوم ، لوجود سواحل لها على كل من المحيط والبحر المتوسط ، الأمر الذى يمنعها استخدام أسطول موحد . فأشار ماهان الى أن موقع الولايات المتحدة على محيطين ، يجعلها فى نفس المركز من الضعف . وأن المركز المتوسط ذا الموانئ القريبة من طرق التجارة العظمى ، وإذا القواعد القوية للعمل ضد الأعداء الأقوياء ، رأس مال استراتيجى عظيم . ثم أن إنجلترا ، بسيطرتها على طرق التجارة

في بحر المانش وفي البحر الشمالى تمكنت من أن تحظى بالسيادة البحرية .

حل ماهان عنصره الثانى ، وهو الملازمة الطبيعية ، فقرر ان « ساحل الدولة هو احدى جبهاتها . وكلما سهلت هذه الجبهة الوصول الى المنطقة التى وراءها ، وهى البحر فى هذه الحالة ، سهل اتصال هذه الدولة ببقية العالم ، بواسطة هذه الجبهة . » ورغم هذا ، فالمرافئ العديدة العميقة ذات أهمية حيوية لها . فاذا لم تعامل الطبيعة انجلترا وهولندة بسخاء من ناحية التربة والمناخ ، اضطرنا الى الاتجاه نحو البحر ، بينما حويت فرنسا « بأرض خصبة جميلة » . وكذلك بوركت الولايات المتحدة ، فلم تجدا مايفريهما شطر البحر .

والعنصر الثالث ، وهو آخر العناصر الطبيعية المؤثرة فى نمو الأمة كقوة بحرية ، هو امتداد الحدود . . لم يقصد ماهان بهذا المصطلح « عدد الأميال المربعة التى تتألف منها مساحة هذه الدولة ، ولكنه يقصد طول ساحلها ، وطبيعة مرافئها . » كذلك عدد سكان أمة بالنسبة الى طول ساحلها ، ذو أهمية عظمى . ومثل لذلك من الحرب الأهلية الأمريكية :

« لو كان عدد شعب الجنوب مثل مقدرته الحربية ، وكان لدى ذلك الجنوب قوة بحرية حربية تتناسب مع مواردها الأخرى ، لكان امتداد ساحلها البحرى العظيم ومداخله الكثيرة ، عنصرا عظيم انغوة . . . أما الجنوب ، فليس فقط ، انه لا يملك بحرية حربية ، وليس فقط أنهم لم يكونوا قوما ملاحين ، ولكن . . لم يكن عدد سكانها متناسبا فى طول ساحلها البحرى ، الذى كان يجب على هؤلاء السكان أن يدافعوا عنه .

بعد ان استعرض ماهان الشروط الطبيعية الثلاثة المؤثرة

في القوة البحرية ، وهي : الموقع الجغرافي والملاحة الطبيعية وامتداد الحدود ، عرج على تناول السكان وحكومتهم . وهنا أكد على عدد السكان في ناحية خاصة ، لأنه « ليس مجموع السكان الكبير هو الهام ، وإنما عددهم المشتغل بالملاحة البحرية ، أو على الأقل ، الممكن استخدامه على ظهور السفن ، وفي صنع الأدوات البحرية . » وأخذت الأمثلة التاريخية من إنجلترا وفرنسا . كان عدد سكان فرنسا يزيد كثيرا على عدد سكان إنجلترا ، ولكن ميول سكان الأخيرة نحو البحرية والتجارة كانت ميزة لها على سكان فرنسا ذوي الميول الزراعية . واستنتج ماهان أن « عدد السكان الكبير ، ذوي الميول البحرية هو الآن ، كما كان من قبل ، عنصرا عظيما في القوة البحرية . » ووجد أن الولايات المتحدة « متخلفة في هذا المضمار » .

أما النقطة الخامسة لماهان فهي تأثير الصفة القومية الملازمة ، على تكوين القوة البحرية . فكتب يقول ان التاريخ يبين انه « بدون استثناء تقريبا ، صلاحية القوم للاغراض التجارية ، يجب أن تكون ظاهرة مميزة للامم التي كانت في وقت ما عظيمة في البحر » وعلى الرغم من أن الانجليز والهولنديين وصفوا كثيرا بأنهم « شعوب تجارية » فإنهم حققوا مكاسب دائمة وأساسية من تجارتهم البحرية ، أكثر مما وبع الباحثون عن الذهب من الاسبان والبرتغاليين أما الفرنسيون المسرفون غير الراغبين في المخاطرة باستثمار أموالهم في التجارة الخارجية . وقد أبدى ماهان ملاحظته بأن « الميل الى التجارة ، ويشمل ضرورة انتاج شيء ما للمتاجرة به ، هو الصفة البالغة الأهمية في تكوين القوة البحرية » .

اعتقد ماهان ان للدكاء أو النبوغ القومي أثرا أيضا بالقدرة على تكوين مستعمرات صحية . ففي هذا المجال يتفوق الانجليز

على الفرنسيين الآن «المستعمر الانجليزي يستقر طبيعيا ومباشرة في وطنه الجديد ، ويربط مصالحه بمصالح ذلك الوطن ، ورغم انه يذكر بالخير دائما وطنه الأصلي ، فانه لا يشاق الى العودة اليه . » اما الاسبان فلم يكونوا مستعمرين ماهرين ، لأنهم يهتمون أولا بالاستغلال السريع لثروة الدولة الجديدة أكثر من التنمية الكاملة لخيراتنا .

وأخيرا ، يتناول ماهان نوع الحكومة واداراتها بالنسبة لنمو القوة البحرية . وقد اعتقد ماهان أن نوع الحكومة وصفة الحكام « لهما أثر عظيم على نمو القوة البحرية . » وبينما هو يفضل عمليات الحكومات الديمقراطية ، نراه يذكر أن « قوة الاستبداد المستخدمة في حكمة وثبات قد تخلق في وقت ما تجارة بحرية ضخمة وقوة بحرية حربية ، بقيادة أعظم مما تحققه العمليات الأبطأ للشعوب الحرة . والصعوبة . هي ضمان المثابرة بعد موت المستبد . » ولما كانت انجلترا قد وصلت الى الذروة في القوة البحرية ، فوق كل أمة حديثة ، فان ماهان يعتبر أن دراسة الحكومة هناك ملائمة بنوع خاص . ويتجه تأثير الحكومة الانجليزية على عدة دول ، نحو السيطرة على البحر . وبفض النظر عن الملك الحاكم ، أو عن الأحزاب السياسية ، أدرك الانجليز الأهمية الأساسية لاحتفاظ الأمة بالسيادة البحرية .

وبعد استعراض تاريخي مطول عن أعمال مختلف الحكومات فيما يختص بالحياة البحرية لشعوبها ، قرر ماهان أن نفوذ الحكومة يعمل بطريقتين : أولا ، في أوقات السلم :

« تستطيع الحكومة بسياساتها أن تحدد النمو الطبيعي لصناعات الشعب وميوله الى السعى وراء المغامرة والريح عن طريق البحر ، أو يمكنها محاولة تنمية بعض الصناعات وبعض الميول نحو الإبحار . وإذا لم يوجد هذان طبيعيا ، فان الحكومة ،

بنوع الخطأ ، توقف التقدم الذى تركه الناس لأنفسهم ، او تفرض عليه القيود .

ثانيا ، فى اوقات الحرب ، تقدر البحرية بميل الحكومة الى خلق وتسليح اسطول ، والاحتفاظ «ببحرية من حجم يتناسب مع نمو سفنها وأهمية الميل اليها» . وبالمثل ، من الضرورى «الاحتفاظ بمحطات بحرية ملائمة ، فى تلك الاجزاء النائية من العالم ، ويجب ان تتبع السفن المسلحة السفن التجارية الى تلك المحطات» . وقد وجد ماهان أن الولايات المتحدة كانت ضعيفة فى عدم وجود قواعد اجنبية لها ، اما ذات طابع استعمارى ، او ذات طابع حربى .

وهكذا ، بعد أن فحص ماهان العوامل الستة الاساسية المؤثرة على القوة البحرية ، وفكر فيها مليا ، صار على استعداد للانتقال الى التحليل التفصيلى للحروب البحرية الاوروبية فى المدة من سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٧٨٣ وتبلغ بالتقريب قرنا وربع قرن . ثم خصص بقية كتابه الى هذا الاستعراض التاريخى . وكنقطة بداية ، وصف ماهان الظروف العامة السائدة فى أوروبا فى اواخر القرن السابع عشر ، مشيراً ، بنوع خاص ، الى اسبانيا وفرنسا وهولندا وانجلترا - وهى الدول الرئيسية التى يمكن أن تشتبك فى حروب بحرية مستقلة . وفى نظر ماهان ، كان تاريخ أوروبا ابان السنوات التالية الصاخبة سباقا بين القوى الغربية للسيطرة على البحر . فبدأ بحثه بالحرب الهولندية لشارلز الثانى ، واكد على المدى الذى بلغته مصالح انجلترا التجارية فى حرب السيادة الاسبانية التى برزت منها انجلترا كقوة فى البحر المتوسط ، فاستولت على جبل طارق وميناء ماهون Port Mahon . وفى حرب السنوات السبع ، كان نجاح وولف Wolfe ممكنا بواسطة الاسطول الذى فتح السانت لورانس St. Lawrence ،

ومنع وصول النجندات من فرنسا . ومرة أخرى ظهر المعنى الرئيسى للقوة البحرية ابان الثورة الامريكية عندما فشلت انجلترا بقوات بحرية مقسمة ، فى مواجهة القوة المتحدة لفرنسا واسبانيا ، وهكذا استطاعت المستعمرات الامريكية أن تنال حريتها .

كانت قضية ماهان الرئيسية طوال كتابه هى أن الحصار البحرى المستمر هو الحاسم دائما بين القوة البحرية والقوة البرية ، أكثر من الجيش البرى الذى لا يقهر .

وفى سرده تفاصيل تكتيك مختلف المعارك ، علق أهم كاتب لتاريخ حياته وهو الكاتبين و . د . بولستون W.D. Puleston بقوله : «بذل ماهان كل جهد لتوخى الدقة . واذا أخذ أمثلته من عصر السفن الشراعية ، حاول جاهدا أن يلم بتكنولوجيا الإبحار والمعنى الدقيق للمصطلحات البحرية القديمة ، التى بطل استعمالها فى عصره الملاحى» .

وفى ذكر ماهان لتاريخ حياته ، هو نفسه ، وصف الوسيلة الميكانيكية التى استخدمها ، مثل نماذج السفن الورقية ، لتمثيل واعادة تصوير المعارك البحرية للسفن الشراعية .

تان هدف ماهان الرئيسى من كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» ، كما أخبر هو القائد لوس ، الضابط الذى كان رئيسه السابق ، مايرخذ من قوله : «هدفى أن أكتب تاريخا حربيا ناقدًا عن الماضى البحرى ، وليس تاريخا للأحداث البحرية» . وكان بوسعه أن يضيف أيضا ، أن من أهدافه أن يوضح العلاقة بين التاريخ البحرى والتاريخ السياسى اذا اقتنع تماما بأن القوة الاقتصادية التى ذهبت مع السيطرة على البحر ، منحت مالكةا مركزا ثابتا فى شئون العالم . وهكذا ، كما لاحظ برات Pratt

«لان انجلترا تونت قوة بحرية ، بينما اهمل خصومها ذلك ، استطاعت احباط خطط لويس الرابع عشر ونابليون لاكتسائها . واعتقد ماهان اعتقادا راسخا ، انها بذلك إنتقلت الحضارة ممن ارادوا تدميرها» .

ذاعت شهرة كتاب «اثر القوة البحرية في التاريخ» عالميا فور نشره مباشرة - ولو ان شهرته في الخارج كانت اعظم بكثير من شهرته في الولايات المتحدة . وبعد فترة وجيزة ، ظهرت تراجم هذا الكتاب الى الالمانية واليابانية والفرنسية والهندية والروسية والاسبانية . وفي كل مكان ، كان هذا الكتاب ذخيرة لعصر التوسع البحري العظيم الجارى في العالم ، وخصوصا في بريطانيا العظمى والمانيا وامريكا .

وكما ابان عدة نقاد ، يبقى هناك دائما سؤال عما اذا كان كتاب ماهان ، لو ظهر في عصر آخر وفي منطقة اخرى ، فهل كان يحظى بنفس ذلك الاثر البالغ ؟ لاريب في ان عصره كان ملائما جدا وسقطت اقوال ماهان عن أهمية القوة البحرية الحربية ، على ارض خصبة ، فوافقت تماما الميول الى الحرب في ذلك العصر . كانت القوى العظمى تستعرض عضلاتها لتصير دولا بحرية ساحقة وتقوم بغزو مستعمرات وممتلكات جديدة . اذن ، فمن الطبيعي ان تعتبر الامم ماهان نبيا . فبراهينه المدعمة بالمستندات القائلة بأن السيطرة على البحر هي المطلب الاساسي لمصالح أية امة ، قد اثبتت تلك البراهين صحة السياسات التي اعتنقت من قبل ، او التي هي موضع الدراسة . وكما عبر عنها أحد الكتاب البريطانيين ، كانت تعاليمه «مثل البترول يصب على لهب التوسع الاستعماري الجارى في كل مكان » .

قرظ النقاد البريطانيون كتاب ماهان ، فوصفوه بأنه « انجيل عظمة انجلترا» . وقال بولستون : «ربما كتبه بناء على طلب من

الوزارة البريطانية . فقد دعم بوضوح كل جدالهم» . وأكد أحد القواد البحريين انه من أجل تحسين مركز البحرية الحربية البريطانية بعد سنة ١٩٠٠ فاننا «لندين بالشكر للمحافظين ولا للاحرار ، وانما لماهان ولا لأى أحد سواه» . وتقديرا لماهان عند موته فى سنة ١٩١٤ ، كتبت جريدة لندن بوست London Post نقول : « ان بريطانيا لمدينة لذلك الامريكى العظيم بدين لا يمكن سداده ، لأنه كان أول من صاغ فلسفة القوة البحرية لبريطانيا فى دقة وبطريقة مفهومة» .

ستقدر هذه التعليقات تقديرا أكثر عندما ندرك انه فى الوقت الذى كتب فيه ماهان كتابه «اثر القوة البحرية على التاريخ» كانت البحرية الحربية الانجليزية «تعانى من اهمال مالى منذ مدة طويلة فاختصر موظفوها الى حجم الهيكل فحسب ، وسرعان ما تفوقت على قوتها السفن الفرنسية والاطالية الاكثر حداثة . ووصفت الفوه البحرية الانجليزية بأنها تشبه «معرضا للسفن العتيقة ذات الأشكال المتنوعة الغريبة» . وكان أكثر من ثلثها غير مسلح . اذا فقد جاءت نصيحة ماهان لتكوين أسطول انجليزى حديث قوى ، فى أوانها المناسب تماما ، فأسرعت كثيرا حركة اعادة تنظيم القوة البحرية الحربية وتقويتها .

اظهرت انجلترا اعجابها وتقديرها لماهان اثناء زيارتين قام بهما لبريطانيا فى سنة ١٨٩٣ وسنة ١٩٠٤ ، كان ضيف الشرف فى حفلات العشاء الرسمية التى اقامتها الملكة فكتوريا ورئيس الوزراء . وكان أول ضيف شرف اجنبى كرمه نسادى الجيش والبحرية . ومنحته كل من جامعتى أكسفورد وكامبريدج درجات فخرية فى بحر أسبوع .

ولكن ، بما ان كتابه «اثر القوة البحرية على التاريخ» لم ينشر كما اقترح أحد النقاد بلغة يفهمها الامريكىون والانجليز وحدهم ،

فان اثره على الالمان واليابانيين كان يمثل قوة اثره على البريطانيين . فقال القيصر ولهم الثاني Kaiser Wilhelm II «انى لاقرا الآن كتاب الكابتن ماهان ، وانما التهمه . انه موجود على ظهر جميع سفنى .. يتوقف مستقبلنا على المياه ، ويجب ان يكون الرمح الثلاثى الشعاب فى قبضة يدنا» . وهكذا صار كتاب ماهان موحيا ببحرية المانية جديدة .. وقال احد كتاب تاريخ حياته (تايلور Taylor) : « هناك دليل معقول على انه فى الأشهر القليلة الأخيرة من حياة ماهان ، كان يعانى من ازمة عقلية عن الحرب (الحرب العالمية الاولى) والدور الذى لعبه ، ولو انه لم يسبق ان فكر فيه من قبل اطلاقا ، فى اثاره نمو البحرية الالمانية» .

وكذلك الامر فى اليابان ، فقد زود كل ضابط بحرى ، وكل سفينة حربية بنسخة من كتاب ماهان ، وكجزء من الامتعة . وقد تلهف اليابانيون الى تعلم الطرق الغربية ، وبدعوا يستجيبون لماهان ، على نطاق واسع ، فى بناء القوة البحرية الحربية ، وعبارة المدافع وغير ذلك من الامور البحرية الاخرى . ورفض ماهان دعوة اليابان بأن يكون مستشارها البحرى الرسمى . ورغم هذا ، اتخذوا آراءه رائدة لهم ، وشرعوا يعملون ليصيروا القوة البحرية العظمى فى الشرق الاقصى .

من بين الدول العظمى التى تاق ماهان الى أن يؤثر عليها ، كانت الولايات المتحدة وحدها هى البطيئة فى قبول تعاليمه . واقتنع ماهان بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تدخل فى منافسة عنيفة مع قوات أخرى فى أسواق أجنبية ، فتنبنى بحرية حربية ضخمة ، وتكسب قواعد بحرية فى أعالي البحار ، وتوسع بامتلاك مستعمرات خارج نصف الكرة الغربى . وأشار بأن جزيرة هاوايى Hawaii يجب أن تضم وتستعمل كقاعدة أمريكية . كما

أشار إلى أن البحر الكاريبي Caribbean . يجب أن تكون علاقتنا به كعلاقة أوروبا بالبحر المتوسط ، وتزداد أهميته للولايات المتحدة باتمام قناة بناما . أولى ماهان طوال كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» انتباها خاصا إلى الولايات المتحدة ، ولاحظ امكانياتها كقوة بحرية . وقال الكاتب بولستون : «الف ماهان كتابه لاعادة اشعال حماس مواطنيه السابق ومتعتهم في أن يصيروا قوة بحرية . اعتقد أن الأمريكيين مشغولون بتطوير داخل القارة وبدا قذفوا بمراث عظيم بعيدا دون داع . لم يرغب ماهان في أن يحدو وطنه حذو فرنسا إبان حكم لويس الرابع عشر ويصبح قوة برية قبل كل شيء» .

سببت حجج ماهان تحول اثنين في المراكز الرئيسية ، هما: ثيودور روزفلت ، وهنري كابوت لودج Henry Cabot Lodge . تحمس روزفلت في البيت الأبيض ولودج في مجلس الشيوخ لتكوين بحرية حربية أمريكية عظيمة . وجد روزفلت تعبيرا كاملا لفلسفته عن «العصا الغليظة» فيما كتبه ماهان . واستخدم نظريات القوة البحرية لتساعده في كسب الرأي العام الأمريكي نحو سياسة التوسع عبر البحار . وان أثر ماهان ، على البرنامج الضخم لاقامة بحرية حربية في الولايات المتحدة ، الذي بدأ في التسعينات من القرن التاسع عشر ، واضح وملحوظ .

جرى تلم ماهان الكثير التصانيف في طريق نجاحه العظيم الشهير ، فأخرج سيلا من الكتب ومقالات المجلات قبل عدد مجلدات الكتب والمقالات التي جمعت ، حوالي عشرين ، يلحق بها عشرات من مقالات الصحف . وكانت اضافاته إلى «سلسلة القوة البحرية» بالغة الأهمية ، ولاسيما «أثر القوة البحرية على الثورة والامبراطورية الفرنسييتين» في سنة ١٧٩٣ - ١٨١٢ ، الذي اعتبره النقاد مؤلفا أكثر شمولاً ومدعماً بالمستندات بعناية أكثر

من «أثر القوة البحرية على التاريخ» ، وتواريخ حياة فاراجوت Faragut ويلسون ، والقوة البحرية في علاقتها بحرب سنة ١٨١٢ .

اعترف ماهان صراحة بأن آراءه عن القوة البحرية ليست أصيلة ، وأشار مثلا الى ما كتبه باكون Bacon ورالى Raleigh عن نفس الفكرة قبل ذلك بثلاثة قرون . وحتى قبل ذلك بوقت اطول عرف الإقدمون أمثال ثوكيديس Thucydides وكسيركسيس Xerxes وثيموستوكليس Themostocles ، أهمية هذه الفكرة . نجح ماهان، في نطاق واسع ، أكثر من أى كاتب سابق في موضوعه الخاص ، الذى كان كما قال هو حرفيا : « تحليلا للتاريخ في محاولة لأبين سر الأحداث الجارية خلال سلسلة طويلة من السنين ، وباضبط ، أثر السيطرة على البحر، في أحداث معينة . واذ ترك هذا المجال شاغرا ، أعطانى فرصتى » . ورغم انه ، كما قال كثير من المعلقين ، كانت نظرة ماهان الى التاريخ ضيقة جدا ، فتجاهل الكثير من العوامل الحيوية ، وخلق نظرة جديدة الى السياسة والاقتصاد .

واذا سلمنا جدلا بأن مذاهب ماهان كانت سليمة منطقيا ، لعصره وللقرون السابقة ، فهل صارت بائدة بواسطة التقدم التكنولوجى للقرن العشرين ؟ وبنوع خاص ، هل تفوقت القوة البحرية في عالم اليوم ؟ يختلف الخبراء في آرائهم . ففي الحرب العالمية الثانية ، لعبت القوة البحرية دورا بارزا ، ولكن كان عليها ان تتعاون تماما مع القوة الجوية ، لان السفن التى لانحرسها طائرات فى الجو ، عرضة جدا للدمار . وان التطور الذى حدث بعد الحرب وتمخض عن «قنبلة الجحيم» قد ألقى ظلا على مستقبل القوات البحرية . فبوسع هذه القنبلة ان تشل تماما قدرة أسطول

مكتتل . ومع ذلك فان صنع روسيا السوفيتية لاسطول عظيم من
العواصات وتأيد أمريكا على حاملات الطائرات ، لدليل قاطع على
ان القوة البحرية مازالت تحتفظ بمكانتها حتى في عصر ذرى .

وفي رأى العلماء وحكمهم ، ان منزلة ماهان الدائمة كمؤرخ ،
لن تتعادل مع شهرته المعاصرة . فنجاحه الباهر كان من قبيل
الدعاية . وفي وقت وفاته بلغت الولايات المتحدة الاهداف التي
رسمها لها ، وهى :

بناء بحرية حربية عظيمة ، وشق قناة بناما ، واقامة القواعد
فى البحر الكاريبى والمحيط الهادى . لقد شاهد انتصار فلسفته
القائلة بأن «من يحكم الامواج يحكم العالم» . هذا ، وان الدول
العظمى لمشغولة فى سباق جنونى من أجل القوة البحرية . وكما
لاحظ ناقد لاذع :

« ما من شخص واحد قد اثر مباشرة وبعمق فى المذاهب
البحرية والسياسة القومية لمثل هذه الامم الكثيرة » ، بينما قرر
خبير بحرى فرنسى ، أن ماهان «عدل تعديلا عميقا ، فى فترة حياته» ،
عدل تاريخ العصر الذى عاش فيه» .

٩ - قلب القارة والجزيرة العالمية

السبي هالفورد ج . ماكندر Sir Halford J. Mackinder

« المحور الجغرافي للتاريخ »

في خلال فترة تزيد قليلا على عشر سنوات ، بعد أن برهن القائد البحري ماهان ، بطريقة مقنعة ونهائية على عدم امكان قهر القوة البحرية عبر التاريخ . غير أن امكان استخدام مذهبها في المستقبل ، قد نسف بدرجة خطيرة ، ان لم يكن قد فند صحته ، وذلك بعاملين جديدين : الاول من المملكة المادية وهو اولى التجارب الناجحة للاخوين رايت Wright في سنة ١٩٠٣ بطائرة قوية . واما العامل الثاني ففي مملكة الافكار : ورقة علمية كتبها في سنة ١٩٠٤ العالم الجغرافي الانجليزى هالفورد ماكندر ، الذى اشتهر بعد ذلك باللقب «ابو السياسة الجغرافية» .

لم يعرف العالم ، على الفور ، في أية حالة من هاتين تقاع الاهمية المشيرة لهذين الحادتين ، ومع ذلك ، فان وجه الكرة الارضية يجب أن يتغير بهما تغيرا مستديما .

لم يعد من غير المحتمل تفكك النظريات الثورية . . في ٢٥ يناير سنة ١٩٠٤ قرأ ماكندر ورقته المشهورة «البحر الجغرافي للتاريخ» ، في اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن . وتقع تلك الورقة في ٢٤ صفحة مطبوعة ، أى أنها لاتزيد على نشرة عادية . غير أن تحليلها الرائع للعلاقة المتبادلة بين الجغرافيا والسياسة في الماضي والحاضر خلال العالم كله ، كان افكاره جديدة غزت تفكير القادة السياسيين الحريين وعلماء الاقتصاد والجغرافيا والمؤرخين في كل مكان .

في نهاية الحرب العالمية الاولى ، عدل ماكندر نظريته بتفصيل مطول جدا عن « المثل العليا الديمقراطية والحقيقية » .

ورغم أنه لم يتم بتعديل أساسى على قضيته الاصلية ، فهذا الكتاب وموضوعه السابق هما حجر الزاوية في العلم الحديث للسياسة الجغرافية ، وهو ادماج الجغرافيا والعلوم السياسية معا .

كان ماكندر في الرابعة والثلاثين عندما الف محاضراته الشهيرة . كان ابوه طبيبا ريفيا أرسله الى كلية اسوم Epsom في سنة ١٨٧٤ ، ومنها الى اكسفورد حيث كان سجل دراسته جافلا بالالعية ، عين بعدها محاضرا متجولا لجامعة اكسفورد في علم الجغرافيا لمدة سنتين ، ثم عين معيدا للجغرافيا في اكسفورد حيث جذب اليه مئات الطلاب بطريق تعليمه الحركية . وكان للاحاحه على الجمعية الجغرافية الملكية اكبر الاثر في تمويل هذه الجمعية لاول مدرسة بريطانية في علم الجغرافيا باكسفورد سنة ١٨٩٩ ، وجعلت ماكندر مديرها . كما وجد متسعا من الوقت في تلك السنوات ليحظى بشهرة في تسلق الجبال . فقام بأول مغامرة صعودا الى جبل كنيا Kenya بشرق أفريقيا . ومع استمراره في منصبه باكسفورد ، عمل معيدا للجغرافيا الاقتصادية في جامعة

لندن ، ذلك المنصب الذى أدى الى تعيينه مديرا للمدرسة الاقتصاد بلندن فى سنة ١٩٠٣ . واذا أولع دائما بعلوم الاقتصاد ، انتخب ، لعدة مرات ، فى البرلمان من سنة ١٩١٠ - ١٩٢٢ . ومع ذلك ، كانت حياته العملية كلها ، أولا وقبل كل شيء ، فى الدوائر الأكاديمية . فكرس نفسه لتقدم الدراسة العلمية للجغرافيا ، وخصوصا الجغرافيا من حيث «وجهة النظر الإنسانية» .

قدم ماكندر فى كتابه «المحور الجغرافى للتاريخ» ، الذى قدر له مثل رد الفعل الواسع ذلك . قدم أولا نظريته عن الفضاء المنقلب ، وهى فكرة اشتهرت بعد ذلك بأربعين سنة بواسطة ونيل ويلكى Wendell Willkie فى مقال «عالم واحد» . اعتقد ماكندر ان «الحقبة الكولومبية» وهى حقبة أربعة قرون من الاكتشاف والتوسع الجغرافيين ، قد انتهت عند بداية القرن العشرين . فكتب يقول : «تمت حدود خريطة العالم فى أربعمئة سنة ، بدقة تقريبية» .

تبع ماكندر نفس الفكرة فى «المثل العليا الديمقراطية» والديموقراطية» ، فقال :

« وصلنا أخيرا الى القطب الشمالى فوجدناه فى وسط بحر عميق ، والى القطب الجنوبى فوجدناه فوق هضبة عالية . وبهذين الاكتشافين الأخيرين ، ختم كتاب الرواد . لم تلق هذه المغامرة جزاءها بالعثور على سهل واسع من الأرض الخصبة أو سلسلة جبال هامة ، أو نهر من الطراز الاول . وزيادة على ذلك ، مكادت خريطة العالم ترسم قبل تمام ثبوت الملكيات السياسية لجميع أجزاء اليابسة . . . سار مبعوث الارساليات والفازى والمزارع ومستغل المناجم ، وحديثا المهندس ، سار هؤلاء جميعا يتبعون من كتب خطى الرحالة ، حتى ان الدنيا فى أقصى حدودها قلما اكتشفت قبل ان تقرر ملكيتها الحقيقية الكاملة . فقلما توجد

منطقة في أوروبا أو في أمريكا الشمالية أو في أمريكا الجنوبية ، أو في أفريقيا أو استراليا ، لم تثبت ملكيتها الا نتيجة لحرب بين القوى المتحضرة أو نصف المتحضرة .

في تسعينات القرن الثامن عشر ، عبر مؤرخ امريكي بارع اسمه فردريك جاكسون ترنر Frederick Jackson Turner عن فكرة مشابهة ، ولو أن ذلك كان بطريقة محدودة ، عن الفضاء المقل ، بأن كتب عن الجبهة الماضية وأهميتها في التاريخ الامريكي . والآن ، يقرر ماكندر أن تلك الجبهة قد اختفت خلال العالم .

وصف ماكندر الآثار المحتملة لتمهيد ترنر ، بقوله :

«من الآن فصاعدا ، سيكون علينا ثانية ، في العصر بعد الكولومبي ، أن نتناول النظام السياسي المقل ، وسيكون أحد المجالات العالمية . فكل انفجار في القوى الاجتماعية ، بدلا من أن يدوب في دائرة الفضاء غير المعروف المحيطة به ، وفي الفوضى البربرية ، فانه سيرتد بحدة من الجانب البعيد للكرة الأرضية ، وستتخطم نتيجة لذلك ، تلك العناصر الضعيفة في الكيانين السياسي والاقتصادي للعالم .. نحس الآن بكل صدمة وبكل كارثة أو فائض ، كما يحس بها من يعيشون في الجزء المقابل لنا من الكرة الأرضية . وقد ترتد اليها ممن يعيشون قبالةنا وهكذا يرتد صدى كل فعل انساني ، ويرجع صدها ثانية ... حول العالم .

وفي النظام المقل الخاص بعصرنا ، وخفة الحركة غير المحدودة المصاحبة له برا وجوا ، نرى القوة البحرية السائدة ، قد انقضى عصرها ومضى ، تبعا لرأى ماكندر . ولو كان هذا حقيقيا ، اذن فقد جاء عصر قوة أرضية . فإين كان المركز الطبيعي للحقبة الجديدة ؟ كان ، بالطبع ، في كتلة الأرض العظمى من

«العالم» ، أى فى تلك المساحة الشاسعة التى أطلق عليها ماكندر اسم «المنطقة المحورية لسياسات العالم» . ومن بين خمس خرائط لتوضيح قضيته استحدثت الأخيرة أن تسمى «المراكز الطبيعية للقوى» ، وتصور «المنطقة المحورية» . صور ماكندر المحاور الجغرافى فى شمال وداخل المنطقة الأوروبية ، والممتدة من المنطقة القطبية الشمالية الى الصحارى الوسطى ، وغربا الى البرزخ العريض بين بحر البلطيق والبحر الاسود .

وتبعاً للتحليل التاريخى الذى يخص به معظم مقاله ، فإن أوروبا وبقيّة العالم ظلت لعدة قرون تحت ضغط مستمر من منطقة المحور .

« نالت أوروبا حضارتها تحت ضغط البربرية الخارجية اذن ، فانا اطلب منكم أن تنظروا لحظة الى أوروبا والى التاريخ الأوروبي على أنهما تابعا لآسيا وللتاريخ الآسيوى ، لان الحضارة الأوروبية ، بمعنى حقيقى جدا ، كانت نتيجة نزاع دنيوى ضد الغزو الآسيوى . وأهم تناقض واضح فى الخريطة السياسية لأوروبا الحديثة هو الذى تمثله مساحة روسيا التى تشغل نصف مساحة القارة ، ومجموعة من الاراضى الصغيرة تسكنها القوى العربية» .

وبتتبع التقلص والامتداد فى التاريخ الأوروبي أكمل ماكندر حديثه بقوله :

« لمدة ألف سنة ، برزت مجموعة من الشعوب راكبي الخيول من آسيا خلال الشقة العريضة الواقعة بين جبال أورال Oral وبحر قزوين Caspian Sea ، ساروا بخيولهم خلال المسافات المكشوفة لجنوب روسيا ، واستتقروا فى المجر Hungary فى قلب شبه الجزيرة الأوروبية نفسه ، وكونوا ، بالمعارضة التى

قابلتهم بطبيعة الحال ، كونوا تاريخ كل من الشعوب العظمى المجاورة - انروس والالمان والفرنسيين والايطاليين والاغارقة البيزنطيين »

ومن وجهة نظر التأثير الدائر ، تركت غزوات المغول في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، أعمق الاثر ، فاكسحت كثيرا من أوروبا الوسطى وروسيا وفارس والهند والصين . جاءت تلك الغزوات مما أسماه ماكندر «منطقة المحور» و «كل الحدود المتفق عليها للعالم القديم ، أحست في الحال أو بعد وقت بالقوة الهائلة لتلك السلطة المتحركة التي نشأت في سهول الاستيس Steppe» .

أسقط ماكندر أشعة تاريخه على أزمنتنا ، فرأى منطقة المحور تزيد من ثقلها في شئون العالم متمشية مع نموها في القوة الاقتصادية والحربية . ومن وجهة النظر التاريخية ، رأى بالادلة « الحاحا معنا للعلاقة الجغرافية » ، لأنه -

« ليست منطقة المحور لسياسة العالم هي تلك المساحة الواسعة أورال - آسيا ، التي لا يستطيع السفن أن تصل إليها ، ولكنها كانت ، في قديم الزمان ، مفتوحة أمام البدو راكبي الخيول ، وعلى وشك أن تغطيها اليوم شبكة من السكك الحديدية؟ كانت ، ولا تزال هنا ظروف تحرك القوة العسكرية والاقتصادية من نوع يصل الى مدى بعيد ، ولكنه نوع محدود . فروسيا تحل محل الامبراطورية المغولية . وضغطها على فنلندا وعلى اسكنديناوة وعلى بولندا وعلى تركيا وفارس والهند والصين ، يحل محل غارات رجال الاستيس الممتدة الى الخارج . انها تحتل المركز الاستراتيجي المتوسط في العالم كله ، ذلك المركز الذي تحتله المانيا في أوروبا . يمكنها أن تضرب في جميع الجوانب ، وتضرب من جميع الجوانب أيضا ماعدا الشمال » .

يحدد ماكندر هلالين خارج منطقة المحور يضم الهلال الكبير الداخل الى المانيا والنمسا والهند والصين بينما يضم الهلال الخارجى بريطانيا وجنوب افريقيا واستراليا والولايات المتحدة وكندا واليابان . والحقيقة أن قوة منطقة المحور لم تكن معادلة لدول الحافة الخارجية للهلالين . وهنا أبدى ماكندر خوفه العظيم بقوله: «قد يحدث هذا الا اذا تحالفت المانيا مع روسيا . وفى هذه الحالة ، يصبح بوسع دولة المحور أن تمتد فوق البلاد الساحلية للاورال - آسيا فتستعمل «موارد قارية هائلة لبناء أسطول . وعندئذ تكون امبراطورية العالم ظاهرة» .

اختتم ماكندر خطابه الشهير بالتأكيد بأنه تكلم بصفته عالما جغرافيا . وأشار الى أن «التوازن الحقيقى للقوة السياسية فى أى وقت معين هو ، بالطبع ، حاصل ضرب الظروف الجغرافية ، اقتصاديا واستراتيجيا ، فى العدد النسبى للرجولة الكاملة والمعدات وتنظيم الشعوب المتنافسة» وفى تقديره أن «الكميات الجغرافية فى هذا الحساب أكثر قابلية للقياس وأكثر ثباتا تقريبا ، من الكميات البشرية» . لن تتغير الاهمية الجغرافية لموقع المحور اذا سكنه شعب آخر غير الشعب الروسى .

فمثلا اذا نظم اليابانيون الصينيين لهزيمة الامبراطورية الروسية واحتلال اراضيها ، فانهما تكونان الخطر الاصفر على حرية العالم لمجرد انهما تضمان جبهة على المحيط الى موارد القارة العظمى ، وهذه ميزة حرم منها الروس ساكنو منطقة المحور .

احس ماكندر ، وهو يكتب ، عند نهاية الحرب العالمية الاولى : «أن الحرب دعمت آراءه السابقة بدلا من أن تهز كياناتها» . وفى «المثل العليا الديمقراطية والحقيقية» استمر فى مناقشة «منطقة المحور» التى أشار اليها عندئذ على انها «قلب القارة» الواقعة فى وسط «الجزيرة العالمية» .

لم تكن أوروبا وآسيا وأفريقيا ، كما رآها ماكندر ثلاث قارات ، بل فارة واحدة هي «الجزيرة العالمية» ، وبما أن البحر كان فيما مضى مسيطرا على تفكير الانسان ، فانه لم يعتبر تلك الرقعة الشاسعة جزيرة ، لانه كان من المستحيل الإبحار حولها. فأشار ماكندر الى أنه «يطفو فوق بحر القطب الشمالي طبقة من الثلج عرضها ألفان من الاميال ، إحدى حافاتها على الأرض الضحلة في شمال آسيا . اذن ، فليست القارة جزيرة من حيث غرض الإبحار» . وباستثناء هذه الحقيقة ، ومساحتها الشاسعة فانها لا تختلف عن الجزر الأخرى . وتطفي الجزيرة العالمية على بقية الأرض في كل من المسافة وعدد السكان . فمن ناحية الأرض، لهذه الجزيرة الثلثان ، بينما الثلث الباقي للامريكتين الشمالية والجنوبية وأستراليا والمناطق الصغرى الأخرى . وزيادة على ذلك ، فان سبعة اثمان سكان العالم يقيمون في هذه الجزيرة ، بينما يقيم الثمن فقط في بقية الاراضى الأخرى . اذا ، فقد لاحظ ماكندر أن الدنيا القديمة هي «الوحدة الجغرافية العظمى في كرتنا الأرضية» .

وبعد أن أوضح ماكندر «نسب وعلاقات» الجزيرة العالمية ، استطرد يقول :

« وضعت ، كما هي ، على كاهل الأرض بالنسبة الى القطب الشمالى . واذا قسنا المسافة من القطب الشمالى الى القطب الجنوبى ، بطول منتصف آسيا نجد أولا ١٠٠٠ ميل من البحر المغطى بالثلج حتى الشاطئ الشمالى لسيبيريا ، ثم ٥٠٠٠ ميل من الأرض الى الجزء الجنوبى من الهند ، ثم ٧٠٠٠ ميل من البحر الى الأرض المغطاة بالثلج عند القطب الجنوبى . أما اذا قسنا بطول منتصف خليج البنغال أو البحر العربى فان آسيا تبلغ ٣٥٠٠ ميل فقط ، ومن باريس الى فلاديفوستك Vladivostok

٦٠٠ ميل ، ومن باريس الى رأس الرجاء الصالح مسافة مساوية للسابقة» .

قال ماكندر : «ليست الأمريكتان وأستراليا صغيرة نسبيا من حيث المساحة فحسب ، بل وإن القوة البشرية والموارد الطبيعية التى فيها أقل بكثير مما فى «القارة العظمى» أو «الجزيرة العالية» . ويسأل ماكندر : «ماذا لو أن القارة العظمى أو الجزيرة العالية كلها ، أو الجزء الأكبر منها ، صارت فى وقت ما ، فى المستقبل ، قاعدة متحدة من القوة البحرية ؟» ألا تتفوق على القواعد الجزيرية الأخرى من حيث السفن والرجال المديرة لها ؟» ، هذا ، ورغم أن ألمانيا هزمت ، فلا يزال هناك احتمال أن جزءا كبيرا من القارة العظمى سيتحد فى يوم ما تحت إمرة حكومة واحدة ، وتبنى عليها قوة بحرية عظمى لا يمكن قهرها . وحذر ماكندر يقول : «لو كسبت ألمانيا الحرب لكونت قوتها البحرية على أساس أوسع من أية قوة فى التاريخ ، والحقيقة أنها ستكون على أوسع قاعدة ممكنة» .

لقلب قارة ماكندر ، أساسا ، نفس حدود محوره السابقة . فقلب القارة هو المنطقة الوسطى فى أوروبا وآسيا النائية ، والبعيدة عن متناول سيطرة القوة البحرية . «وتشمل بحر البلطيق ووسط نهر الدانوب الصالح للملاحة ، وجزءه من ناحية المصب ، والبحر الأسود وآسيا الصغرى وأرمينيا وفارس والتبت ومنغوليا . إذن ، يضم قلب القارة فى داخله بروسيا براندنبرج Brandenburg Prussia والنمسا والمجر ، وكذلك روسيا - أنها مثلثة الشكل ذات قوة بشرية عظيمة ، كان يفتقر إليها راكبو الخيول التاريخيون » ذكر ماكندر بحر البلطيق والبحر الأسود فى هذه المنطقة ، لأنه ثبت إبان الحرب العالمية الأولى استحالة الوصول إليها أو السيطرة عليهما من الخارج بأية قوة بحرية .

اكمل ماكندر قوله بتعريف آخر لقلب القارة بأنه : « ظرف طبيعي هام واحد تربطه كله معا ، بيايا ، عند حافة جبال فارس المطلة على أرض العراق Mesopotamia الشديدة الحرارة ، تحت الثلج في زمن الشتاء وفي منتصف الشتاء كما نرى من القمر درع واسعة يضاء وتظهر قلب القارة في أضخم معابيه . . . اقتنع ماكندر بأن هذه المساحة هي مفتاح الجزيرة العالمية . وتمتد اجمالا من جبال هيمالايا الى المحيط المتجمد الشمالى ، ومن نهر الفولجا Volga الى نهر يانجتسى Yangtze وتمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل شمالا وجنوبا ومسافة ٢٥٠٠ ميل أخرى شرقا وغربا . ولما كانت بمأمن من القوة البحرية بسبب موقعها داخل القارة ، ويمكن لقلب القارة هذا اذا نما نموا صحيحا ونظم عسكريا ، أن يصير مركز ومحور قوة عالمية ذات تأثير عظيم .

اختصر ماكندر حججه الى صيغة شائعة على اللسان ، نصها :

« من يحكم شرق أوروبا يسيطر على قلب القارة ،

ومن يحكم قلب القارة يسيطر على الجزيرة العالمية ،

ومن يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على الدنيا » .

ولكى يحال بين أية أمة واحدة ، وخصوصا روسيا أو ألمانيا ، وبين التفوق في قلب القارة ، اثر الحرب العالمية الاولى ، نصح ماكندر بتكوين حاجز من الدول يمتص التصادم من بحر البلطيق الى البحر الاسود . والدول المستقلة كما يراها ماكندر هي استونيا Esthonia ولتوانيا Lithuania وبوهيميا العظمى Great Bohemia والمجر والصرب العظمى Great Serbia ورومانيا العظمى وبلغاريا واليونان - وهذه قائمة تختلف اختلافا طفيفا

عما قرره مؤتمر السلام فى باريس . وعلى ضوء التاريخ الحديث ،
أخطأ ماكندر خطأ فاحشا ، فلم تحقق منطقة امتصاص الصدام
الغرض المطلوب منها . اذ اخترقت المانيا هذا الحاجز اولا ، ثم
روسيا .

وابان الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٣ ، قبل موت
ماكندر بأربع سنين ، اختبر نظرية قلب القارة للمرة الثالثة فى
مقال عنوانه : «العالم المستدير وكسب السلام» ، فوجد فكرته
« أكثر صحة ونفعا اليوم مما كانت عليه منذ عشرين أو أربعين
سنة مضت » . واستطرد يتنبأ بأنه : «اذا هزم الاتحاد السوفيتى
المانيا فى الحرب ، فلا بد أن يكون أعظم دولة فى الدنيا . وزيادة على
هذا ، سيكون القوة ذات المركز الاستراتيجى الأقوى فى ناحية
الدفاع . فقلب التارة أعظم حصن طبيعى على ظهر البسيطة ،
ولاول مرة فى التاريخ ، تسيطر عليه حامية كافية ، كما
ونوعا .

لم تتشبث دولة ما بنظريات ماكندر مثلما فعلت المانيا
النازية . وتبعها لتفسير كارل هوشوفر Karl Haushofer ،
كاتب الموضوعات الجغرافية الكثير التصانيف ، فان فكرة ماكندر
الاساسية عن قلب القارة الموجود فى جزيرة عالمية ، سادت الفكر
السياسى الالمانى لمدة عشرين سنة ١٩٢٥ - ١٩٤٥ .

اشتهر هوشوفر فى وقت مبكر يرجع الى سنة ١٩٠٨ عندما
أوفد الى اليابان كملاحظ حربى لموظفى القائد الالمانى . فركز
اهتمامه على استيعاب شئون الشرق الاقصى ، صار معروفا كخبير
وعن طريق موهبة استثنائية لحفظ اللغات ، تعلم التكلم بست
لغات اجنبية منها الصينية واليابانية والكورية والروسية ، كما
أنه توسع فى رحلاته ليلم ، من كتب ، بالشرقين الاوسط والاقصى .
رقى هوشوفر فى الرتب العسكرية ابان الحرب العالمية الاولى ،

وتقاعد برتبة ماجور جنرال Major General وبعد استسلام ألمانيا ، وللمدة الباقية من حياته العملية ، شغل بالكتابة في الجغرافيا السياسية وتعليمها ، والتاريخ الحربى في جامعة ميونيخ Munich . فسطر قلمه عدة كتب وكتيبات ومقالات للتفسير في المثل العليا النازية بكلمتى سرهما : السياسة الجغرافية ، وتتناول تحركات التغيرات السياسية في العالم أو فضاء السكنى Lebensraum ، ويقصد بها حاجة الشعب الى اراض للسكنى ، للتوسع والنمو .

لانعرف متى عثر هوشوفر على مؤلف ماكندر لاول مرة . وربما كان هذا في أوائل عشرينات القرن العشرين . وعلى الفور أدرك هوشوفر أنه عثر على أستاذه ، فصرح من تلقاء نفسه بأنه مدين له . فمثلا ، كتب في سنة ١٩٣٧ يصف ورقة ماكندر لسنة ١٩٠٤ بأنها ، «أعظم الآراء الجغرافية في العالم كله » ثم أضاف «انه لم ير في حياته شيئا أعظم من تلك الصفحات القليلة لروائع السياسة الجغرافية» . وبعد ذلك بسنتين ناقش موضوع تحالف المانى روسى ، مشيرا الى أن ماكندر اتخذ وجهة النظر البريطانية عن الخوف من القوة التى ستكون لتلك الدولتين أن اتحدتا . وكثيرا ما أستشهد هوشوفر بحكمة أو فيد Ovid : « من الواجب أن نتعلم لغة العدو » ... أعاد طبع خريطة ماكندر لقلب القارة أربع مرات على الأقل في مجلة Zeitschrift für Geopolitik واعترف ، بلا تردد ، بأن أفكاره مبنية على الاساس الذى قدمه ماكندر .

كان صديقهما رودلف هيس Rudolf Hess حلقية اتصال بين هوشوفر وهتلر . فبينما كان هتلر في السجن بعد قضية خسارة بوتش Beer Hall Putsch الفاشلة لسنة ١٩٢٣ ، زاره هوشوفر عدة مرات ... أوضح هتلر في عدة فقرات من

كتابه « كفاحي Mein Kampf » ، انه استقى من هوشوفر بعض مذاهب السياسة الجغرافية . ولما انتصر النازيون بعد ذلك بعشر سنين كان هوشوفر في مركز قيادي يخوله التأثير على سياسة المانيا . واذا عين رئيسا لمعهد السياسة الجغرافية النازي، جند عددا ضخما من الموظفين ليلدروا الارض للحصول على معلومات عن الطبيعة والظروف المعيشية والاثار التهذيبى للشعوب، وغير ذلك من المعلومات الجغرافية ذات الاهمية الحربية القوية .

واذا أعجب هوشوفر بأفكار ماكندر ، تسلطت عليه فكرة ان المانيا لابد ان تسيطر على قلب القارة . فانتشرت رسوميه عبر القارة من نهر الراين الى نهر يانجتسى ، وتركزت على خطته لحدوث تحالف عملاق بين المانيا واليابان والصين وروسيا والهند ضد الامبراطورية البريطانية . . وقد وافقت هيئة الموظفين الالمانية العامة على تعاليمه وأيدتها . وبدأ توقيع الميثاق النازى السوفيتى فى سنة ١٩٣٩ محققا لحلم هوشوفر ، غير أن سياسته كلها ذهبت ادراج الرياح عندما اقترف هتلر خطأ عجل بنهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما أمر قواده بان يهاجموا الاتحاد السوفيتى . وبعد ما انتهت الحرب بفترة وجيزة ، انتحر هوشوفر وزوجته فى بيتهما البافارى .

وكما هو طبعى ، اتهم النقاد هوشوفر بأنه هو الذى وضع اساس المذهب الحربى النازى ، بيد أن ماكندر دحض هذا الاتهام فى الخطبة التى القاها عام ١٩٤٤ ، اذ قال :

« علمت بسرمان شائعات تقول اننى اوحيت الى هوشوفر الذى اوحى الى هيس ، فاقترح هذا بدوره على هتلر ، عندما كان يملئ كتابه « كفاحي » ، ببعض افكار السياسة الجغرافية ، يقال اننى مصدرها . انها ثلاث حلقات فى سلسلة ، ولكنى لا اعرف

شيئا عن الحلفتين الثانية والثالثة . ومع ذلك ، فأننى أعرف من دليل قلمه ، أن كل ما اقتبسه هوشوفر منى ، أخذه من خطاب المحور الجغرافى للتاريخ) الذى القيته امام الجمعية الجغرافية الملكية منذ أربعين سنة خلت ، قبل وجود أى مسألة عن حزب نازى ، بزمان طويل .

لم يكن انتشار مذاهب السياسة الجغرافية ، بالطبع ، قاصرا على ألمانيا وحدها . فقلما كان الروس أقل نشاطا من الألمان فهناك مكتب جغرافى مزدهر ، هو معهد موسكو للاقتصاد والسياسة العالمية ، الذى اهتم منذ وقت طويل بالنزاع بين الولايات المتحدة والجزيرة العالمية التى يأمل الاتحاد السوفيتى فى السيطرة عليها . ومن الممتع فى هذا الخصوص أن نذكر رأى ماكندر فى روسيا عام ١٩١٩ عندما كانت الحكومة الشيوعية فى حداثة عهدها . كان مقتنعا بأن العهد لا يغير مناطقه أبدا . «يتعارض نوع الحكومة البريطانية والأمريكية والمثل العليا لعصبة الأمم ، مع السياسة التى صيغت فى قالب الطفغيان لشرق أوروبا وقلب القارة سواء أكانت على نظام الاسرات dynastic أو بولشفية Bolshvik . قد تكون حالة الطفغيان البولشفى رد فعل أقصى للطفغيان الأسرى . ولكن من الحقيقى أن السهول الروسية والبروسية والمجرية ، مع تناسق حالاتها الاجتماعية المتسعة على نطاق عريض ملائمة لسير العسكرية ودعاية النقابية Syndicalism » .

نوقشت صحة نظريات ماكندر الجغرافية نقاشا طويلا وأحصيت جميع النقاط التى يحيط بها أى شك . ومن العيوب الواضحة ، اخفاق ماكندر فى أن يحسب حساب الامكانيات الهائلة التى للقوة الجوية . ولكنه اعترف فيما كتبه بعد ذلك ، بأن غزو الجو قد فرض على العالم نوعا من الوحدة . الا انه أصر على أن

١٩٠

هذا التقدم قد أيد «قلب القارة» ، نضال الجزيرة العالمية ، ولم يضعفها - وينصر النقاد على أن القوة الجوية قد غدت سلاحاً رهيباً إلى درجة جعلت نظرية قلب القارة تفقد أهميتها الاستراتيجية . فالخطوط الجوية تعبر الآن المحيطات والقارات من جميع الجهات . وكما علق هريك Herrick :

الهواء عالمي مشاع للجميع . أنه طريق واسع فرد يقطع حسب الإرادة فوق الأرض أو البحر على حد سواء . لا يصد القوة الجوية إلا قوة جوية . وهي لا تعرف قلب القارة البعيدة عنها تمام البعد . . والقانون الاستراتيجي الآن ، قد يكون : «من يركب الطائرات يسيطر على القواعد ، ومن يسيطر على القواعد يسيطر على الجو ، ومن يسيطر على الجو يسيطر على العالم» .

يدعم وجهة النظر هذه فحص كرة أرضية حيث يرى المرء ما يجاور قلب القارة وأمريكا الشمالية «مرئية من أمريكا الشمالية» وبمصطلحات وسائل المواصلات الحديثة . ويقول وايجرت Weigert : « ماعادت استحالة الوصول ولا بعد الشبكة يجب عنا قلب القارة . لم تعد تقع خلف سور موقع منيع لا يمكن النفاذ إليه . إذ قهرت الطائرات الحديثة البعيدة المدى مناطق القطب الشمالي في الخمسين سنة بعد أن ألقي ماكندر تحذيراته المشؤمة . وزيادة على ذلك ، فإن نفس حجم قلب القارة عقبة كثود لقوة الدفاع . فذلك الطول العظيم لأراضي روسيا السوفيتية وسواحل البحار ، مثلاً ، تزيد من إمكان إصابة الطائرات المعادية ، وتخلق مشكلة دفاع بالغة التعقيد . وبحسب ألفاظ ماكندر ، «ينما يمكن أن تضرب من جميع الجهات ، يمكن أيضاً ضربها من جميع الجهات» .

هناك نقطة هامة ، وأخرى عمي عنها ماكندر ، إذ فشل في إدراك المركز القوى الذي تحتله الأمريكتان . وفي أثناء كتابته «المثل

العليا الديمقراطية والحقيقة» . شاهد منذ فترة وجيزة في الحرب العالمية الاولى ، استعراضا لقوة أمريكا وعنفها . ويبدو أنه كان مشغولا بفكرة قلب القارة والجزيرة العالمية في نظريته الى الارض . وعلى ذلك لم ير الدنيا الجديدة الا منطقة ساحلية و «مجرد تابع للقارة القديمة» .

ورغم مساوئ ماكندر التنبؤية فهناك أدلة قوية تؤيد آرائه ... اقام الاتحاد السوفيتي حكما جديدا على قلب القارة ، وعن طريق التقدم الزراعي والصناعي واستغلال المعادن والسكك الحديدية وانشاءات المبالج الجوى ، جعلت المنطقة من اقوى المناطق في العالم اقتصاديا وحربيا . ومن ناحية أخرى ، فعلى الرغم من أنها بدأت عددا من الخطط الخمسية في العشرين سنة الماضية ، فلم تبلغ تلك المنطقة المقدرة الانتاجية التي للولايات المتحدة ، هذا وبرغم أن الاتحاد السوفيتي يحكم قلب القارة فانه لا يزال بعيدا عن هدفه من السيطرة على الجزيرة العالمية ، فما بالك بالعالم .

كشف النقد ضعف بعض تفاصيل آراء ماكندر ، ولكنه لايفند الاسس الاصلية . ربما أن «الرأى الاول يمدنا بفكرة عالمية من الدنيا وشئونها» . وتنص عبارة جون ك . واينانت John C. Winant على أننا سنتذكره لمدة طويلة . وقال ماكندر : « لا توجد منطقة جغرافية كاملة أصغر من سمنطح الارض ولا اكبر منه» . كان آليا في الحصول على تصديق واسع للنظرية التي عبن عنها في وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٨٩ وتقول : «ان باب الجغرافيا السياسية هو الباب المتوج للجغرافيا» . كان جل اهتمامه أن يحث مواطنيه وشعوب الديمقراطيات الاخرى على

الايمان بأن الحقائق الجغرافية ذات أهمية أساسية في نمو الشعوب والدول . كان يؤمن ويعلم أن الدنيا لن تعيش في سلام للديمقراطية إلا اذا فهمت الحقائق الجغرافية فهما تاما . لقد وضعت أسس الجغرافيا الحديثة على آراء ماكندر عن العالم ومناطقه .

١٠ - دراسة في جنون العظمة

Adolf Hitler أدولف هتلر

Mein Kampf ((كفاحي))

كانت كومة الحريق التي التهمت جثتي ادولت هتلر وايفا براون Eva Braun ، في العاشر من ابريل سنة ١٩٤٥ ، محكمة في برلين القائمة على عمق كبير تحت الأرض ، كانت هذه الكومة خاتمة المطاف التي كان يمكن أن يفكر فيها « هتلر » مؤلف الاوبرا ، أعظم من أعجب به الناس اعجابا حماسيا فاتخذة ريتشسارد واجنر Richard Wagner موضوعا لأوبرا جديدة عنوانها Gütterddämmerung ، أو شفق الآلهة « ... جلجل المنظر أسفل الستار عن رواية شجوية عظمى ، افتتحت قبل ذلك بجيل عندما بدأ فوهرر Führer المستقبل سيره نحو السلطة والقوة .

وعندما فبض الحزب النازي ، بقيادة هتلر ، على زمام الحكومة في سنة ١٩٣٣ بعد اضطرابات دامت أكثر من عشر سنوات

مقترنة بأعمال العنف ، روع العالم بتلك الاعمال . كان نظام الحكم متهورا في تثبيت رقابته ، فتركت جميع أنظمة الحكومة الديمقراطية ، وأوففت الآراء المعارضة في غير رحمة ، واضطهدت الكنائس والجمعيات الاخوية واتحادات العمال او ضمت . وقتل اليهود في أعداد ضخمة ، ووجهت التهديدات علنا الى الامم الصديقة المجاورة عن طريق موجات من الدعاية .

ومع ذلك ، فلو اتعب غير الالمانيين انفسهم وقرأوا بامعان مجلدا ضخما عنوانه « Mein Kampf » اى « كفاحى » ، لوجدوا البرنامج كله موضحا امامهم بكل تفاصيله المخجلة . شكرا للرقابة الدولية على المطبوعات ، فقد نجح مؤلفه في أن تقتصر القصة كلها على الطبقة الالمانية الاصلية . وحتى لو ترجم النص الموبوء ، وفاز بحرية التداول بالانجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الاخرى ، لاعتبره كثير من الناس « حلما خياليا لرجل خيالى مخبول » - بدا بالغ الاتساع في مداه ، وطموحا بدرجة لا يصدقها العقل لقد سمي « كفاحى » بحق أدوع ما أخرجته الدعاية في هذا العصر . ولننظر اليه من ناحية وجهة نظر قاضى المحكمة على انه « اعظم الكتب أجراما في القرن العشرين » . انساق امة عظيمة وحلفاؤها لتنفيذ الآراء الخيالية التى تضمنها ذلك الكتاب . فعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، وزع منه في المانيا وحدها خمسة ملايين نسخة .

واذ نما هتلر وتربى في فينا (مثل شخص آخر اسمه سيجموند فرويد Sigmund Freud ، كون وهو في حداثة سنه انطباعات وتعصبات وأحقادا قيض لها أن تحكمه طيلة بقية حياته . صب كل شئ في كتابه « كفاحى » . وتبين الابواب الافتتاحية صورة موجزة هامة من تلك السنوات الاولى . ولد في سنة ١٨٨٩ في براوو Braunau بالنمسا على الساحل

المواجه للحدود الألمانية ، ولذا كان يشعر دائما بأنه ألماني أكثر منه نمساوي . وكان يحتقر ، بنوع خاص ، شعب فينا المنعم وتبعا لرواية هتلر ، هو نفسه ، كانت أولى سننى حياته مليئة بالحرمان والالام والاختفاق وعدم التوفيق وسوء التنظيم . توقفت دراسته الشكلىة فى المدارس وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، ومات والداه وهو فى حوالى تلك السن ، فكافح فى فينا ليكون مصورا ، واذ أخفق فى هذا المضمار حاول أن يشتغل بالمعمار ، بيد أن افتقاره الى التعليم والى المهبة لم يساعده على نيل مأربه .

يدعى هتلر انه أثناء وجوده فى فينا ، قرا الكثير ولاسيما التاريخ . وتأثرت أفكاره ، بنوع خاص بكتاب عن الحرب الفرنسية البروسية التى أوحى اليه بأن يفخر كثيرا بالجنس الالماني ، فافتنع بالمسير الذى كتبه الله لذلك الشعب . وفى الوقت نفسه بدأ يكون كراهية حادة نحو اليهود واحتقارا شديدا للسلافيين Slavs وغير الآريين جميعا ، قرر أن اليهود ، أولا وقبل كل شىء جامعو أموال وانتهازيون دوليون ، وعادة مايكونون اشتراكيين أو شيوعيين بينما السلاف جنس أقل من الجنس الالماني وليس لديهم ثقافة خاصة بهم .

كان لاختلاط هتلر بالديمقراطيين الاجتماعيين فى فينا أن جعله يمتق الدعاية الاشتراكية والشيوعية . ورغم انه كان تلميذا مجدا فى خطط الحرب ، فقد لازمته كراهيته للماركسية طول حياته . ورغم شراسته للقراءة فليس هناك أى دليل على أنه فتح كتابه «كفاحى» . كما كان يبغض الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية أشد البغض . وبدأت هذه البغضاء عندما كان يحضر جلسات الرايخسرات Reichsrath النمساوى فى فينا ولاحظ ما اعتبره طرقا غير فعالة .

وأخيرا ، اذ لم يعد يحتمل استنشاق هواء العاصمة فينا

المقيت ، استقر في سنة ١٩١٢ في ميونيخ التي كان يطلق عليها «مدينة المانية تماما» . وبعد ذلك سره اندلاع نار الحرب العالمية الاولى ، فتقدم للتجنيد في كتيبة بافاريا . وقبل ان تضع الحرب أوزارها ، جرح وتسمم بالغازات السامة ، وزين صدره مرتين بالنياشين ، ورفى الى رتبة جاويز . وحزن لهزيمة المانيا وثارت نائرة غضبه اذ اعتقد أن سبب هذه الهزيمة هم اليهود والماركسيون وانصار السلام . كما أغضبه وأثار حفيظته قيام حكومة ديمقراطية في المانيا بعد الحرب . عندئذ عزم على الاشتغال بالسياسة .

بدأ اشتغال هتلر بالسياسة بعد عودته الى ميونيخ . فعمل ، لوقت ما ، مخبرا سياسيا للجيش أو Wehrmacht (القوات المسلحة) . ودعى لان يكون عضوا في جماعة صغيرة تسمى «حزب العمال الالمانى» فقبل به ، وسرعان ماغير اسم ذلك الحزب الى «حزب العمال الاشتراكي القومي الالمانى» ، وهو نواة الحزب النازي Nazi . وبعد فترة قصيرة ، وبمناورة داخلية ، قبض هتلر على زمام ذلك التنظيم ، وأبطل العادة القديمة العديمة المعنى لاصدار قرارات الحزب بأخذ أصوات الاعضاء . فصمم برنامج الحزب وتطور بأمر هتلر ، لارضاء طبقات العمال ، واستأصل شأفة «القاتلين بالسلم الدوليين» وألفى الهيئات التشريعية ، وأقر مبدأ الطاعة العمياء للقائد Führer دون توجيه أية أسئلة .

واذ كان بذلك الحزب ٢٧٠٠٠ عضو في سنة ١٩٢٣ ، وتؤيد هتلر عصبة عسكرية تحت إمرة القائد لودندورف Ludendorff بينما بدأت حكومة سترسمان Stresemann تترنج ، أدرك هتلر أن الفرصة سانحة ليقبض على السلطة . كان له أتباعه ، فدبر التمرد الشهير لحانة البيرة بوتش Putsch في ميونيخ،

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع ، وقتل فيها ستة عشر من اتباع هتلر في الطريق ، وقبض على هتلر نفسه وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ، خفضت فيما بعد الى سنة واحدة .

بينما كان هتلر سجيناً في القلعة البافارية في لاندرزبرج Landsberg ، وجد متسعاً من الوقت ، لأول مرة ، ليكتب تاريخ حياته . والواقع أن كتاب «كفاحي» كان كتاباً شفويّاً أكثر منه مكتوباً . وقد قاسم هتلر سجنه تلميذه الوفي رودلف هيس Rudolph Hess ، فأملى هتلر الكتاب على هيس الذي كتبه على الآلة الكاتبة مباشرة ، وبدأ ثم الجزء الأول . وإذا كان الهدوء الى الستة عشر شهيداً الذين سقطوا صرعى في معركة تمرد ميونيخ ، كان العنوان الاصلى لذلك الكتاب هو «أربع سنوات ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والحماقة والجبن» . وتم الجزء الثاني في سنة ١٩٢٦ في برختسجادين Berchtesgaden .

وصف أوتو توليس-خوس Otto Tolischus مادة كتاب «كفاحي» بأنه : « ١٠٪ تاريخ حياة المؤلف ، ٩٠٪ عقيدة ، ١٠٪ دعاية » - وهنا تحليل عادل . ويبدو من غير المصدق اليوم ، أن يستولى مثل هذا الكتاب الركيك الطول والردء الكتابة والملىء بالمناقضات والتكرار ، على عواطف أمة ذات ثقافة عالية . يبد أن الموقف كان يسير على نظام موضوع . وهناك تعليقات لودويج لور Ludwig Lore عليه ، التي تنير كل غامض :

« كان الشعب الالماني في عام ١٩٣٣ في حالة تأثر خطيرة بالنظام الفاشيستي . حاولوا إيجاد طريق للعودة الى الحياة العادية واحترام الذات النفسى ، فوجدوا الطريق مسدوداً بالتعصب وسوء الفهم الاعمى . ولم تهتم الدول العظمى بشيء ما غير التعويضات . وانقسمت أحزاب العمال الالمانية ، التي كان من

الممكن أن تمتد يد العون ، الى ستة معسكرات متصارعة . حدث كل هذا امام خلفية ملونة بقومية عالية الضغط . وصل الشعب الالمانى الى نقطة يبدو أن النظام والامن فيها كانا اهم من الحرية السياسية التى صارت مرادفة للعراك وسفك الدماء . فادرك هتلر هذه الامور جيدا واستغلها لاغراضه تساعده مقدراته الهائلة على التنظيم والدعاية ، واستعداد كبار رجال الصناعة الالمان لتمويل حملاته . فما ان استقر حتى سهل الاحترام الفطرى الالمانى للسلطة استقرار القيادة الفاشستية» .

ولحن خبلة «كفاحى» الذى يكرره المرة بعد المرة هو الجنس، ونقاء الجنس ، وتفوق الجنس وسيادته - رغم أن هتلر لم يعرف الجنس فى اى موضع من كتابه ، ولكنه قال ان الجنس البشرى ينقسم الى ثلاث مجموعات هى : خالقو الثقافة الذين لهم مثال واحد هو الآريون أو النورديون (أى الالمان على وجه التحديد) ، وحاملو الثقافة مثل اليابانيين ، ومحطمو الثقافة مثل اليهود والزنوج . ويؤكد هتلر على أن الطبيعة لم تقصد قط أن يتساوى جميع الاجناس ، كما لايتساوى كل الافراد ، فقد خلق البعض متفوقين على البعض الآخر . ولما كان الالمان اقوى جنس فى العالم، وجب ان يحكموا اجناس البشر الاقل منهم . وتبين بضع فقرات من كتاب «كفاحى» وجهة نظر هتلر فى الاجناس الاقل .

كتب هتلر عن الامبراطورية النمساوية يقول :

« طردت تلك الامبراطورية بسبب تكتل الاجناس التى رايتها فى العاصمة ، طردت بسبب كل ذلك الخليط من التشيكيين والبولنديين والمجريين والروثانيين والصربيين والكرواتيين ، كما يوجد فى كل مكان ذلك التطفل الابدئ للجنس البشرى ، الا وهو : اليهود ، ومزید من اليهود» .

وكتب عن الافريقيين :

» ... من الجنون الاجرامى أن يستمر الناس في تدريب نصف قرد بانفطرة الى أن يظنوا أنهم خلقوا منه محاميا ، بينما يبقى الملايين من أفراد الجنس الاسمى ثقافة في مراكز لاتليق بهم على الاطلاق .. انها لخطيئة اى خطيئة ضد ارادة الخالق السرمدى ، اذا ترك المئات ومئات الالوف من كائناته المؤهوبة افضل المواهب ، يهلكون وسط مستنقع طبقة الفقراء ، بينما يدرب الهوتنتوت والزولو والكفير للمهن العقلية .

أما الهنود القوميون : «فأدهشونى دائما ، فردا فردا ، بثرائهم وتعاضهم دون سند حقيقى من الماضى . وأما البولنديون والتشيكيون واليهود والزنوج والآسيويون فجمعوا في قراب واحد على أنهم غير جديرين بالجنسية الالمانية حتى ولو كانوا مولودين في المانيا ويتكلمون اللغة الالمانية» .

وخص فرنسا باحتقار خاص :

» ... من ناحية الجنس ... انها تحرز تقدما عظيما في التحول الى زنوج ، حتى يمكننا أن نتحدث عن دولة أفريقية نشأت فوق أرض أوروبية . لايمكن مقارنة السياسة الاستعمارية لفرنسا الحالية بسياسة ألمانيا في الماضى . واذا استمرت فرنسا في نمط تقدمها الحالى لمدة ثلثمائة عام ، غاصت آخر بقية من الدم الفرنسى في الدولة الخلاسية الملونة المكونة من الافريقيين والاوروبيين» .

يبلغ تعصب هتلر للجنس أوجه في الهجوم الجنونى على اليهود ، كما في هذه الفقرة ، مثلا :

» جميع افكار اليهود في كل هذا واضحة : بلشفة المانيا - اى استئصال الاذكياء القوميين الباحثين عن اليهود - ليصير بالامكان جعل طبقة العمال الالمان تزوح تحت نير جمع اليهود

للاموال . لاتتخذ هذه البلشفة الا كاجراء اولى لمدى هذه الميول اليهودية لغزو العالم ، الى مسافة ابعد . وكما حدث كثيرا فى التاريخ ، فان المانيا هى المحور العظيم فى النضال الجبار . فاذا وقع شعبنا ودولتنا فريسة لأولئك الطفافة اليهود الشرهين والمتعطشين للدماء فى الأمم ، فان الأرض كلها ستقع فى قبضة ذلك الاخطبوط . واذا خلصت المانيا نفسها من قبضته ، اعتبر ذلك الخطر الاعظم «على الامم ، محطما أمام العالم قاطبة ...»

وعلى العموم ، سيحارب اليهود داخل مختلف الهيئات القومية ، بتلك الاسلحة التى تبدو ، تبعا لعقيدة تلك الامم المعروفة ، اعظم فاعلية وتبشر باعظم نجاح . ففى هيئتنا القومية الممزقة من حيث الدم ، تنخر تلك الافكار العالمية التصورية الناشئة من هذه الحقيقة ، أى الميول الدولية التى تستخدم فى نضالها القوة . . حتى تهدم دولة وراء أخرى وتحولها الى كومة من الانقاض يمكنها ان تبنى فوقها عظمة الامبراطورية اليهودية الخالدة» .

وللاحتفاظ بالنقاء الفطرى للآريين ، أى الجنس الالماني السيد ، يجب الا يختلط به جنس اقل . واكد هتلر ان انحطاط الامم العظيمة فى الزمن الماضى قد نتج عن اختلاط الدم وفقدان نقاء الجنس . ولتحاشى مثل هذه الكارثة ، من واجب الدولة ان تتدخل : وحتى اذا احتج الجبناء والضعفاء عن غزو حقوقهم ، وجب على الدولة ان «تحافظ على بقاء دم الامة نقيا حتى تصل البشرية الى ذروة تقدمها . ينبغى للدولة ان تنتشل الزواج من هوة عار الجنس وتقده كوسيلة لانتاج اشباه آلهة ، بدلا من خلق كائنات بين الانسان والقرد» .

كان عتار يؤمن فى تعصب بالتفوق الفطرى للجنس الآرى على سائر الاجناس ، فأخذ يعلن أنه من واجب الجنس السيد وامتيازها ، ان يهزم الاجناس الاخرى . ويستغلها ويطردها او

يبيدها من أجل مصلحته هو . وبما أن ألمانيا مزدحمة بالاهلين وتحتاج الى مزيد من الارض ليعيش فيها قومها ، فمن حقها بصفتها القوة النوردية العظمى ، أن تستولى على أرض سلافية، فتتزع السلاف من أرضها وتضع فيها الالمان . وبذا ، سوف تنتفع البشرية كلها ، على مر العصور الطويلة ، من عادة امتداد الجنس الاعلى واتحاد الشعوب الالمانية المشتتة ، تحت حكم واحد «لن يضمن لأية أمة حرية البقاء الا مساحة واسعة مناسبة . . فاما أن تكون ألمانيا قوة عالمية ، واما الا تكون هناك ألمانيا اطلاقا » .

أما الامتداد الشاسع الذى يصوره هتلر فيتم أساسا على حساب روسيا . نظر الى الشرق بنهم وتطلع الى مايمكن تنفيذه: «فاذا ضمت جبال أورال بموادها الخام الهائلة ، وأوكرانيا ذات حقول القمح التى يخطئها القياس ، الى حدود ألمانيا ، كان ذلك انسب . » فمن وأجب ألمانيا انقاذ الشعب الروسى من القادة البولشفيك . واستطرد يقول : «اذا تحدثنا عن الارض فى أوروبا اليوم ، فلن يطرأ على بالنا ، بصفة مبدئية غير روسيا وولاياتها الواقعة على الحدود . يبدو أن الحظ هنا يشير علينا ، فبتسليم روسيا الى البلشفية ، نسلب الامة الروسية ذلك الدكاء الذى سبق أن حقق وضمن بقاءها كدولة . . نضجت الامبراطورية العظمى فى الشرق ليصيبها الانهيار » .

كذلك قال هتلر ، القوة هى تحقيق الغزو . . . ما من شعب على ظهر البسيطة يملك شيئا مثل ياردة مربعة من الارض أكثر من رغبة أعلى أو حق أسمى . . فحدود الدول يصنعها الانسان ويغيرها الانسان . فاذا نجحت أمة فى الاستيلاء على قدر من الارض لا حق لها فيه ، فلا يكون هذا سببا فى التزام أمة أعلى منها بأن تعترف به الى الابد . فعلى أكثر تقدير ، يبرهن هذا على قوة الغازى وضعف الامم الاخرى . وفى هذه الحالة يكون الحق للقوة وحدها .

اعترف هتلر بأنه كانت هناك حلول أخرى غير التوسع في رقعة الأرض لمعالجة الزيادة السريعة في عدد سكان ألمانيا . ومن هذه الحلول تحديد النسل ، وهذا مرفوض لأنه لا يتفق ونظرية الجنس السيد . وهناك حل آخر لجأ إليه حكام ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، وهو التوسع في انتاج المصنوعات للاسواق الخارجية ، أى زيادة التصنيع . وهذا حل لايعجب هتلر لانه أراد ان تغذى ألمانيا نفسها بنفسها وتعتمد على الاكتفاء الذاتى . وزيادة على ذلك فقد لقي معارضة عنيفة لانه يخلق طبقة عمال ريفيين ضخمة نتيجة للنظام الصناعى الضخم . والحل الثالث هو زيادة انتاج الأرض الموجودة حالياً . ولكن هتلر اعترض على هذا بقوله انه حل جزئى ومؤقت ، واستنتج ان الحل أو العلاج الحقيقى الوحيد هو أن تستولى ألمانيا على أراض جديدة وراء الحدود الحالية ، وبدا يتمكن الكثير من الالمان أن يعيشوا عليها .

وتلخص الفقرة التالية ملخص أهداف هتلر البعيدة المدى فيما يختص بعدد سكان الأرض .

... لدينا الآن ٨٠ مليون المانى فى أوروبا ! وهذه السياسة الخارجية لأتكون صحيحة الا اذا كان عدد السكان بعد حوالى مائة عام ٢٥٠ مليون المانى فى هذه القارة ، ولايعيشون محشورين كعمال مصانع من أجل بقية سكان العالم ، وإنما كفلاحين وعمال يضمن كل منهم معاش الآخر بعمله .

وبالاختصار ، تنبأ هتلر بأن سكان ألمانيا سيكونون أكثر من ثلاثة أضعاف سكانها الحاليين ، فى المائة سنة التالية ، وان كل شخص سيملك رقعة من الأرض ضعف ماكان يملك الفرد من قبل . كذلك راقت هتلر فكرة السكان ذوى الرقعة الفسيحة من الأرض لاسباب «جغرافية عسكرية» ، اذ تكون أقل سهولة على العدو (ظلال ماكندر هوشوفر *Shades of Mackinder Haushofer*)

ولكى يحقق هتلر الاهداف التى رسمها طموحه المحلق عاليا، اقترح استخدام ثلاث طرق . الدعاية والدبلوماسية والقوة ... لم يكشف المؤلف عن نفسه وعن خطته فى اى موضع من كتاب «كفاحي» أكثر مما كشف فى مناقشته لطرق الدعاية التى اعتقد أنها أحد أسلحة النازى الفظيعة والاعظم فعالية . وقال ماكس لرنر Max Lerner عن هتلر : « ربما كان أعظم استاذ فى الدعاية والتنظيم ، فى التاريخ الحديث » . ثم استطرد يقول : «ولكى نجد له ندا ، يجب أن يعود المرء الى لويالا Loyala واليسوعيين» . ولكى يصل هتلر بفن الدعاية الى درجة الكمال ، درس طرق الماركسيين فى الدعاية ، وتنظيم وطرق الكنيسة الكاثوليكية ، والدعاية البريطانية للحرب العالمية الاولى ، والاعلان الأمريكى ، وعلم النفس لفرويد Freud ، فكتب يقول :

«ليست وظيفة الدعاية ... أن تزن وتتأمل فى حقوق مختلف الناس ، ولكن لتؤكد الحق الوحيد الذى أعدته لتناقشه وليس عملها القيام بدراسة موضوعية للحقيقة طالما كانت فى صالح العدو ، ثم تضعها أمام الجماهير بعدالة علمية ، وانما عملها هو خدمة حقوقنا نحن ، دائما وبغير تردد . كان من الخطأ التام مناقشة جرائم الحرب من وجهة النظر التى لايمكن أن تكون المانيا وحدها هى المسئولة عن اندلاع نار تلك الكارثة . ولكن من الصواب وضع عبء اللوم كله على أكتاف العدو ، حتى اذا كان هذا لايتفق والوقائع الحقيقية ، كما حدث فعلا .. ليس الغرض من الدعاية تزويد الشبان المتحمسين بمسايلهم ، ويقتنعهم ، وما اعنيه هو اقناع الجماهير» .

واكد هتلر على أهمية التركيز والتكرار فقال :

« ان قبول الجماهير لما يسمعونه محدود جدا ، وذكاءهم بسيط ، ولكن قدرتهم على النسيان هائلة . ونتيجة لهذه الحقائق

يجب أن تكون كل الدعاية الفعالة قاصرة على بضع نقط قليلة ، ويجب أن تضرب على وتر هذه الصيحات باستمرار حتى يفهم الجمهور ماتريد منه أن يفهمه بصيحتك ، وبمجرد الانتهاء من صيحتك هذه ومحاولة أن تكون متعدد النواحي ، يخبو الاثر لان الحشود لاتستطيع هضم المواد المقدمة اليها ولا أن تحتفظ بها . وبهذه الطريقة تضعف النتيجة حتى تمنحى تماما فى النهاية» .

يتضح ايمان هتلر بالدعاية باعتراؤه أنه «يمكن بالدعاية اللبقة والقاطعة جعل الجمهور يؤمن بأن الفردوس هو الجحيم ، وأن الجحيم هو الفردوس» . فيجب أن تلائم الدعاية ، بأعظم طاقتها ، أقل ذكاء محدود . «وتهدف دائما وأساسا الى العواطف، وقليلًا جدًا الى عقل الانسان المناسب» . لا يجب على الدعاية أن «تعمل بالدقة العلمية ، مثلما يجب على ملصقات الحوائط الا تعمل بفن ... فلما كانت جموع الجماهير التى تصل اليها ضخمة ، وجب أن يكون مستوى ذكائهم منخفضا» .

كذلك مما يفيد الدعاية بعض حيل سايكولوجية معينة . فمثلا يجب الا يحاول الانسان ، فى الصباح ، تحويل فكرالجمهور الى وجهة نظر مخالفة . فالانوار الخافتة مفيدة ، وفى المساء عندما يكون الناس متعبين وانخفضت قدرتهم على المقاومة . فانه «يسهل نسبيا الحصول على استجابتهم العاطفية الكاملة» . وهناك أداة قوية أخرى وهى طلب اقتراح الجماهير عندما تكون لدى الرعاع فرصة الاشتراك فى المواضيع والمظاهرات المتنوعة التى هى من خصائص النظام النازى . وكما عبر عن ذلك هتلر :

« ... مظاهرات الجموع الضخمة التى يسير فيها مئات الالوف من الرجال لتثبت فى الفرد الصغير الحقيق روح الزهو بأنه رغم كونه دودة حقيرة ، فهو جزء من تنين عملاق تحرق

أنفاسه النارية ، في يوم ما ، تلك الطبقة المتوسطة البغيضة ،
وبذا تحتفل دكتاتورية العمال بانتصارها النهائي» .

يبدى هتلر ، ثانية ، أقصى احتقار للجموع ، ثم ثالثة ،
وهكذا ، في مثل هذه العبارات : «قطع من الاغنام ذوات الرعوس
الخاوية» ، «نجد الغباوة» وفي اعتقاده الراسخ ، الذي يعبر عنه
كثيرا ، بأن البشرية في حالة الجموع عبارة عن حشد كسلان جبان
وانشوى وعاطفى وغير جدير بالتفكير المعقول .

وأخر ما في طرق الدعاية الهتلرية ، مبدأ الكذبة الكبرى ،
فيقول : «هذه النظرية صحيحة تماما ، فان عظم الكذبة عامل
قوى يجعل الناس يصدقونها . . . فمع السداجة البدائية للجموع
تكون الكذبة العظمى أكثر تأثيرا من الكذبة الصغيرة ، لانهم كثيرا
ما يكذبون في أمور تافهة ، ولكنهم يخجلون جدا من النطق بكذبة
كبيرة ضخمة . اذن فلن تشبه الجموع الكبيرة في كذبة جسيمة،
ولا تستطيع تلك الجموع اطلاقا أن تكون لها الوقاحة أن تفند
الحقيقة إلى مثل ذلك الحد» . وبالاختصار كلما عظمت الكذبة
كانت أكثر تصديقا لدى الجماهير .

وهناك مبدأ دعاية عظيم آخر وهو مبدأ الشيطان الفرد .
لاتترك الجمهور بتقديم عدد كبير من الاعداء وتطلب منهم أن
يمقتوهم في وقت واحد . اقتصر على خصم واحد ، وركز كراهية
الجموع على هذا العدو . كان اليهود في عرف هتلر هم الاعداء
العالميون . نبغض النظر عما اذا كان يحدث ضد الديمقراطية أو
الماركسية أو معاهدة فرساي أو فرنسا أو أى هدف آخر ، فانه
يذكر اليهود دائما بالتآمر والتخطيط ويحاولون بعقوبة شيطانية
أن يهدموا ألمانيا ويحطموا الثقافة الآرية . ومن أمثلة هذا ، تلك
الصيحة الهستيرية التى يقول فيها :

» ... ان فرنسا اكبر عدو فظيع ، وستبقى كذلك . فهذا الشعب الذى يتحول باطراد الى زنوج ، ويوطد روابطه بأهداف السيادة اليهودية على العالم ، خطر داهم على بقاء الجنس الابيض فى أوروبا . لان التلوث بالدم الزنجى على نهر الراين فى قلب أوروبا يحافظ على التعطش السادى للانتقام من هذا العدو الورائى لشعبنا مثل حساب اليهود الشديد البرودة ، وهكذا يبدأ فى تلويث القارة الاوروبية فى قلبها نفسه ، ويجرد الجنس الابيض من اسس بقاء الملكية عن طريق العدوى بالانسانية الاقل» .

وقال هتلر : « سهل عمل الدعاية باشراف الحكومة على التعليم . فالتعليم الكثير فى الكتب خطأ ، ويجب أن يحتل التعليم البدنى والصحة البدنية المقام الاول . وثانيا تنمية الشخصية ولاسيما بالفضائل العسكرية والطاعة والوفاء وقوة الارادة وضبط النفس والقدرة على التضحية ، والزهو بالمسؤولية . وفى المقام الثالث يأتى النشاط الذهنى . ويجب أن يكون تعليم البنات اعدادا للامومة . كان هتلر يشمئز من فكرة تعليم الجميع ووصفه بأنه سم مفكك ابتدعته الاباحية لتحطيمها هى نفسها . فلكل طبقة ولكل قسم من كل طبقة تعليم واحد ممكن» . وكان يعتقد أن جموع الشعب العظمى يجب أن تتمتع بنعمة الامية .

يجب أن يكون تعليم المجموعة الاخيرة قاصرا على «بث الافكار العامة التى تنقش بالتكرار فى قلوب الناس وذاكرتهم» . وليكن المبدأ الرائد هو أن الطفل ملك للدولة ، والهدف الوحيد من التعليم هو تدريب آلات للدولة .

تتمشى آراء هتلر فى التعليم الشعبى مع آرائه فى الديمقراطية عموما . ففى كل مناسبة ، كان يسخر من عدم صلاحية الدولة الديمقراطية :

« الديمقراطية الغربية اليوم مقدمة للماركسية التي بدونها لا يمكن التفكير فيها . انها تمد الوباء العالمى بالزرعة التي تستطيع جراثيمها ان تنتشر فيها . وقد خلق مبدا البرلمان ، في اقصى صوره ، «شدوذا من الزوائد والنار» ، كما يحزننا ان نقول ، تبدو النار لى على الفور ، انها انطفأت ... لان هناك شيئا يجب الا ننساه ، وفي هذا ايضا ، لا يمكن ان تحمل الغالبية محل الفرد ، ليس ممثلا للغباء فحسب ، بل وللجبن ايضا . وماعاد، مائة رأس خاو تكون رجلا عاقلا واحدا ، ولاياتى قرار بطولى من مائة جبان» .

راى هتلر ان الديمقراطية هى «النظرية الخداعة التي سيلوح بها اليهود - اى النظرية القائلة بأن جميع الناس خلقوا متساوين ، بينما اى مذهب ذى اجماع عالمى وحقوق متساوية ، ضار ومدمر» .

استبدل هتلر مبدا الديمقراطية بالمبدا الرائد . ركز على الجموع التي يتوقع منها الطاعة العمياء دون توجيه اسئلة . كان الفوهرر فوق الجميع ، يتحمل مسئولية كل مايعمل وكل مالم يستطيع عمله .

واذ رسم هتار خطته لالمانيا وللعالم فى كتابه «كفاحى» ، تمسك به تماما الا فى انحراف واحد هام ، هو الميثاق النازى السوفيتى لعام ١٩٣٩ . كان يشق عليه ان يستسيغ الاتفاق الروسى ، كما يتضح من هذا الحديث فى «كفاحى» :

«لاتنس ان حكام روسيا اليوم مجرمون عاديون ملوثون بالدماء . انهم حثالة البشرية الذين حبتهم الظروف فاكتسحوا دولة عظمى فى ساعة مأساة ، فقتلوا وابادوا الولا من روادها الاذكيا فى وحشية متعطشة للدماء ...»

بما ان هنار اوضح نواياه بجلاء في «كفاحي» قبل ان يتبوا مركز الحكم في ألمانيا ، وقبل بدء الحرب العالمية الثانية باكثر من عتر سنوات . فلماذا لم يهتم سياسيو العالم بتحذيراته ؟ يرجع بعض تجاهلهم آياد الى جو الصلح العام والتفكير المفعم بالأمال والرغبة في السلم السائد وقتذاك بأى ثمن . وهناك عامل آخر هو القصة المدهشة للرقابة الدوكية . ولما رفض هتلر التصريح بترجمة كاملة لكتابه «كفاحي» ، لم تتوفر باللغة الانجليزية الا طبعة معدلة حذف منها ماأراد حذفه ، حتى سنة ١٩٣٩ . وفي تلك السنة والحرب وشيكة الاندلاع ، قام ناشران أمريكيان احدهما يحمل موافقة هتلر ، والثاني لا يحمل اية موافقة ، قاما باصدار طبعتين لم تتدخل فيهما الرقابة . وفي فرنسا ، في سنة ١٩٣٦ ، عن طريق ناشر هتلر ، اقام هتلر دعوى لنشر ترجمة كاملة دون تصريح منه ، الذى فيه مخالفة لقوانين حقوق التأليف العالمية . كما نشرت في لندن طبعة مكثفة حذفت فيها معظم الفقرات المهاجمة لفرنسا ، كما حذف فيها قسم يحيد الحرب ، وبذا خففت من حدة انغمة الكتاب ليصير زائفا ومضللا .

في تلك الاثناء كانت ملايين النسخ من كتاب «كفاحي» الكامل تباع وتداول في ألمانيا نفسها . وقدمت نسخة منه هدية لكل عروسين جديدين ، بينما كان المفروض في كل عضو بالحزب النازى وكل موظف مدنى ان يكون لديه نسخة منه . والطبعات التى ظهرت في ألمانيا بعد ذلك حذفت الهجوم على روسيا وفرنسا لاختفاء أغراض هتلر وتهدة الاعداء الاقوياء الى حالة نوم .

اذا نظر الى كتاب «كفاحي» من حيث الماضي ، يقرر المؤرخون ان هتلر لم يفهم شيئا في التاريخ . ويقول علماء الاجناس البشرية ان آراء هتلر في الاجناس هراء ، ويقول علماء التربية ان آراءه ونظرياته عن التعليم ترجع كلها الى العصور الوسطى ، وهى فى

جملتها رجعية . ويحتج علماء السياسة على مذاهبه الحكومية
السلطوية وسوء تصويره للديمقراطية ، بينما يقرر خبراء الادب
انه لايعرف كيف يكتب فقرة او ينظم بابا . ولخص ويجرت
Weigert هذا بقوله :

كان هتلر نصف المتعلم خليطا من عدة تأثيرات : فن ماكيافيللى
فى ادارة شئون الدولة ادارة تتنافى مع الاخلاق ، والقومية
والرومانتيكية التصوفية لواجنر Wagner ، والتطور العضوى
لداروين ، والتعصب الزائد لجنس بعينه لجوبينو Gobineau
وهاوستون ستوارت تشمبرلن Houston Stewart Chamberlain
والمركب المسيحى لفيخت Fichte وهيغل Hegel ،
والزهو الحربى الطنان لتريتخك Treitechke وبرنهاردى
Bernhardi ، والتأمر المالى للنبيلى البروسى المنبوذ ...
اما هوشوفر فكان حلقة اتحاد بين النظريات والعمل ورغم كل
هذه العيوب الواضحة، فان كتاب «كفاحى» كما وصفه أحد النقاد
اللاذعين واسمه هندريك وليم فان لون Hendrik Willen van Loon

« هو احدى الوثائق التاريخية الخارقة للعصر كله ، فيضم
سداجة جان جاك روسو ، مع الغضب الجنونى لأحد أنبياء العهد
القديم » . وأطلق عليه نورمان كزنز Norman Cousins :
«هو أعظم كتب القرن العشرين تأثيرا ... ولكل كلمة فى «كفاحى»
يجب أن يفقد ١٢٥ نفسا ولكل صفحة منه ٧٠٠ نفس ، ولكل
باب أكثر من ٢٠٠٠ نفس» . وبالطبع انبعثت قوته من كونه
انجيلا سياسيا للشعب الالمانى ، وقاد سياسة الرايخ الثالث
من سنة ١٩٣٣ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

من سوء حظ العالم أن آراء هتلر لم تمت معه فمازال أتباعها

كثيرين في ألمانيا ، بينما استعارت الحكومات الشيوعية كثيرا من تلك الآراء وما فتئت تستعملها على نطاق واسع . وسيظل الدكاتوريون في كل مكان يجدون مصدر مادة أولية لأغراضهم الشريرة في كتاب «كفاحي» بنفس الطريقة التي ظلوا ، في القرون الأربعة الماضية ، يعملون بآراء ماكيافيلي .

دنيا العلوم

١١ - الانقلاب السماوى

نيقولاوس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus

انقلاب فى الافلاك السماوية

منذ العصور البدائية والانسان يدهش لمنظر الاجسام السماوية - الشمس والقمر والكواكب والنجوم وحركاتها الدائبة . ولم يكن شروق الشمس وغروبها ، وتزايد رقعة القمر وتناقصها ، وتعاقب الفصول وتقدم الكواكب وتأخرها ، كم تكن هذه كلها حقائق ملحوظة ، بل كانت لها أمور عديدة تؤثر على البشر وعلى حياتهم اليومية . اذن فليس من الغريب أن تنشأ حول الظواهر السماوية أعداد ضخمة من الاساطير والديانات .

وبتقدم الحضارة حاول الفلاسفة تفسير حركة الاجسام السماوية بمصطلحات معقولة . واكثر قدامى العلماء والمفكرين تقدما فيما يختص بأمور علم الفلك ، هم الاغارقة ابتداء من فيثاغورث Pythagoras فى القرن الخامس ، وأريستو Aristotle فى القرن الرابع قبل الميلاد . وكان كلاوديوس

بطليموس Claudius Ptolomy المصرى الذى كان يعيش فى الاسكندرية ، بتنظيم وتبويب الدراسة الكلاسيكية الخاصة به وبالعصور السابقة فى مجموعة من النظريات السهلة الفهم . فوضع النظام البطليموسى الذى أطلق عليه « الأعمش Almagest » والذي سيطر على عقول الناس لمدة حوالى ١٥٠٠ سنة ، واعتبره العالم الفكرة الحقيقية عن الكون .

بنيت نظرية بطليموس على فكرة أن الارض كتلة ثابتة خاملة عديمة الحركة ، تقع فى وسط الكون وتدور حولها جميع الاجرام السماوية ومنها الشمس والنجوم الثابتة . كان الاعتقاد السائد آنذاك هو أن الأرض مركز مجموعة من الكرات شدت اليها الكواكب شدا وثيقا . أما النجوم فكانت مشدودة الى كرة أخرى خارج هذه المجموعة ، وبدور الجميع دورة واحدة كل أربع وعشرين ساعة . فسرت هذه الافكار المعقدة عن الكواكب ، بالدوران حول محيط دائرة عظمى ، بينما تدور كرات الكواكب فى الاتجاه المضاد لدائرة النجوم ، الا أن هناك قوة أعظم تجذبها . واعتبر زحل أبعد الكواكب عنا وأقربها الى فضاء النجوم ، ولذا يستغرق مدة أطول لاتمام دورته . ولما كان القمر أقرب الكواكب الى المركز ، فإنه يتم دورته فى أقصر وقت . ويصف روزين Rosen الفكرة البطليموسية فى هذه العبارات :

«يقول المذهب المتوارث ان الكواكب التى تدور نحو الشرق فى معظم الاوقات ، تبطىء فى دورانها بين وقت وآخر حتى تقف، تماما ، ثم تعكس اتجاه دورانها مرة أخرى ، وتستأنف رحلتها نحو الشرق ، وتكرر دورات التغير بصفة لا نهائية» .

وهكذا كان الكون ، حسب نظريته ، فضاء مغلقا يحده غلاف كروى . ولم يكن هناك شيء بعد ذلك الكون .

ساعد عاملان على القبول العام لنظريات بطليموس ، كلاهما

من تفكير الطبيعة البشرية : فأولا : اعتمد هذا النظام على المظاهر الطبيعية ، اعتمد على الأشياء كما يراها أى شخص بنظرة عابرة .
وثانيا : اشبعت هذه فضول الانسان ، فما امتع أن يعتقد المرء أن الارض مركز الكون ، وأن الكواكب والنجوم تدور حولها . فيبدو أن الكون كله مصنوع من أجل الانسان .

بقى هذا النظام الجميل سليما في أساسه حتى مجيء العصر العظيم ، عصر اليقظة الذهبية في أوروبا المسمى بالنهضة . وكان تحطيم ذلك النظام من عمل نيقولاوس كوبرنيكوس « الكاهن والمصور والشاعر والطبيب . وهو واحد من «الرجال العالميين» ، اشتهرت من أجله النهضة .

كانت فترة السبعين سنة لحياة كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) من أعظم الفترات إثارة ومغامرة في تاريخ أوروبا . فيها اكتشف كولمبوس قارات جديدة ، وفيها أبحر ماجلان حول الأرض ، وقام فاسكودي جاما بأولى الرحلات البحرية إلى الهند . وأعلن مارتن لوتر Martin Luther إصلاحه البروتستانتي وخلق ميشيل انجلو Michelangelo عالما جديدا من الفن ، ووضع باراكسوس Paracelsus وفيساليوس Vesalius أساس الطب الحديث ، وازدهر ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci « ذلك النابغة العالمى العظيم » كمصور ونحات ومهندس ومعماري وعالم طبيعي وأستاذ في علم الأحياء وفيلسوف . ياله من عصر موات لذهن المعى آخر هو كوبرنيكوس ليقدّم للعالم نظاما جديدا للكون .

ولد نيقولاوس كوبرنيكوس على شاطئ نهر الفستولا Vistula ببلدة تور Torun في بولندا ، وهي بلدة تابعة لرابطة التجارة Hanseatic League . وكان عمه لوكاس واتزلرود Lucas Watzelrode ، الذى صار فيما بعد أسقفا حاكما لمقاطعة

ارميلاند Ermeland ، ذا تأثير كبير في مستقبل حياته الأولى . بدأ تعليم نيقولاوس طويلا ومتنوعا بالمدرسة الاعدادية في تورون ، ثم في سنة ١٤٩١ بجامعة كراكاو Krakow . ذهب الى هذا المعهد بناء على شهرته كأحد المراكز الاوروبية الاولى للرياضيات والفلك . وبعد ذلك بخمس سنوات ، سافر الى ايطاليا ليكمل دراسته في بولونيا Bologna في جامعة من أقدم وأشهر الجامعات الاوروبية . فشغلت دراسة القانون الكنسي والفلك وقته . ثم أمضى سنة في روما يلقي المحاضرات في الرياضيات وعلم الفلك . ومكث حوالي خمس سنوات في بادوا Padua وفيرارا Ferrara يدرس الطب وقانون الكنيسة ، وبدا اثم منهجه العلمى وتسلم الدكتوراه في القانون الكنسي من فيرارا سنة ١٥٠٣ .

عين كوبرنيكون ، بوساطة عمه ، رئيسا قانونيا في كنيسة فرونبورج Frauenburg حيث قضى السبع والثلاثين سنة الباقية من عمره بعد عودته من ايطاليا في سنة ١٥٠٦ .

كانت واجبات كوبرنيكوس الكنسية متعددة النواحي فقام بدور طبي فعال بين زملائه بالكنيسة ، وكذلك للشعب ، وساعد في الدفاع عن مدينته في الحرب بين البولنديين والبروسيين والفرسان التيوتونيك Teutonic واشترك في مؤتمر الصلح الذى تبع ذلك ، وقدم مشورته لاصلاح سك النقود والأوراق النقدية وأشرف على الاجزاء النائية من الدوقية . ولكى يرفه عن نفسه قام بالتصوير ، وترجم الشعر الاغريقى الى اللغة اللاتينية .

كان علم الفلك وقتئذ أحد الأنشطة الكثيرة التى مارسها كوبرنيكوس المتعبد الميول والمعلومات . ولكنه صار تدريجيا متعته الاولى بعد أن طور آراءه عن الظواهر الفلكية - تلك الآراء

التي من الجلى أنها جاءت من زمن مبكر في حياته ، وقواها عنده
دراسته في كراكاو وفي ايطاليا - فقام بأبحاثه منفردا في هدوء دون
مساعدة أو استشارة أحد . اتخذ لنفسه مرصدا من سور واق
مبنى حول الكنيسة .

كانت الادوات الفلكية التي استطاع كوبرنيكوس الحصول
عليها بدائية وغير دقيقة . باشر عمله ذلك قبل اختراع التلسكوب
بحوالى قرن . فاستخدم لأغراض القياسات مزولة وجهاز ربعية
(عبارة عن قطعة خشبية ذات ثلاثة جوانب) صنعه بنفسه لقياس
زوايا ارتفاع النجوم والكواكب ، كما اتخذ اسطرلابا من كرة داخل
حلقة عمودية وأخرى أفقية . وعلاوة على ذلك ، كان الجو غير
ملائم للارصاد الفلكية . فمجاورته لبحر البلطيق والانهار الموجودة
هناك أحدثت الضباب والسحب وكانت الايام والليالى الكاملة
الصحو ، نادرة . ورغم هذا ، ظل كوبرنيكوس يعمل في كل فرصة
ممكنة ، سنة بعد أخرى ، في حساباته الفلكية .

كانت النظرية الثورية التي حاول كوبرنيكوس اثبات صحتها
أو خطئها ، مناقضة تماما للنظام البطليموسى الذى ظل مدة طويلة
يحظى بالاحترام والتقدير . كانت تلك النظرية ، باختصار ، هى
أن الارض ليست ثابتة وإنما تدور حول محورها مرة في كل ٢٤
ساعة ، وتدور حول الشمس مرة كل سنة . كانت تلك الفكرة
غريبة على القرن السادس عشر حتى أن كوبرنيكوس لم يجرؤ
على تقديمها الا بعد اقتناعه تماما بأن لديه من المعلومات مايمكن
دحضه ومن ثم مضت ثلاثون سنة قبل اظهار نظرية كوبرنيكوس
الى العالم .

والواقع أن بعض قدامى الفلكيين الاغريق اقترحوا أن عالمنا
قد يكون عالما مركزه الشمس بدلا من أن تكون الارض مركز الكون .
فمثلا علل اريستارخوس Aristarchus (كوبرنيكوس

القديم) في القرن الثالث قبل الميلاد ، شروق الشمس وغروبها ، بضرورة دوران الأرض حول محورها . غير أن هذا الفرض واشباهه من فروض الفلكيين الآخرين ذوى الآراء المائلة ، قد نبذها أريسطو وبطليموس من أجل نظرية الكون الذى مركزه الأرض . وقد عرف كوبرنيكوس هذه النظريات المبكرة من قراءته للادب الكلاسيكى ، وربما أوحى اليه باعادة فحص هذه المسألة . واعتقد كوبرنيكوس أن أريستارخوس ، الذى عاش قبله بمدة ١٨٠٠ سنة ، قدم تفسيراً لحركات الاجسام السماوية أبسط كثيراً مما فى النظام البطليموسى المعقد .

ربما كتب كوبرنيكوس شرحاً عاماً موجزاً لنظريته الجديدة فى عصر مبكر قد يرجع الى عام ١٥١٠ . واذا كان عنوان ذلك المقال هو « التعليق الصغير Commentariolus » ، فلم ينشر أبان حياته ، غير أن عدداً من النسخ الخطية تداوله طلبة علم الفلك ولا تزال لدينا نسختان خطيتان ، على الأقل ، باقيتين الى الآن . وأشار كوبرنيكوس ، فى «التعليق الصغير» الى أنه بدأ أبحاثه لمبدأ له نظريات بطليموس عن الكون معقدة جداً وغير معقولة على الإطلاق ، ولم تقدم تفسيراً مقبولا للظواهر السماوية . والنتيجة الرئيسية التى توصل اليها كوبرنيكوس تقول : ليست الأرض مركز المجموعة الشمسية ، ولكنها فقط مركز مدار القمر ، وأن جميع الكواكب تدور حول الشمس . وقد كان ذلك «التعليق الصغير» مرحلة واضحة فى تطور آراء ذلك الفلكى العظيم .

من المعلوم تماماً ، أن أروع مؤلف لكوبرنيكوس ، وهو الذى ظل يعمل فيه جاهدة مدة ثلاثين سنة ، ما كان له أن يصل الى المطبعة ، وبالتالي يفقد ، لولا جهود عالم المانى شاب . ففى صيف عام ١٥٣٩ جاء الى فراونبورج لزيارة كوبرنيكوس أستاذ الرياضيات من جامعة وتنبرج ، ويبلغ من العمر خمسا وعشرين

سنه ، واسمة جورج يواقيم رتيكوس George Joachim Rheticus فاذ جذبته شهرة كوبرنيكوس المطردة النمو ، جاء ليتحقق أولا من القدر الحقيقي لسمعته . كان يتوقع البقاء معه لبضعة أسابيع فحسب ، ولكن كوبرنيكوس رحب به ترحيبا حارا جعله يمكث معه أكثر من سنتين . اقتنع رتيكوس بأن مضيغه نابغة من الطراز الاول . ظل يدرس مخطوطات كوبرنيكوس لمدة ثلاثة أشهر ، وناقشها مع مؤلفها . ثم كتب رتيكوس تقريرا عن آراء كوبرنيكوس وأرسله في صورة خطاب الى استاذ السابك يوحنا سكونر Johann Schöner في نورمبرج Nuremberg فطبع ذلك الخطاب في دانزج Danzig سنة ١٥٤٠ باسم «التقرير الاول Narratio Prema . كان ذلك « التقرير الأول » لكتابه رتيكوس ، اول حقيقة نشرت عن نظريات العالم الفلكي البولندي التي هزت العالم . والواقع أن ذلك الكتيب تناول بالتفصيل جزءا فقط من نظرية كوبرنيكوس ، وهو الجزء الخاص بحركات الارض . وتوقع رتيكوس أن يتبع تقريره الاول بتقارير أخرى ، الا انه لم تكن ثمة حاجة اطلاقا الى هذه التقارير . وأبدى اعجابه الذي كاد يبلغ حد التملق بالثناء الحار الذي أضفاه طوال نصوص ذلك المقال على «سيده الدكتور» .

الى هذا الحد تردد كوبرنيكوس تماما في نشر مؤلفه الكامل . كان من عادته الوصول بأبحاثه الى درجة الكمال . وشعر بضرورة التاكيد واعادة التاكيد من كل ملاحظة . وتمدنا النسخة الخطبة الاصلية التي اكتشفت في براغ Prague في منتصف القرن التاسع عشر بعد ضياعها مدة ثلثمائة عام ، تمدنا بدليل على ست مراجعات مفصلة . وبالإضافة الى هذه الترددات ، قد يكون كوبرنيكوس قد عاقه عدم موافقة الكنيسة القوي ، وجعل الاصلاح البروتستانتي والنضوج الذهني للنهضة ، الدوائر الدينية تشك في نظرية دوران الأرض ، كما تشك في أية آراء تسبب الأبتعاد عن

التعاليم الاصلية . ولما كان كوبرنيكوس رجل كنيسة مؤمنا ، فلم يرض القيام بدور الهرطوقي أو بدور الشهيد .

واذ قوبل «التقرير الاول» بالترحيب ، وتوسل رتيكوس وغيره والحواء على كوبرنيكوس كى يسمح بالنشر الكامل ، رضى هذا اخيرا وعهد بالنسخة الخطية الى رتيكوس ليحملها الى نورمبرج ويشرف على طباعتها . بيد أنه قبل ان يتم ذلك العمل عين رتيكوس أستاذا بجامعة ليبزيغ Leipzig كاهنا لوثرانيا في تلك المدينة فعهد بدوره بتلك المسئولية الى أندرياس أوسلاندر Andreas Oslander

من الجلى أن القلق ساور أوسلاندر من أجل الآراء المتطرفة التى كتبها كوبرنيكوس . فحذف مقدمة كوبرنيكوس للجزء الاول، بغير استئذان ، واستبدلها بمقدمة من عنده دون أن يذكر اسمه ، وانما ذكر فقط أن الكتاب يضم مجرد فروض تهم علماء الفلك ، وأنه لم يكن من الضروري أو حقيقيا أو محتملا أن الارض تدور ، أو بمعنى آخر ، أنه لايلزم أن يؤخذ ذلك الكتاب مأخذ الجد . لاشك فى أن أوسلاندر كان حسن النية فى محاولته تحاشي النقد العدائى ، وكما ذكر ميتسوا Mizwa : «ربما أن أوسلاندر قد أسدى ، عن غير قصد ، خدمة جلية لكوبرنيكوس ، أعظم مما كان يدرك ، للمحافظة على ذلك المؤلف الهام . وبسبب هذه المقدمة الزائفة والمشبطة للعزائم والمكتوبة بمهارة كما لو كانت باسم المؤلف الى قارئ نظريات ذلك المؤلف ، غفلت الكنيسة عن الاهمية الثورية لذلك «الانقلاب» ، ولم تدرجه فى القائمة حتى سنة ١٦١٦» .

وقبل الانتهاء من الطباعة ، أصيب كوبرنيكوس بصدمة شديدة . فيقول مصدر موثوق به : فى احدى لحظات التاريخ الدرامية ، قدم رسول الى فراونبرج يحمل من نورمبرج النسخة الاولى من أروع مؤلفات كوبرنيكوس ، ووضعها بين يديه قبل أن

يلفظ آخر انفاسه ببضع ساعات . كان ذلك في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٣ ، وكان عنوان الكتاب « فيما يختص باقلاب الكرات السماوية De Revolutionibus Orbium Coetestium » وكبقية المؤلفات العلمية في ذلك الوقت ، كان مكتوبا باللغة اللاتينية .

أبدى كوبرنيكوس حكمة وحسن سياسة عندما أهدى ذلك المؤلف الى البابا بولس الثالث . ويتضح من اسلوب الاهداء ان كوبرنيكوس كان يتوقع بعض الصعاب :

« يحق لى أن أعتقد تماما ، أيها الاب الكلى القداسة ، ان بعض الناس عندما يسمعون عن نسبتي الحركة للارض ، في كتبى هذه ، سيقررون على الفور وجوب نيل مثل هذا الراى . والآن لآتسرنى كثيرا نظرياتى ، أنا نفسى ، فلا أهتم بحكم الآخرين عليها . وبناء على هذا ، عندما بدأت أفكر فى أولئك الاشخاص المؤمنين بثبت الارض لانه مدعم بأراء عدة قرون . وسيقولون عندما أقرر أن الارض تتحرك ، اننى ترددت لمدة طويلة ، هل أنشر ماكتبته للبرهنة على حركتها ، أو أأخذو حذو أتباع فيثاغورث الذين دأبوا على الافضاء بأسرارهم الفلسفية لأقاربهم وأصدقائهم شفويا . وعندما تأملت فى هذا كثيرا ، كدت أضع هذا العمل الكامل جانبا بسبب الازدراء الذى يحق لى أن أتوقعه لكون نظريتى جديدة وعلى نقيض مايقبله العقل .

ومع ذلك ، حشنى أصدقائى على ترك مااعتزمته ، ونصحونى بأنه يجب على أن أنشر كتابى القابع فى حوزتى مختفيا ، ليس لتسع سنين فحسب ، بل ولأربعة أمثال هذه المدة . وطلب منى عدد غير قليل من الرجال المبرزين فى العلم أن أعمل نفس الشئ الذى نصحنى به الآخرون ، وأخبرونى بأنه ينبغى لى ألا أهتم

بقلقى والا أمنع مؤلفى عن الظهور أكثر من ذلك ، وانما أنشره ليكون
فى خدمة علماء الرياضة ..

لاشك فى أن الماهرين والعلماء من الناس سيتفقون معى اذا
رغبوا تعاما فى فهم واستيعاب البراهين التى أقدمها فى ذلك
الكتاب امامنا . ومع ذلك ، فلكى يعرف العلماء وغير العلماء اننى
لا اهاب حكم أى شخص ، رايت اهداء أعمالى الليلية هذه لقداستكم
وليس لأى فرد آخر ، لانكم ، حتى وانتم فى ركنكم القصى من
الارض ، حبث اعيش انا ، معروفون بانكم أعظم المولعين بجميع
فروع العلوم والرياضيات ، وبذا يمكنكم ، عن طريق مركزكم
وحكمكم ، دحض لدغات الوشاة ، رغم أن المثل يقول انه لا علاج
ضد لدغة الواشى . وقد يحدث أيضا أن يدعى بعض الثرثارين
الذين يجهلون الرياضيات ، بأن لهم الحق فى اصدار حكم على
مؤلفى ، مستندين الى فقرة معينة فى الكتاب المقدس يؤولونها
حسب أهوائهم . فاذا تجاسر امثال هؤلاء على نقد مشروعى والنيل
منه ، فلن اكرث لهم ، وانظر الى حكمهم على أنه تهور جدير
بالاحتقار » .

لخص توبرنيكوس فكرته عن الكون فى هذه العبارات :

« ابعاد الاجرام السماوية جميعا دائرة النجوم الثابتة المحتوية
على جميع الاشياء ، ولهذا السبب نفسه لاتتحرك ، وهى فى
الحقيقة اطار الكون الذى تتعلق به حركة ومركز جميع النجوم
الآخرى ، ورغم أن بعض الناس يظنونه يتحرك بطريقة ما ، فاننا
نذكر سببا آخر لكونه يبدو كذلك فى نظريتنا عن حركة الارض .
فمن الاجسام المتحركة ، يأتى أولا زحل الذى يتم دورته فى ثلاثين
سنة ثم المريخ الذى يتم دورته فى سنتين . والرابعة فى الترتيب
وتكمل دورتها فى سنة واحدة هى الارض ذات الفلك القمرى
حولها . وتأتى الزهرة فى المرتبة الخامسة وتتم دورتها فى تسعة

شهور ثم عطارذ في المركز السادس يدور في الفضاء في ثمانين يوما ، وتقع الشمس في وسط الجميع ، تلك التي تضع المشعل في هذا العبد البالغ الجمال في مكان لا يعادله أى مكان آخر اذ تستطيع منه أن تضىء على الجميع في وقت واحد . . . اذن نجد في النظام العجيب تماثلا رائعا في الكون ونسبة محددة للتناسق في حركة هذه الافلاك ومداها بطريقة لا يمكن الحصول عليها بأية طريقة أخرى» .

تتلخص محتويات مؤلف كوبرنيكوس «الانقلاب في الافلاك السماوية» في خطة تطور نظرية هذه الافلاك . فيبدأ بمقدمة الاهداء الى البابا بولس الثالث ، فالمقدمة الزائفة التي كتبها أوسلاندر ، وبعدهما ينقسم هذا المؤلف الى ستة اجزاء أو أقسام رئيسية ، ينقسم كل منها بدوره الى أبواب . فيضم الجزء الاول آراء كوبرنيكوس عن الكون والادلة المدعمة لنظريته القائلة بأن الشمس هي مركز الكون ، وفكرة دوران الارض حول الشمس كبقية الكواكب الاخرى ، ومناقشة الفصول . ويتكون من عدة أبواب . وفي نهاية هذا الجزء كتاب علمي عن حساب المثلثات . استخدم نظريات هذا الفرع من الرياضيات في الاجزاء التالية من مؤلفه .

ويتناول الجزء الثانى حركات الأجرام السماوية محسوبة رياضيا ، وبختمه بقائمة للنجوم تبين موقع كل منها في السماء وهي قائمة اخذ معظمها من مؤلف بطليموس مع بعض التصحيحات .

وتضم الاجزاء الأربعة الباقية شرحا مفصلا لحركات الأرض والقمر والكواكب ، وبصحب الشرح في كل حالة اشكال هندسية تبين المسار الذى تتبعه الكرات على أساس حسابات كوبرنيكوس . يقول احد الاسباب المقدمة ضد نظرية الأرض المتحركة :

كتب غيرت العالم - ٢٢٥

وهو ما ذكره بطليموس ، أن الأرض يجب أن تبقى ثابتة والا فإن أى جسم سباح في الفضاء يبتعد عن الأرض وهى تتحرك . وإى جسم يقذف في الهواء ينزل مسافة بعيدة جدا الى الغرب ، وأقوى هذه الأسباب جميعا أنه اذا كانت الأرض تتحرك بهذه السرعة البالغة فانها سرعان ماقتفتت الى اجزاء صغيرة تقذف في الفضاء . وقبل اكتشاف جاليليو Galileo لنظريات الميكانيكا الخاصة بذلك ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، كان من الصعب دحض هذه الادلة البطليموسية . وقد أجاب كوبرنيكوس عليها باقتراحه أن الهواء المحيط بالأرض يدور معها ، وأنه من المعقول أكثر افتراض أن الأرض هى التى تدور وليس الكون كله . لانه اذا كانت الأرض لا تدور وليس الكون كله . لانه اذا كانت الأرض لا تدور فان السماء هى التى تدور لاحداث الليل والنهار . ودعم الدفاع عن قوله هذا بتأمل فلسفى : ليست الطبيعة مما يحطم نفسه بنفسه ، ولم يخلق الله الكون لمجرد أن يحطم هذا الكون نفسه بنفسه .

يعتقد كوبرنيكوس أن الشمس لا تتحرك وانها ايجابية وثابتة وسط الكواكب الدوارة . وهذا الاعتقاد يشبه فكرة بطليموس عن الأرض . استقد كوبرنيكوس أن الوظيفة الوحيدة للشمس هى امداد الكون بالضوء والحرارة ، وأن الكون محدود جدا . وتقول تعاليم بطليموس انه لا يوجد فضاء خارج نطاق النجوم . ومن المحتمل أن الفضاء اللانهائى لم يكن معروفا لدى كوبرنيكوس ، كما لم يكن معروفا لبطليموس قبله بمدة ١٤٠٠ سنة ، وكذلك ، لم يستخلص من نظام بطليموس عن الفلك المحيط بأفلاك الاجسام السماوية . كان هناك مركز لكل فلك من الافلاك المختلفة ، وأن الشمس لم تكن بالاضبط في مركز أفلاك الكواكب . وقد صحح علماء الفلك اللاحقون هذه الظواهر في نظام كوبرنيكوس .

كان قبول نظام كوبرنيكوس بطيئا لدى كل من العلماء وعامة

الشعب . كانت هناك آراء معاصرة ، مع بعض الاستثناءات ،
تعارض بعنف ذلك النظام . فتبعاً لاحدى القصص ، هاجم
طلبة الجامعة المكان الذى كان كتاب كوبرنيكوس يطبع فيه ،
وحاولوا تحطيم المطبعة وتمزيق النسخة الخطية الاصلية ، الا ان
عمال المطبعة وضعوا حاجزاً بينهم وبين المهاجمين حتى اتموا العمل .
وقامت فرقة من الممثلين الجائلين باخراج مسرحية هزلية للسخرية
من كوبرنيكوس ، مصورين ذلك الفلكى يبيع نفسه للشيطان .

اما رد الفعل لدى المنظمات الكنسية فكان اكثر جدية
واشد قوة . فهذه النظريات الجديدة تناقض المعتقدات الفلسفية
والدينية القائمة فى العصور الوسطى . فلو كانت نظريات
كوبرنيكوس صحيحة لما شغل الانسان مكاناً مركزياً فى العالم ،
ولانتقل هو من المكان الواقف عليه ، ولانتقل بيته الى واحد من
الكواكب العديدة .

ولكن ، بما ان مؤلف كوبرنيكوس كان مليئاً بأشياء أخرى .
وبسبب مقدمة أوسلندر المضللة لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية
اجراء فوراً ضده ، غير ان قادة الاصلاح كانوا أقل اعاقة . فقام
مارتن لوتر Martin Luther بنقد كوبرنيكوس بعنف فى كثير من
المناسبات . وكان يشير اليه بقوله : «الفلكى الجديد الذى يريد
البرهنة على أن الارض هى التى تدور وليست السماء والشمس
والقمر ، كما لو ان شخصاً ما يجلس فى عربة متحركة او فى سفينة
سائرة ، ويظن نفسه ثابتاً والارض والاشجار هى التى تتحرك
مارة به . ولكن هذه هى الحال فى هذه الايام فكل شخص يريد
ان يكون بارها يجب عليه ابتكار شيء من عندياته يعتبره خير شيء
لانه هو الذى ابتكره ! يريد ذلك الاحمق ان يقلب علوم الفلك
كلها رأساً على عقب . ولكن ، كما يقرر الكتاب المقدس ، ان
الشمس نفسها وليست الارض ، هى التى امرها يوشع بان

تقف» . وكذلك سخر ميلانكثون Melanchthon تلميذ لوتر المخلص ، من كوبرنيكوس بقوله : «انه أوقف الشمس وجعل الارض تتحرك» .

واكد جون كلفين John Calvin ، مستشهدا بالزمور ٩٣ : « كذلك ثبتت المسكونة لاتتزعزع » . وسأل باحتقار : «من ذا الذى يجرؤ على وضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطان الروح القدس ؟»

لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية اجراءات حاسمة ضد مؤلف كوبرنيكوس حتى سنة ١٦١٥ ، وكان كل معاملته هو الانتقام من انصار نظريات كوبرنيكوس امثال : جاليليو وبرونو Bruno وكان التصرف فى مذهب كوبرنيكوس على النحو التالى :

« الاقتراح الاول القائل بأن الشمس هى المركز وانها لاتدور حول الارض ، حماقة وسخافة وزيف فى علم اللاهوت ، وهرطقة لانه يناقض على طول الخط ماجاء فى الكتاب المقدس . وأما الاقتراح الثانى القائل ان الارض تدور حول الشمس وليست فى المركز ، فسخيف وزائف فلسفيا ، ومن الناحية اللاهوتية يعارض ، على الاقل ، العقيدة الحقيقية» .

وفى السنة التالية ١٦١٦ ، وضع مؤلف كوبرنيكوس فى قائمة الكتب المحرمة ، «حتى يصحح» ، وفى الوقت نفسه ، ادين «جميع الكتابات التى تؤيد حركة الارض» . فظل كوبرنيكوس فى القائمة السوداء لمدة تزيد على القرنين . وأخيرا ازيلت تلك اللعنة فى سنة ١٨٣٥ .

منع المصير الذى لقيه جاليليو وبرونو ، غيرهما من اعتناق نظريات كوبرنيكوس . وقد ذهب جوردانو برونو Giordano Bruno الى أبعد من الآخرين اذ ان النظرية القائلة بأن الفضاء غير محدود ،

وبأن الشمس وكواكبها ليست سوى واحدة من عدة مجموعات مشابهة . وافترح ، زيادة على ذلك ، أنه قد يكون هناك عوالم مسكونة أخرى تضم مخلوقات عاقلة تمتاز عنا . فحكم برونو على مثل هذا التجديف أمام محكمة التفتيش الدينى وأدين فأحرق مربوطا الى عمود فى فبراير سنة ١٦٠٠ . أما الحكم الذى نزل بالعالم الفلكى الايطالى جاليليو فكان أخف من ذلك ، فقد مثل أمام محكمة التفتيش الدينى فى سنة ١٦٣٢ ، فهددته بالتعذيب والقتل وأجبرته على أن يجثوا على ركبتيه ويدحض جميع معتقداته ونظريات كوبرنيكوس ، وحكم عليه بالسجن بقية أيام حياته .

هذا الفلاسفة والعلماء حذو اللاهوتيين الكاثوليك والبروتستانت فى ترددهم لقبول النظرية الكوبرنيكية . فمثلا ، حاول أحد مؤسسى الطرق العلمية الحديثة ، ويدعى فرنسيس باكون Francis Bacon دحض فكرة دوران الارض حول الشمس فى فلك وهكذا ظلت سيطرة أريستو وبطليموس على الجامعات الأوروبية قائمة لم تتكسر لمدة طويلة بعد نشر كتاب « الانقلاب فى الافلاك السماوية » .

والواقع أنه ، كما ذكر ستبنز Stebbins : « كان قبول نظرية كوبرنيكوس بطيئا فى جميع الدول . ففي أمريكا ، كانوا يدرسون النظريتين البطليموسية والكوبرنيكية فى وقت واحد ، فى جامعتى هارفارد Harvard وبيبل Yale . ومع ذلك ، فشيئا فشيئا أخذت نظرية كوبرنيكوس تحظى بقبول محتم . واستمرت الأبحاث على يد العلماء الغيورين أمثال جوردانو برونو وتيكو براهى Tycho Brahe ويوحنا كبلر وجاليليو جاليليو Galileo Galilei وأسحق نيوتن ، إبان عشرات السنين التالية . فكونوا هرما من البراهين التى لا تقبل الدحض أو انجبدل . وحذقوا عيوب النظرية الكوبرنيكية بناء على

الابحاث الحديثة لهؤلاء وغيرهم من الباحثين ، وساعدهم على ذلك تحسين آلات الرصد الى درجة الكمال ، وانه كان بوسع كل باحث ان يبنى على ابحاث سابقه .

اعظم عالم فلكي جاء بعد كوبرنيكوس مباشرة هو العالم الدانمركي تيكو براهي . لم يزد تيكو شيئا على نظرية دوران الارض حول الشمس ، ولكنه استطاع بواسطة الآلات الجيدة التي زود بها ملك الدانمرك ، القيام بأرصاء وقياسات فلكية افضل بكثير مما قام به كوبرنيكوس . وعلى أساس هذه المعلومات أمكنه مساعدة العالم الألماني يوحنا كبلر بعد موت تيكو ، على ان يصوغ قوانينه الثلاثة الشهيرة : (ا) ان الكواكب تسير في أفلاك اهليلجية وليست دوائر ، وان الشمس موجودة في بؤرة واحدة . (ب) بما ان الارض والكواكب الاخرى تدور حول الشمس في أفلاك اهليلجية ، فانها لا تدور بسرعة منتظمة ، ولكن بطريقة أن سرعة دورانها تزيد عندما تكون أقرب الى الشمس . (ج) يتناسب بعد الكواكب عن الشمس مع مدد دورانها حول الشمس .

كان جاليليو أول راصد أمد علم الفلك بالتلسكوب ، وقد أثبت كثير من اكتشافاته التلسكوبية صحة ماوجده كوبرنيكوس . قدم جاليليو أساسا علميا عندما قدم المبادئ الأساسية لعلم الديناميكا ، أو علم الحركة . وقدم السير اسحق نيوتن البراهين القاطعة على صحة نظرية كوبرنيكوس باكتشافه قانون الجاذبية وصياغته للقوانين التي تتحرك بمقتضاها الكواكب . واميط اللثام عن بعض غوامض الكون الباقية بواسطة نظرية أينشتين Einstein عن النسبية التي ظهرت في القرن العشرين .

وعلى ضوء التعديلات الكثيرة التي قام بها العلماء في القرون التالية ، نشأ هذا السؤال المعقول والطروح كثيرا : هل نظرية كوبرنيكوس صحيحة ؟ لسنا فنكر ان كوبرنيكوس ترك نظرية غير

كاملة وغير دقيقة في عدة نقاط . فقد اثبت العلماء خطأ فكرته عن دوران الاجرام السماوية في فلك دائرى تماما ، اذ انها تدور في افلاك اهليلجية . وقد نظر كوبرنيكوس الى الكون على انه محدود جدا على نقىض النظرية الحديثة القائلة بوجود عدد غير محدود من المجموعات الشمسية . وكذلك في التفاصيل الاخرى ، تختلف النظريات التى قدمها كوبرنيكوس منذ أكثر من أربعة قرون خلت ، تختلف عن معارفنا الحاضرة اليوم . ولكن في أساسها — وهو أن الشمس مركز مجموعات الكواكب — اكتشف كوبرنيكوس حقيقة أساسية وقدم أساسا لعلم الفلك الحديث .

رسخ الى الابد مركز كوبرنيكوس في تاريخ العلوم ويخوله نفوذه على معاصريه وعلى جميع الفكر اللاحق مكاة ممتازة .
وكما كتب جيتيه Goethe :

« لم يحدث اى اكتشاف او رأى ، من جميع الاكتشافات والآراء ، اثرا على الروح البشرية اعظم مما أحدثته نظرية كوبرنيكوس . من النادر أن الناس كانوا سيعرفون أن العالم مستدير وكامل الاستدارة في حد ذاته اذا طلب من هذا العالم أن يتنازل عن كونه مركز الكون . . ربما لم يطلب من البشرية شيء أعظم من هذا — لأنه بهذا الاعتراف اختفت أمور كثيرة في الضباب والدخان ! الى اى شيء صارت جنتنا ، عالمنا ، عالم البرابرة والتقوى والشعر ، دليل المشاعر ، اتهام عقيدة شاعرية ودينية ؟ لا عجب في ان معاصريه لم يرغبوا في أن يتركوا كل هذا يمر ، وقاموا بكل مقاومة ممكنة للمذهب خول لكل المهتدين به حرية الرأى وعظمة التفكير اللتين لم تعرفا حتى ذلك الوقت ، والحقيقة انه لم يحلم بهما قط» .

وأخيرا ، فلنتأمل حكم ثلاثة من مشاهير العلماء الأمريكيين الموجودين على قيد الحياة . فقد علق فانيغار بوش .

Vannevar Bush بقوله : «خلق نشر مؤلف كوبرنيكوس الرانع ... نقطة تحول عظيمة الاهمية لتأثيره على كل ناحية من نواحي الفكر البشرى . قدم مثلاً بارزاً لتأثير الحقيقة العلمية لتحرير ذهن الانسان وجلاء بصيرته للغزوات المستقبلية للجهل والتخاذل» واكد هارولد ك . اورى Harold C. Urey الفائزة بجائزة نوبل ، قائلاً : «يخفق كل بيان عندما يصف مؤلف نيقولاوس كوبرنيكوس . لقد حطم فكرة عن المجموعة الشمسية ظلت قائمة مدة الف عام وقدم فكرة مخالفة لها تماماً ، عن نسبة الكواكب الى الشمس . وبهذا العمل كان اول من قدم الطريقة الحديثة كلها للفكر العلمى ، وعدل تفكيرنا عن جميع نواحي الحياة البشرية» .

واخيراً ، هالك راي العالم الفلكى المبرز هارلان تروستاتسون Harlan True Stetson :

«من المحير دائماً دراسة القائمة الطويلة لمشاهير الرجال الحقيقيين في تاريخ العالم ، الذين أسهموا في تقديم العلوم ، ثم تحديد عدد قليل منهم على أنهم المبرزون المتفوقون . ومع ذلك ، فلو طلب منى اختيار ثلاثة أسماء منهم ، لقلت في غير ما تردد طويل ، كوبرنيكوس ونيوتن وداروين . فيشترك هؤلاء الثلاثة في خصائص تجعلهم غير منفصلين في مجال انتصار التقدم . وهذه الخصائص هى الخيال والجرأة والعبقرية وطرافة اظهار التفهم الخارق للافكار . وبالنظر الى جميع الاعتبارات لاختيار اعظم هؤلاء الثلاثة ، اعتقد ان اكاليل الفار يجب ان تكون من نصيب كوبرنيكوس ، لانه هو الذى وضع أسس علم الفلك الحديث التى بدونها ماكان لنيوتن ان يبنى قانونه عن الجاذبية ، وهو الذى فتح الابواب لنوع من التفكير الثورى يتحدى المبدأ الذى يجب ان يأخذ مكانه قبل أن يثبت مذهب النشوء قدمه في تفكيرنا» .

١٢ - فجر الطب العلمى

وليام هارفى William Harvey

حركة القلب De Motu Cordis

لم تتقدم علوم الاحياء وابحائها فى اوائل القرن السابع عشر الا قليلا عن دراسة علم الفلك قبل كوبرنيكوس . ومازال الأطباء ومدارس الطب يمارسون ويعلمون نظريات التشريح ووظائف الاعضاء الخاصة بالقلب والشرايين والأوردة والدم التى تلقوها عن الطبيب الاغريقى الآسيوى العظيم جالين Galen الذى عاش فى القرن الثانى .

لم تحدث اضافات هامة لمدة تزيد على الالف سنة الى معارف الانسان عن الدورة الدموية ووظائف القلب . كان أريستو يعلم أن الدم ينشأ فى الكبد ومنه يذهب الى القلب ، ثم خلال الجسم الى الاوردة . كان يعتقد أن القلب هو أيضا مصدر حرارة الجسم ومقر الذكاء . واعتقد أرايستراتوس Erasistratus خريج مدرسة الاسكندرية أن الشرايين تحمل نوعا هادئا من الهواء أو الروح .

فصحح جالين هذه الفكرة اذ اكتشف أن الشرايين تحمل دما وليس هواء . غير أنه لمدة قرون بعد عصره ، كان الأطباء مقتنعين بأن روحا او نحوه يلعب دورا في جهاز الدم ، وربما كان ذلك لانعاش القلب .

لم يجرؤ على مناقشة السابقات والمعتقدات الموروثة عن القدماء سوى أعظم العلماء جراحة . كانوا يعتبرون ماكتبه جالين من اصل مقدس - لا يمكن أن يتطرق اليه الجدل او الشك . وتبعاً لجالين ايضا ، كان الكبد مركز الجهاز الدموي . فقال ان الطعام المهضوم يحمل الى الكبد حيث يتحول الى دم مع اضافة «روح طبيعي» . وان الدم يسير في الجسم الى الامام والى الخلف عن طريق كل من الاوردة والشرايين كما يفعل المد والجزر في البحر. يختلف الدم الشرياني الاتى من أحد جوانب القلب مع الدم الوريدي من الجانب الآخر خلال مسام دقيقة .

وعلى مر القرون ، اضيفت الى تلك الحقائق الطبيعية كثير من الخرافات عن الدم . كان للدم صفة مقدسة اكثر من أى جزء آخر في الجسم كما يتضح من استخدامه في الدبائح الدينية ، وسكب الدم على مذابح الآلهة .

عندما جاء عام ١٦٠٠ كان التغير في الجو قد عم كل مكان . لم تعمل النهضة في اوربا على احياء الادب فحسب ، بل وشملت انقاظا ذهنيا اثر على العلوم الطبيعية . كان ذلك العصر عصر جاليليو وكبلر وهارفي وباكون وديكارت Decartes . وفي ايطاليا ، قبل ذلك بخمسين سنة ، اثبت اندرياس فيساليوس Andres Vesalius عدم وجود المسام التي وصفها جالين . ولم تكن هناك اية علاقة مباشرة بين حجرتى القلب . وفي حوالى نفس الوقت ، أبدى سرفيتوس Servetus الذى احرقه جون كالفين John Calvin فيما بعد ، أبدى اعتقاده بأن الدم

يدور خلال الرئتين ، ولكنه لم يعترف بأن القلب عضو ضاح . وكذلك اقترح ربالدو وكولومبو Realdo Colombo ، استاذ التشريح في روما ، فكرة الدورة الدموية في الرئتين . وفي سنة ١٦٠٣ زود فابريكيوس البارواي Fabricius of Padua العلم بحلقة أخرى عندما اكتشف ان للاوردة صمامات ، ولو انه لم يفهم الغرض منها ، بل استنتج فقط انها كانت لمجرد العمل على بطء سير الدم الى الاطراف .

وهكذا كان لهؤلاء ولنفوس جريئة أخرى ان تنهض وتلقى شكا على العقيدة القديمة التي عرقلت التقدم الطبى خلال العصور الوسطى . ومن ناحية أخرى لم يستطع أحد الوصول الى الحقيقة الكاملة . فأسهم كل واحد بقدر كبير نحو كشف اللثام عن الدورة الدموية ووظائف القلب ، ولكنه توقف في كل حالة بجواب جزئى أو غير كامل . اما اكتشاف وصياغة مجموعة منتظمة ومبوبة من النظريات ، فقدمه العقل اللامع الحاد للطبيب الانجليزى وليم هارفى .

وصلت النهضة العلمية الى انجلترا متأخرة عن وصولها الى القارة الاوربية ، وخصوصا ايطاليا . ولكن في العصر الذى ولد فيه هارفى (سنة ١٥٧٨) كانت الامة تدخل في فترة من أعظم الفترات . فابان القرن التالى ، حكمت بريطانيا الملكة اليزابيث Elizabeth ، وتوطدت قوة بريطانيا البحرية بهزيمة أسطول الارمادا Armada الاسباني ، وفتح المكتشفون الانجليز اراضى جديدة ، وازدهر شكسبير Shakespeare ودون Donne وسبنسر Spenser ودرادن Dryden وملتون Milton وجونسون Johnson وباكون Bacon في عالم الادب وبذا كبح جماح الفكر الخاص بالقرون السابقة . بدأ التفكير السابق ينقضى وتحررت عقول الناس داخل حدود معينة لتخلق أفكارا جديدة وتفتح آفاقا لم تفتح من قبل .

نكى يدرس هارفى الطب ، كان من الطبيعى ان يذهب الى إيطاليا . وسميت جامعة بادوا الشهيرة : «الأم مربية النهضة» ، وظلت لعدة اجيال المركز الطبى لأوروبا . فبعد ان تخرج هارفى الشاب فى كامبريدج قضى أربع سنوات معظمها تحت قيادة المدرس الشهير الكفاء فابريكيوس مكتشف صمامات الاوردة . فتعلم كيف يشرح ويجرى التجارب على شتى انواع الحيوان ، وربما كان الفضل لنظريات فابريكيوس فى متعته بالدورة الدموية التى لازمته طوال حياته .

لما عاد هارفى الى انجلترا فى سنة ١٦٠٢ بدا منهج حياة قدر له ان يستمر مدة الخمسين سنة التالية كطبيب ومحاضر وكاتب . تزوج ابنة طبيب الملكة اليزابيث الخاص . وبعد ذلك عمل كزميل فى الكلية الملكية للأطباء ، وكطبيب فى مستشفى بارثولوميو Bartholomew ، وكطبيب لجيمس الاول وشارل الاول .

رغم هذا ، ألع هارفى طول حياته بالابحاث الطبية والتجارب اكثر من ولعه بممارسة الطب . فبدأ فى سنة ١٦١٦ يلقي المحاضرات عن الدورة الدموية أمام كلية الاطباء . ولاتزال النسخة الخطية لمحاضراته موجودة ، مكتوبة بخليط من اللاتينية والانجليزية يحط يكاد تتعذر قراءته . وقد شرح بعض تجاربه فى مذكراته وأوضح أنه فى ذلك التاريخ اقتنع تماما بصحة نظرياته الشهيرة عن الدورة الدموية ، فكتب يقول : «يتحرك الدم فى دائرة مستمرة بدفع من ضربات القلب» .

انصرفت اثنتا عشرة سنة قبل ان يستعد هارفى لنشر النتائج التى توصل اليها . لماذا هذا التأخر فى اعلان مثل ذلك الاكتشاف العظيم الى العالم ؟ هناك عدة تخمينات فى ذلك الخصوص . فاقترح السير وليم أوسلر William Osler بقوله : «ربما كان باعثه فى ذلك هو نفس باعث كوبرنيكوس الذى خشى تعصب

البشر حتى قيل انه باعث كوبرنيكوس الذى خشى تعصب البشر حتى قيل انه احتجز رسالته الثورية في خزانته لمدة ثلاثين عاما . وبفس الفاظ هارفى ، ان نظريته عن الدورة الدموية العامة : « جديدة ومن نوع لم يسمع به حتى اننى لا اخاف فقط ايذاء شخص نتيجة حسد القليلين ، بل وارتجف لجعل البشر جميعا اعدائي . بوسع العادات والتقاليد ان تفعل الكثير اذا تحولت الى طبيعة اخرى ، وان النظريات التى غرست وتغلغلّت جذورها واستقر منذ القدم ، ذات تأثير بالغ على جميع الناس » .

كذلك ، ماكان هارفى بالرجل المتهور الذى يندفع بسهولة الى المطبعة لينشر نظرياته اذ يرى : « ليست جموع كاتبى الخزعبلات الاغبياء باقل من اسراب الدباب فى عز الصيف ، وانهم ليهددون بحماقاتهم وتوافه كتاباتهم وانتاجهم الخاوى ، بان يخنفونا عندما ندخن » .

واخيرا ، بعد سنوات من التجارب والملاحظة ، قرر هارفى ان الوقت قد حان . وفي سنة ١٦٢٨ ظهر فى فرانكفورت Frankfurt بالمانيا كتيب من ٧٢ صفحة اعتبره كثير من اعلام الطب اهم كتاب طبى وضع حتى ذلك الوقت ، وبطبيعة الحال ، كان ذلك الكتيب باللغة اللاتينية وهى اللغة العلمية العالمية . كان عنوانه الكامل : *Exercitatio Anatomica de Motu* «

Cordis et Sanguinis in Animalibus ، أى « تمرينات شريحية على حركة القلب والدم فى الحيوانات » . ولسنا نعرف بالضبط السبب فى صدور هذا الكتيب فى ألمانيا بالذات - ربما كان ذلك لان سوق الكتاب السنوية التى تعقد فى فرانكفورت تضمن سرعة نشره وتداوله بين علماء القارة الاوربية . ولاشك

في ان خط هارفي الرديء هو المسئول عن العديد من الأخطاء المطبعية .

بارك اهداء أن كتيب «حركة القلب» : الاول الى شارل الاول حيث يشبه الملك في مملكته القلب في الجسم ، ويتبع ذلك خطابا الى الدكتور أرجنت Argent عميد الكلية الملكية و « سائر الاطباء والدكانة زملائه العظمى القدر» . وفي الاهداء الثانى عبر هارفي عن رأيه بوجوب قبول الحقيقة ، بغض النظر عن مصدرها ، وان الحقيقة أكثر قيمة من التقاليد القديمة . فقال : «أقرر أنني أتعلم وأعلم التشريح ، ليس من الكتب وإنما من التشريح العملي ، ليس من مكان الفلاسفة بل من نسيج الطبيعة» أمسك هارفي بهذه العبارة بهدف وبروح البحث العلمى الحديث .

يتألف الكتاب في جوهره من مقدمة وسبعة عشر بابا تعطى وصفا واضحا متصلا لعمل القلب وحركة الدم الدائرية خلال الجسم كله . وتستعرض المقدمة نظريات جالين وفابريكيوس وريالدو كولومب Realdo Colomb وغيرهم من قدامى الكتاب مبينا أخطاءهم في دقة وایضاح .

ذكر هارفي في الباب الاول بعض المشاكل التى واجهته في أبحاثه ، فكتب يقول :

« عندما وطدت العزم أولا على الاتجاه نحو تشريح الحيوانات الحية كوسيلة لاكتشاف حركات القلب ووظائفه ، وحاولت اكتشاف هذه من الفحص الفعلى ، وليس مما كتبه غيرى ، وجدت هذا العمل شاقا وملوثا بالمواد البرازية ، وزاخرا بالصعاب حتى كدت أميل الى الاعتقاد مع فراكاستوريوس Fracastorius ان حركة القلب لايمكن ان يعلمها غير الله وحده . فلم أدرك أولا متى يحدث الانقباض ومتى يحدث التمدد ، لا متى ولا أين

يحدثان بسبب سرعة حركتهما التي تتم في كثير من الحيوانات في لمح البصر ، تجيء وتذهب في سرعة البرق الخاطف» .

وأخيرا اقتنع هارفي بأنه بالإمكان دراسة حركات القلب بصعوبة أقل في الحيوانات ذوات الدم البارد كالعلاجيم والضفادع والثعابين وصفار السمك وسرطان البحر والجمبري والقواقع والمحاريات ، أقل مما في الحيوانات ذوات الدم الدافئ . فرأى في ذوات الدم البارد ان الحركات «أبطأ وأندر» . كما كانت هذه الظواهر أسهل ملاحظة في الحيوانات ذوات الدم الدافئ عند الاحتضار لما يكون عمل القلب آخذاً في البطء .

لاحظ هارفي ، نتيجة لتجاربه ، أن انقباض القلب يدفع الدم خارجا ، وعندما ينقبض تتمدد الشرايين لاستقبال الدم . ولما كان القلب عضلة تؤدي وظيفة نوع من المضخات ، يجبر الدم على الاندفاع في دوران مستمر . وعند إجبار الدم على السريان داخل الشرايين ، فإنه يسبب النبض ، «مثلما ينفخ المرء في قفاز» . وعلى تقيض نظرية المد والجزر القديمة فإن الدورة الدموية تكون في اتجاه واحد . أوضح هارفي أن الدم يمر من الجانب الأيسر للقلب خلال الشرايين الى النهايات ثم يعود عن طريق الاوردة الى الجانب الأيمن للقلب . عرفت حركة الدورة بربط أربطة حول الشرايين والاوردة . في نقط مختلفة . وبالاختصار ، اكتشف أن نفس الدم الذي تحمله الشرايين ، تعود به الاوردة مكونة دورة كاملة .

وهكذا نرى وصف هارفي الرائع لهذه العملية اذ يقول :

« تحدث هاتان الحركتان ، حركة البطينين وحركة الأذنين على التعاقب ولكن بطريقة فيها تناسق وإيقاع بين الحركتين . تحدثان بحيث تكون حركة واحدة هي الظاهرة وخصوصا في الحيوانات ذوات الدم الدافئ التي تكون فيها الحركتان سريعتين .

تحدث الحركتان كما لو كانتا في قطعة من آلة ، فعلى الرغم من أن إحدى عجالاتها تدير الأخرى فإن جميع العجلات تبدو تتحرك في وقت واحد . أو كأجهزة الأسلحة النارية حيث يلمس الزناد فينزل القداح ويضرب الصلب فيحدث شرارة تقع بين البارود فيشتعل ويحدث اللهب ويدخل أنبوبة القذافة ويسبب الانفجار فيرسل القذيفة التي تصيب الهدف - وبسبب السرعة التي تحدث بها كل هذه الحركات ، تبدو كأنها تقع في لمح البصر » .

عندما فكر هارفي في أن حركة الدم دائرية ، يجوز أنه تأثر بقدامى الفلاسفة أمثال أرسطو الذي كان يعلم أن الحركة الدائرية كاملة ، وهي أمثل الحركات جميعا . أما العالم الفلكي جوردانو برونو معاصر هارفي ، فاستنتج أن الدائرة هي «الشعاع والنمط الأساسيين لجميع الحياة والأعمال في الكون» . وجدير بالملاحظة أن هارفي استخدم في مقاله عبارات مثل «حركة كأنها في دائرة» و «يجوز لنا أن نسمى حركة الدم دائرية» .

كانت طريقة هارفي دقيقة في البرهنة على الدورة الدموية ، نعم كانت في مجملها دقيقة بدرجة رائعة ، غير أنه كانت هناك حلقة واحدة مفقودة . كيف يذهب الدم من الشرايين إلى الأوردة ؟ كان هارفي يعرف أن الدم يذهب إلى الشرايين من الجانب الأيسر للقلب ويعود من الأوردة إلى جانب القلب الأيمن . ومع ذلك ، قال : «لم أنجح قط في تتبع أية علاقة بين الشرايين والأوردة بالانفتاح المباشر بين فتحاتها» . وإذا كان ينقصه الميكروسكوب لم ير الأوعية الشعرية ، وهي الأوعية الدقيقة التي تمر بداخلها كريات الدم من الشرايين إلى الأوردة ، رغم اقتناعه بضرورة وجود مثل هذه المجاري . وقد حل هذا اللغز بعد موت هارفي ببضع سنين ، حله مارسيلو مالبيجي Marcello Malpighi استاذ التشريح بجامعة بولونيا . فعندما كان يفحص ضفدعة بميكروسكوب حديث

الاختراع رأى شبكة الشعيرات الدموية تصل الشرايين بالأوردة كما تنبأ هارفى تماما . وهكذا كملت الخطوة الأخيرة فى البرهنة على الدورة الدموية .

نكى يتقلب هارفى على الوسائس ، قدم مزيدا من البراهين على الدورة الدموية ، ومنها استعمال مايعرفه علماء الطبيعة بطريقة الكم . برهن على أن القلب يضخ فى مدة ساعة ، فى ضرباته البالغة حوالى أربعة آلاف ضربة ، كمية تربو كثيرا على جميع كمية الدم الموجودة فى الجسم . فاذا قيس الدم الذى يرسله القلب فى يوم واحد ، وجد أن كميته تزيد كثيرا على جميع الطعام المأكول والمهضوم - وبذا برهن على خطأ نظرية جالين القديمة . فكتب هارفى بقول : « بالأختصار ، لايمكن توريد الدم بطريقة أخرى غير عمل دورة والعودة » .

هناك براهين أخرى على الدورة الدموية تأتى من تأثير السموم على الجسم :

«نرى فى حالة الأمراض المعدية وفى الجروح المسممة ولدغات الثعابين وعضات الكلاب المسعورة والزهرى وما أشبه ، أن الجسم كله يتسمم بينما تكاد أماكن الإصابة أن تخلو من الأذى أو تشفى لاشك فى أن العدوى التى أصابت أولا بقعة معينة ، نقلها الدم العائد الى القلب . ومنه انتشرت بعد ذلك فى جميع أجزاء الجسم . . . قد يفسر هذا أيضا السبب فى أن العقاقير الطبية المستعملة فوق الجلد ، يحدث لها نفس الأثر كما لو كانت قد أخذت عن طريق الفم » .

كان استعمال هارفى للحيوانات فى أغراض التجارب أمرا جديدا ، وكان يعتقد : «من رأى أنه لو كان علماء التشريح خبراء فى تشريح الحيوانات الدنيا كما هم خبراء فى جسم الإنسان لزالت

الامور التى حيرتهم ولنزعت عنهم الشكوك ، ولقضت على كل ماقابلهم من صعاب». يمكن اعتبار هارفى بحق واحدا من مؤسسى علم التشريح المقارن . فيذكر مثلا ، تجارب على الاغنام والكلاب والفزلان والخنازير والطيور والكتاكيت فى البيض والافاعى والاسماك وثعابين السمك والعلاجم والضفادع والقواقع والجمبرى وسرطان البحر والمحاريات والاصدف والاسفنج والديدان والنحل والزنايبر واليعاسيب والجنادب والذباب والقمل .

« لاحظت وجود قلب لجميع الحيوانات تقريبا ، ليس فقط فى الحيوانات الكبيرة ذوات الدم كما يقرر اريستو ، بل وكذلك فى الحيوانات الصغرى عديمة الدم ، كالقواقع ذوات المحار والقواقع عديمة المحار وسرطان البحر والجمبرى وكثير غير هذه . وحتى فى الزنايبر واليعاسيب والذباب فقد استخدمت عدسة فرأيت قلبا نابضا فى الجزء العلوى مما يسمى بالذنب واطلعت غيرى عليها حية . ففى هذه الحيوانات عديمة الدم ، ينبض القلب ببطء ، منقبضا فى بطن كما فى الحيوانات الراقية المحتضرة . يرى هذا بسهولة فى القوقعة حيث يقع القلب فى قاع الفتحة الواقعة على الجانب الايمن ، والتى تبدو تفتتح وتقفل عند اخراج اللعاب ... يوجد نوع من السمك الصغير المستخدم طعما لسرطان البحر ، يصاد من البحر ومن نهر التيمس Thames ، كل جسمه شفاف . وضعت ذلك المخلوق فى الماء واطلعت بعض اصيْدقائى عدة مرات على حركات قلبه بوضوح تام» .

وعلاوة على اكتشافات هارفى الشهيرة هذه ، كان اعظم اسهام له فى خدمة العلم والابحاث الطبية هو الطرق العملية او التجارب . فقد وضع الاساس الذى بنى عليه علم وظائف الاعضاء والطب لمدة تزيد على ثلاثة قرون . كان الاساس ، كما قرر هارفى نفسه :

«إن ابحث وادرس أسرار الطبيعة عن طريق التجارب» . كان للطب تاريخ يرجع الى آلاف السنين قبل مولد هارفى . تعلم الاطباء ان يدركوا ويصفوا بدقة الامراض الرئيسية التى تصيب الانسان . وإن الملاحظة ، رغم اهميتها ليست كافية ، وكثيرا ماتقود الى استنتاجات كلها خطأ . كان هذا هو اعظم فرق بين هارفى وأسلافه . وتخطى هارفى الملاحظة السطحية ، مقيدا قليلا بالخرافات أو باحترام النظريات القديمة ، فوضع فروضا وفحصها بالتجارب . كان اول من استخدم الطريقة العلمية للتجربة من أجل حل المسائل البيولوجية . وقد حذا حذوه جميع خلفه منذ عام ١٦٢٨ .

من الممتع قبول معاصرى هارفى لاكتشافاته . لم يكن كتابه موضوعا ادبيا ، وربما لم يدرك هارفى نفسه عمق ماتضمنه . ونشأ شيء من المعارضة من المحافظين والمتعصبين . وقد كتب معاصره ولنرونشيل ، جون أوبرى *Walter Winchell, John Aubrey* يقول انه : «سمع هارفى يقول انه بعد ظهور كتابه عن الدورة الدموية أخذ يجرى التجارب بجد ، فقد ظنه العوام والسخفاء معتوها ، وكان جميع الاطباء ضده» .

عبر السير وليام تمبل *William Temple* عن شعور أحد الاذكياء فى ذلك العصر ، فكتب عن مؤلفى كوبرنيكوس وهارفى ، يقول -

«من المتنازع فيه ما اذا كان هذان اكتشافين حديثين أو مقتبسين من أسس قديمة . وهل هما حقيقيان أو غير حقيقيين . فرغم أن العقل قد يحبهما أكثر من الآراء المضادة ، فقلما يقبلهما العقل . ولكنى يقنعا البشر ، يجب عليهما أن يتحدا ، ولكن اذا كان هذان الاكتشافان العظيمان حقيقيين فانهما لم يحدثا تغييرا

في نتائج علم الفلك ولا في ممارسة الطب ، وهكذا كانا قليلي النفع للعالم ولو أنهما جلبا الشرف العظيم لمؤلفيهما » .

تجاهل هارفي ناقدية في معظم الحالات . غير أن عداء مدرسة طب جامعة باريس حثه أخيرا على الخروج عن صمته . وقام جون ريولان John Riolan استاذ التشريح بمدرسة باريس يحث الكلية على تحريم تدريس نظرية هارفي . فحاول هارفي التغلب على معارضته ، فأرسل الى ريولان بحثين في التشريح مدعمين بالأدلة القاطعة فيما يختص بالدورة الدموية ، ونشر هذين البحثين في كتيب سنة ١٦٤٩ ، أي بعد صدور كتاب «حركة القلب» بأحدى وعشرين سنة ، رد فيهما هارفي بالتفصيل على من تعرضوا لمؤلفه .

يبدى هارفي حزنه في البحث الثاني بقوله :

«قلما يمر يوم أو ساعة منذ مولد الدورة الدموية ، لا أسمع فيهما شيئا طيبا أو شريرا يقال عن اكتشافي هذا . يلمه البعض فيقولون انه يشبه طفلا رضيعا ضعيفا غير جدير بأن يرى النور، ويظن البعض أن هذا الطفل يستحق الحب والعناية . فيعارضه هؤلاء بعناد شديد ، ويحميه أولئك بكثير من التوصية . يقرر أحد الطرفين أنني برهنت تماما على الدورة الدموية بالتجارب والملاحظات والفحص العيني ضد كل قوى الجدل . ويظن الطرف الآخر أنني لم أوضحها بما فيه الكفاية ، ولم أسلم من جميع المعارضات . كما أن هناك بعضا آخر يقول أنني أبدت ، في غرور ، ولما بالغنا بتشريح الكائنات الحية ، ويسخرون من تقديم الضفادع والثعابين والذباب وغيرها من الحيوانات الدنيا على المسرح ... ولكي أرد على الأقوال الشريرة بأقوال شريرة مثلها أقرر أنني لست جديرا بالفلسفة والبحث وراء الحقيقة . واعتقد كذلك أنه من الخير والأصح لي أنني إذا التقيت بالكثير من أمثال

هذه المعارضات والنوايا السيئة ، أن أقابلها في ضوء الملاحظات
الاكيدة والامينة والقاطعة» .

ولحسن الحظ ، عاش هارفى ليرى القبول العام لنظرياته بين
الاكفاء ليحكموا عليها . وان تعيينه عميدا لكلية الطب في سنة
١٦٥٤ ، قبل وفاته بثلاث سنوات ، لدليل على سمو منزلته بين
زملائه في المهنة .

كذلك العبارة اللاتينية المكتوبة على قبر هارفى تدل بوضوح
على رأى معاصريه فيه :

« وليم هارفى ، الذى تقوم جميع الاكاديميات احتراماً
الاسمه الموقر ، كان الاول بعد عدة آلاف من السنين ، الذى
اكتشف حركة الدم اليومية ، وبذا جلب الصحة للعالم والخلود
لنفسه ، ذلك الشخص الوحيد الذى خلص أصل الحيوان وأجباله
من الفلسفة الكاذبة ، والذى يدين له الجنس البشرى باكتسابه
المعارف ، ويدين له الطب بوجوده ، الطبيب الاول وصديق
صاحبى الجلالة جيمس وشارل ، ملكى الجور البريطانية ،
والاستاذ النشيط البالغ النجاح للتشريح والجراحة بجامعة طب
لندن - من اجلهما بنى مكتبة شهيرة زودها بنفائس الكتب من
ميراثه الخاص . وأخيرا بعد الجهود المظفرة في الملاحظة والعلاج
والاكتشاف ، وبعد اقامة عدة تماثيل من أجله ، في وطنه وفي
الخارج ، عندما طاف الدائرة الكاملة لحياته مدرسا للطب وطبيبا ،
مات دون ولد في الثالث من يونية من السنة المباركة ١٦٥٧ ، في
الثمانين من عمره الزاخر بالاعمال وبالشهرة » .

اضيف القليل ذو الصفة الجوهرية لاكتشاف هارفى للدورة
الدموية ، واو أن كمية ضخمة من المعلومات كدست فيما يختص
بالقلب وبالاوعية الدموية والرئتين . يعرف الكثير الآن عن تركيب

القلب ووظيفته في الصحة والمرض وحركاته المعقدة ووظائف الدم التي لم تكن لتتخيل في عصر هارفي نفسه .

ومع ذلك ، فكما علق كلجور Kilgour :

« من الجلي الواضح ان اسهام اكتشاف هارفي في الطب والجراحة ، يفوق كل وصف . انه اساس جميع الأعمال الخاصة باصلاح الاوعية الدموية التالفة أو المريضة والعلاج الجراحي لضغط الدم العالي والمرض التاجي وعملية « الرضيع الأزرق » المعروفة جيدا ، وهلم جرا . وزيادة على ذلك ، فان علم وظائف الاعضاء العام هو المدين له اكثر من غيره ، لان حركة الدم الدوار هي أساس معارفنا الحالية لبيئة الجسم الداخلية ، الذاتية الاتزان . يلعب هذا السائل ، الذي اكتشف هارفي دورته بثاقب بصيرته العظيمة ، اهم دور في ديناميكا أجهزة جسم الانسان» .

ربما لم يلخص احد معنى حياة هارفي في تقدم الطب ، تلخيصا أفضل مما فعل رائد الطب في عصرنا . ففي ذكرى هارفي السنوية ، القى السير وليم أوسلر خطابا في كلية الاطباء الملكية بلندن ، عن حركة القلب ، يقول فيه .

« ... انه يتميز بكسر الروح الحديثة للتقاليد القديمة . ماعاد هناك أناس يقنعون بالملاحظة الدقيقة والوصف الشامل ، ماعاد هناك أناس يكنفون بالنظريات الحسنة السبك والاحلام الجيدة الصياغة ، التي تقوم بوظيفة عذر عام للجهل ، ولكن يوجد هنا ، للمرة الاولى ، مسألة فسيولوجية عظمى نتناولها من الجانب المدعم بالتجارب العملية التي قام بها رجل ذو عقل علمي حديث ، استطاع ان يزن البراهين ولايذهب بعيدا عنها ، ومكنه ادراكه من ان يترك النتائج تبرز طبيعيا وبثبات من الملاحظات . فذلك العصر، عصر السامعين ، الذي سمع فيه الناس ، وسمعوا فقط ، قد

تلاه عصر العين الذي رأى فيه الناس وقنعوا بمجرد الرؤية فقط،
ثم جاء أخيراً عصر اليد - اليد المفكرة والمصممة ، اليد العاملة
كأداة للعقل ، تقدم الآن ثانية للعالم في كتيب متواضع قوامه
اثنتان وسبعون صفحة ، نجرؤ على أن نبدأ منها تأريخ بداية
الطب التجريبي » .

١٣ - نظام العالم

السير اسحق نيوتن Sir Isaac Newton

النظريات الرياضية Principia Mathematica

كان « كتاب النظريات الرياضية للفلسفة الطبيعية

Philosophiae Naturalis Principia Mathematica

للسير اسحق نيوتن أشهر جميع الكتب ذات التأثير العميق على أمور البشر كما أنه ما من كتاب من تلك قرأه أشخاص أقل ممن قرءوا ذلك الكتاب . فقد كتبه مؤلفه ، في ثؤدة ، باللغة اللاتينية الفنية البالغة الغموض والموضحة بالكثير من الاشكال الهندسية المعقدة . وبدا اقتصرت قراءته على علماء الفلك والرياضيات والطبيعة الواسعى الاطلاع .

وقال واحد من أشهر كتاب حياة نيوتن ، انه عندما نشر كتاب مبادئ الرياضيات في الربع الاخير من القرن السابع عشر ، لم يكن هناك على قيد الحياة من استطاع فهمه ، أكثر من ثلاثة أو أربعة رجال . وزاد كاتب آخر هذا العدد الى عشرة أو اثنى عشر .

وقد اعترف نيوتن نفسه بأنه «كتاب صعب» ، ولكنه لم يبد أية
اعذار لكونه صممه على ذلك النحو ولم يجعل به أية تسهيلات
للألميين رياضيا .

ورغم هذا ، يقرر مشاهير رجال العلوم أن نيوتن من أعظم
الشخصيات الفكرية في العصر كله . فوصف لابلاس Laplace
العالم الفلكي الفرنسي الأملى ، كتاب النظريات الرياضية بأنه
«المتفوق على جميع ما أنتجته العبقريّة البشرية» . واكد لاجرانج
Lagrange عالم الرياضيات الذائع الصيت ، أن نيوتن
أعظم نابغة عاش على وجه الأرض . وصف بوليزمان
Boltzmann رائد العلوم الطبيعية والرياضية الحديثة ،
ذلك الكتاب بأنه أول وأعظم كتاب ألف في العلوم الطبيعية
الرياضية ، في العالم كله . وأبدى العالم الفلكي الأمريكى الشهير
كامببل W.W. Campbell ملاحظته قائلا : « الجلى لى أن
السير اسحق نيوتن الجدير بحق بأن يكون أعظم رجل في العلوم
الطبيعية الرياضية في جميع عصور التاريخ ، يتمتع بمكانة فريدة
بأنه الرائد العظيم في العلوم الطبيعية الفلكية» . وكذلك كتبه
تعليقات رواد علوم الطبيعة في القرنين ونصف القرن الماضية ،
بمثل ذلك الثناء والاحلال والتميز . ويجب على العلمانيين أن
يتقبلوا حكم هؤلاء على هذه الحقائق المبنية على النتائج .

ولد نيوتن بعد وفاة كوبرنيكوس بمدة قرن بالضبط ، وفي
نفس السنة اتى مات فيها جاليليو ، كون هذان العملاقان في عالم
الفلك ومعهما يوحنا كبلر ، الاسس التى بنى نيوتن نظرياته
عليها .

كان نيوتن ساحرا رياضيا في عصر علماء الرياضيات
الموهوبين . وكما أشار مارفين Marvin : كان القرن
السابع عشر عصر ازدهار الرياضيات ، كما كان القرن الثامن عشر

عصر ازدهار الكيمياء ، والقرن التاسع عشر عصر ازدهار علوم الاحياء ، ورات الاربعون سنة الاخيرة من القرن السابع عشر خطوات تقدمية اكثر من اية فترة في التاريخ كله . فقد جمع نيوتن في نفسه اعظم العلوم الطبيعية - الرياضيات والكيمياء والطبيعة والفلك - اذ كان بوسع العالم ، في القرن السابع عشر ، قبل عصر التخصص ، أن يستوعب كافة المجالات .

واذ ولد نيوتن في يوم عيد الميلاد لسنة ١٦٤٢ رأى في أوليات سننى حياته سقوط حكومة الكومنولث لرئيسها أوليفر كرومويل Oliver Cromwell ، والحريق العظيم الذى دمر لندن عن آخرها ، والطاعون المستشرى الذى قضى على ثلث سكان تلك المدينة . وبعد ١٨ سنة قضاها نيوتن في قرية وولثورب Woolsthorpe الصغيرة ، أرسل الى جامعة كامبريدج حيث ساعده الحظ بأن وضعه تحت ارشاد مدرس عبقرى كفاء هو اسحق بارو Isaac Barrow استاذ الرياضيات الذى أطلق عليه اسم «الاب العقلى» لنيوتن . لمس بارو النبوغ في نيوتن الشاب ، فشجع ذلك النبوغ النامى وحفره . وبينما كان نيوتن مازال طالبا في الكلية اكتشف نظرية ذات الحدين .

أُقيمت جامعة كامبريدج أبوابها سنة ١٦٦٥ بسبب الطاعون، فعاد نيوتن الى الريف . ظل معظم السنتين التاليتين معزولا عن العالم ، فكرس نفسه للتجارب العلمية والتفكير ، فكانت النتائج مذهشة . فقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره قام بثلاثة اكتشافات أعلت قدره ووضعت في مصاف العقول العلمية الفذة لجميع العصور . فأولا ، اخترع حساب التفاضل الذى أطلق عليه نيوتن اسم Fluxions لأنه يدخل في جميع مسائل الزيادة وحركة الأجسام والتموجات ، وضرورى لحل المسائل الطبيعية ، ويتناول كل نوع من الحركة . «يبدو أنه يفتح الابواب الجانبية

لمخزن الكنوز الرياضية ، ويضع عالم الرياضيات تحت اقدام نيوتن واتباعه» .

اما الاكتشاف العظيم الثانى لنيوتن فهو قانون تركيب الضوء ، الذى بموجبه اخذ يحلل الالوان والنور الابيض . فبرهن على ان ضوء الشمس الابيض يتألف من جميع الوان قوس قزح . اذا ، فاللون خاصية للضوء . وظهور الضوء الابيض - كما اوضح بالتجربة بواسطة منشور - ينتج عن اختلاط الوان الطيف . وبالمعارف التى اكتسبها نيوتن من هذا الاكتشاف ، استطاع ان يصنع اول تلسكوب عاكس ذى نتائج باهرة .

اما الفكرة الثالثة فجديرة بالملاحظة العظمى ، وهى قانون الجاذبية العام الذى يقال انه اثار خيال العلماء اكثر مما اثاره اى اكتشاف نظرى آخر فى العصور الحديثة . فتبعا لقصة موثوق بها ، جاءت هذه الفكرة لنيوتن عندما لاحظ سقوط تفاحة ، فساقته الى صياغة هذا القانون . لم يكن هناك جديد على فكرة جذب الارض للأجسام القريبة من سطحها . ولكن ما أسهم به نيوتن فى الذخيرة العلمية هو تخيله العظيم الذى جعل قانون الجاذبية هذا عالميا فى استخداماته : للأجرام السماوية قوة جذب لاتقل عن قوة جذب الارض . وبعد ذلك قدم البرهان الرياضى لنظريته .

الغريب ان نيوتن لم ينشر شيئا عن هذه الاكتشافات الثلاثة البالغة الاهمية : التفاضل والالوان والجاذبية . واذا كان ذا طبيعة مولعة بكتمان أسرارهِ والاحتفاظ بمعلوماتهِ فى طيات صدرهِ ، فانه كان يميلت ملاحظات الجمهور ومجادلاتهم . وعلى ذلك كان يميل الى حجز نتائج تجاربه . وكل مانشره فيما بعد كان تحت ضغط أصدقائه ، ثم ندم بعد ذلك على خضوعه لهم واستجابته لتوسلاتهم ، فقد، نجم عن ذلك النشر ان قام زملاؤه العلماء بنقد

مؤلفاته والمجادلة فيها ، وهذا ما كان يشتمل منه نيوتن بسبب طبيعته الحساسة .

بعد الاعتزال الإجبارى والفراغ بسبب سنوات انتشار الطاعون ، عاد نيوتن الى كامبريدج ، ونال درجة أستاذ وعين زميلا في كلية ترينيتي Trinity . وبعد ذلك بفترة قصيرة تقاعد استاذ السابى بارو ، فصار نيوتن وهو فى السابعة والعشرين من عمره استاذا للرياضيات ، وهذا مركز احتفظ به نيوتن لمدة السبع والعشرين سنة التالية . لم يسمع عن نيوتن فى العشر أو العشرين سنة الأولى سوى القليل . والمعروف أنه استمر فى أبحاثه عن الضوء ، ونشر صحيفة عن اكتشافه عن الطبيعة المركبة للضوء الأبيض . وبعد هذا مباشرة ، وقع فى المجادلات . فأولا ، كانت نظرياته عن الضوء تعارض النظريات السائدة وقتذاك ، وثانياً لأنه ضمن صحيفته حقيقة عن فلسفته للعلوم الطبيعية . فأكد فى هذه الصحيفة وجهة نظره بأن الوظيفة الرئيسية للعلوم الطبيعية هى القيام بالتجارب المصممة بعناية ، وتسجيل الملاحظات على هذه التجارب ثم صياغة القوانين الرياضية المبنية على النتائج . وكما قال نيوتن : « الطريقة المثلى لمعرفة خواص الأشياء ، هى استنتاجها من التجارب » . ورغم اتفاق هذه النظرية تماماً مع الأبحاث العلمية الحديثة ، فلم تكن مقبولة تماماً بحال ما فى عصر نيوتن ، إذ كانوا يفضلون المعتقدات المبنية على الخيال والعقل ومظهر الأشياء ، وهى الموروثة عادة عن قدامى الفلاسفة ، يفضلونها على البراهين وليدة التجارب .

غضب نيوتن لهجوم مشاهير العلماء على صحيفته ، ولا سيما هوبجنز Huygens وهول Hooke ، فقرر أن يتحاشى مثل هذا الغضب مستقبلاً ، ألا ينشر شيئاً بعد ذلك ، قائلاً : « لقد اضطهدت من جراء تلك المناقشات التى نجمت عن نشر نظريتى عن الضوء ، حتى اننى لمت حكمتى فى اعلان مثل هذه النعمة

العظيمة كما لو كنت أجرى وراء ظل» كما عبر عن عدم التدقيق الحاد للعلوم نفسها مؤكداً انه فقد «ولعه» السابق بها . وبعد مدة توسل اليه وتملق وألح عليه في «كتابة مؤلفه العظيم» النظريات الرياضية» . والحقيقة هي أنه يبدو أن خلق هذا الكتاب جاء وليد الصدفة .

في سنة ١٦٨٤ قام بيكار Picard بحسابات دقيقة لمعرفة طول محيط الكرة الأرضية بالضبط ، لأول مرة . فاستخدم نيوتن المعلومات التي توصل اليها ذلك الفلكي الفرنسي مع نظرية الجاذبية ، للبرهنة على أن القوة التي تسير القمر حول الأرض ، والكواكب حول الشمس ، هي قوة الجاذبية . تتناسب هذه القوة تناسباً طردياً مع كتلة الأجسام المتجاورة ، وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينها . ومن هذا ذهب نيوتن بعد ذلك ليبرهن على أن هذا هو ما يجعل أفلاك الكواكب اهليلجية الشكل . ففوة شد هذه الجاذبية هي التي تحافظ على دوران القمر والكواكب في أفلاكها موازنة القوة الطاردة المركزية لحركاتها .

وللمرة الثانية أخفق نيوتن في البرهنة على اكتشافه لظاهرة أعظم أسرار الطبيعة . وتصادف أن شغل علماء آخرون في البحث من حل لنفس هذه القضية . اقترح كثير من علماء الفلك أن الكواكب ترتبط بالشمس بقوة الجاذبية . كان من بين هؤلاء روبرت هوك أعظم نقاد نيوتن المتعصبين المعاندين . بيد أنه لم يستطع أي واحد من هؤلاء أن يقدم برهاناً رياضياً . في تلك الاثناء كان نيوتن قد حظى بشهرة بالغة كعالم في الرياضيات ، وزاره في كامبريدج العالم الفلكي ادمند هالي Edmund Halley يطلب مساعدته . وعندما بسط هالي قضيته ، علم أن نيوتن حلها قبل ذلك بسنتين . ويادة على هذا ، وكع نيوتن القوانين الأساسية لحركة الأجسام المتحركة تحت قوة الجاذبية . وبطبيعة الحال ، لم يكن نيوتن يعتزم نشر اكتشافاته .

أدرك هالى من فوره أهمية اكتشافات نيوتن ، فاستخدم كل ماله من قوة الحث لاقتناع نيوتن بوجود نشر اكتشافه والافادة منه . تأثر نيوتن بحماس هالى ، وبشففه هو نفسه الذى أشعل من جديد ، فبدأ يكتب أروع مؤلفاته «النظريات الرياضية» الذى وصفه لانجر بأنه «خزان حقيقى لفلسفة الرياضيات ، وأعظم المؤلفات الطريفة التى أنتجها العقل البشرى» .

والظاهرة البارزة فى كتاب «النظريات الرياضية» التى لاتقل أهمية عن غيرها ، هى أنه استغرق فى تأليفه ثمانية عشر شهرا ، شغل نيوتن إبانها للدرجة أنه كثيرا ماكان ينسى طعامه ولاينال غير قدر يسير من النوم . لايسطيع اخراج مثل هذا العمل الدهنى الضخم فى مدة وجيزة كهذه الا التركيز المستمر والبالغ الشدة . والحق أن ذلك العمل أنهك نيوتن ذهنيا وبدنيا .

وزيادة على ذلك ، لم ينعم نيوتن براحة البال إبان تأليفه لذلك الكتاب ، وانما أزعجته اياما أزعاج تلك المجادلات الدائمة ولاسيما من جانب هوك الذى ألجأ فى أن يكون له شرف اكتشاف نظرية التربيع العكسى للجاذبية فى حركة الكواكب . وكان نيوتن عندئذ قد أتم ثلثى كتابه ، فأغضبه ذلك الادعاء غير العادل للدرجة أنه هدد بحذف الجزء الثالث الأعظم أهمية . وهنا تدخل هالى مستخدما نفوذه وظل يلح على نيوتن فى أن يكمل كتابه حسبما خطط له أولا .

لعب ادمندهالى دورا فى تاريخ كتاب النظريات الرياضية يستحق عنه اسمى تقدير ، ليس فقط لانه المسئول عن حث نيوتن على القيام بذلك العمل ، بل ولانه حصل على موافقة الجمعية الملكية على نشره ولم يذكر كل ما فعله فى الإشراف النهائى لخراج ذلك الكتاب من المطبعة . وأخيرا عندما تكثت الجمعية الملكية وعدها بتمويل نشر ذلك الكتاب ، قام هالى نفسه بسداد جميع

النفقات من جيبه الخاص رغم كونه متوسط الحال ويعمل
أسرة .

بعد أن تخطى ذلك الكتاب جميع العقبات ، خرج من المطبعة
في سنة ١٦٨٧ في حجم صغير بيع بعشرة شلنات أو اثني عشر
شلنًا للنسخة الواحدة. وظهر في الصفحة المخصصة لعنوان الكتاب
واسم مؤلفه ، ظهر اسم صموئيل بينز Samuel Pepys
رئيس الجمعية الملكية على أنه صاحب الترخيص لطبع ذلك الكتاب
رغم أنه من المشكوك فيه ، كما ذكر أحد النقاد : «ما إذا كان يفهم
جملة واحدة منه» .

من الصعب عمل أي ملخص لذلك الكتاب بلغة غير فنية ،
ان لم يكن مستحيلًا . ولكن يمكن عمل بعض التوضيحات . يتناول
المؤلف في جملة ، حركة الأجسام من الناحية الرياضية ،
وخصوصًا من حيث الديناميكا والجاذبية العامة للمجموعة
الشمسية . فيبدأ بشرح حسابات التفاضل الذي اخترعه نيوتن
واستخدمه في جميع العمليات الحسابية بذلك الكتاب . وبعد
ذلك تعريف معنى الفضاء والزمن وبيان قوانين الحركة كما صاغها
نيوتن مع الأشكال الموضحة لاستعمالها . فتقول النظرية الأساسية
ان كل ذرة من المادة تجذبها كل ذرة أخرى من المادة بقوة تتناسب
تناسبًا عكسيًا مع مربع المسافة بينها وبين كل ذرة . كذلك بين
القانون الذي تخضع له الأجسام المتصادفة بعضها مع بعض . وقد
شرح وعبر عن كل شيء بصور هندسية كلاسيكية .

يتناول الجزء الأول من كتاب النظريات الرياضية حركة
الأجسام في الفضاء الطلق ، بينما يتناول الجزء الثاني الحركة
في «وسط مقاوم» كالماء . وقد وضع نيوتن في اعتباره مسائل
حركة السوائل وطرق حلها ، وناقش طرقًا لتقدير سرعة الصوت

وحركة الامواج بالشرح الرياضى . وهنا وضع أساس علم الطبيعيات الرياضية الحديث والايدروستاتيكا والايدروديناميكا .

قوض نيوتن ، فى الجزء الثانى ، ذلك النظام الكونى الذى وضعه ديكارت Descartes ، والذى كان شائعا وقتذاك تقويضا تاما . فتبعا لنظرية ديكارت : تتحرك الاجسام السماوية بناء على حركة دوامية . فالفضاء كله ، تبعا لتلك النظرية ملئ بمادة مائعة خفيفة تحدث دوامات فى نقط معينة . فمثلا ، تتألف المجموعة الشمسية من أربع عشرة دوامة أكبرها تضم الشمس . اما الكواكب فتدور كما تدور قطع الاوراق فى دوامة الاعاصير الحلزونية . فسر ديكارت ظاهرة الجاذبية بهذه الدوامات فلما جاء نيوتن ، أخذ يبرهن بالتجارب والعمليات الرياضية ، وبذا أثبت أن «نظرية الدوامات تتعارض تماما مع الحقائق الفلكية . ولذا فهى بعيدة كل البعد عن تفسير حركة الاجرام السماوية وتقليبها رأسا على عقب» .

أما فى الجزء الثالث ، وعنوانه «نظام الكون» فقد بذل نيوتن قصارى ما فى ذهنه اذ تناول النتائج الفلكية لقانون الجاذبية ، فكتب يقول عن نفسه :

« وضعت فى الجزئين السابقين نظريات الفلسفة (العلوم) ، تلك النظريات الرياضية وليست الفلسفية . هذه النظريات هى قوانين وشروط حركات معينة أو قدرات أو قوات . . شرحتها هنا وهناك . . . ب . . . تبعا لأمور ذات طبيعة عامة . . . مثل كثافة الاجسام ومقاومتها والفضاء الخالى من جميع الاجسام ، وحركة الضوء والصوت . يتبقى من نفس تلك النظريات أن أشرح هيكل نظام الكون» .

شرح نيوتن السبب فى عدم جعله مؤلفه شعبيا ، فقال :

كتب غيرت العالم - ٢٥٧

«الحقيقة اننى الفت الجزء الثالث عن هذا الموضوع بطريقة شعبية كى يقرأه الكثيرون ، ولكن حدث بعد ذلك اننى لما رايت ان اولئك الذين لم يدرسوا تلك النظريات دراسة كافية لايمكنهم ادراك قوة النتائج فى سهولة ، كما أنهم لن يتخلوا عن العقائد والتعصبات التى تعودواهم منذ عدة سنوات ، لذا ، تحاشيا للمنازعات التى قد تنجم بسبب ذلك ، قررت اختصار مادة هذا الكتاب فى صورة مقترحات (بالطريقة الرياضية) لايقروها غير الذين استوعبوا النظريات التى تضمنها الجزءان السابقان استيعابا جيدا . كما اننى لاأشير على أحد بدراسة كل نظرية فى الجزئين السابقين لأنها تستغرق وقتا طويلا حتى من ذوى الدراسات الرياضية الطيبة» .

لهذا السبب ، وصف أسلوب كتاب «النظريات الرياضية» بأنه «بالغ الصعوبة ومكتوب بطريقة متناهية التعقيد لإلجأ اليها الا كاهن سام» .

استهل نيوتن كلامه فى هذا الجزء بذكر حقيقة أساسية تختلف عن النظريات الماضية تماما ، وهى أنه ليس هناك فرق بين الظواهر الارضية والظواهر السماوية ، مؤكدا أن الآثار المتشابهة فى الطبيعة تنتج عن أسباب متشابهة . فمثلا ، التنفس فى الانسان وفى الحيوان ، وسقوط الاحجار فى أوروبا وفى أمريكا ، وضوء نار المطبخ وضوء الشمس ، وانعكاس الضوء على الأرض وعلى الكواكب . وهكذا دحض الاعتقاد القديم القائل بأن العوالم الاخرى كاملة والأرض وحدها هى غير الكاملة . ولكن نيوتن أثبت ان الجميع يخضع لنفس القوانين المعقولة ، كما قال ماك موراي Mac Murray : « يسبب النظام والعمل الرتيب حيث سادت الفوضى والغموض فى العهد الماضى» .

هذا ، وان مجرد عمل قائمة بالموضوعات التى تناولها الجزء

الثالث لدهش حقا . فقد أثبت ، بما لا يترك مجالا للشك ، حركات الكواكب وحركات توابعها حولها وأوضح طرق قياس كتل الشمس والكواكب ، وناقش وفسر مواضيع كثافة الأرض واستقبال الاعتدالين الربيعي والخريفي ونظرية المد والجزر وأفلاك المذنبات وحركة القمر وكل الامور المتعلقة بهذه المواضيع .

اثبت نيوتن ، بواسطة نظريته عن «الاضطرابات» ، أن الأرض والشمس تجذبان القمر ، وهكذا يضطرب ذلك القمر بجذب الشمس رغم أن جذب الأرض له أقوى من جذب الشمس . وكذلك الكواكب عرضة للاضطرابات . وليست الشمس هي المركز الثابت للكون ، على عكس المعتقدات السابقة ، بل تجذبها الكواكب كما تجذب هي الكواكب فتتحرك بنفس الطريقة . وفي القرون اللاحقة أدت نظرية الاضطرابات الى اكتشاف كوكبي نبتيون وبلوتو .

أوجد نيوتن مقادير كتل الكواكب وكتلة الشمس بمقارنتها بكتلة الأرض . قدر كثافة الأرض بما يتراوح بين خمس وست مرات كثافة الماء (الكثافة التي يستعملها علماء الطبيعة اليوم هي ٥.٥) . وعلى هذا الأساس حسب نيوتن كتل الشمس والكواكب وتوابعها . وهذا عمل وصفه آدم سميث Adam Smith بأنه «فوق مدى العقل والعمل البشريين» .

تأتى بعد ذلك الحقيقة القائلة بأن الأرض ليست كرة منتظمة التكور ، بل مسطحة عند القطبين بسبب الدوران ، فشرحا نيوتن وحسب مقدار التسطح . استنتج نيوتن بناء على تسطح الأرض عند القطبين وانبعاجها عند خط الاستواء ، أن الجاذبية لا بد أن تكون عند القطبين أقل منها عند خط الاستواء - وهذه الظاهرة تفسر «الاستقبال» في الاعتدالين والحركة المخروطية لمحور

الارض على غرار الخدروف . وبدراسة شكل الكوكب امكن تقدير طول الليل والنهار على ذلك الكوكب .

استخدم نيوتن قانون الجاذبية الكونية في بحثه عن اسباب المد والجزر . فعندما يكون القمر بدرا يقع على مياه الارض اقصى جذب ، فينتج المد . كذلك تؤثر الشمس على المد والجزر . فعندما تكون الشمس والقمر على خط واحد ، يبلغ المد ذروته .

كذلك هناك موضوع يحظى باهتمام الجميع القى نيوتن عليه النور ، الا وهو موضوع المذنبات . كانت نظريته ان المذنبات اذ تسير تحت جاذبية الشمس ، تتخذ مسارات اهليلجية ذوات مدى بالغ البعد يحتاج قطعه العديد من السنين . لذا فان المذنبات التى اعتبرتها الخرافات نذير شؤم ، تبوات مكانها الصحيح كظواهر سماوية جميلة وعديمة الاذى . وقد استطاع ادمند هالى باستخدام نظريات نيوتن عن المذنبات ، ان يتعرف على المذنب الشهير المعروف ، باسم «مذنب هالى» . ويتنبأ عن موعد ظهوره بالضبط كل ٧٥ سنة . وما ان يشاهد المذنب حتى يمكن تحديد مساره مستقبلا بالضبط .

ومن الاكتشافات العظيمة المدهشة التى قام بها نيوتن ، طريقة تقدير بعد نجم ثابت ، مبنية على كمية الضوء التى يمكن الحصول عليها بانعكاس أشعة الشمس من كوكب .

لم يبد كتاب «النظريات الرياضية» أية محاولة لشرح السبب وانما شرح فقط الكيفية الكونية . وبعد ذلك رد نيوتن على التهم بأن طريقته كانت طريقة ميكانيكية بحتة ، دون ذكر أية اسباب ولا نسبة الى الخالق الاعظم ، فاضاف اعترافه وايمانه بالخالق فى الطبعة الثانية لمؤلفه ، فكتب يقول :

« لايمكن ادراك هذا النظام البديع للشمس والكواكب

والمذنبات الا بتوجيه وسيادة كائن بالغ الذكاء والقوة فكما أنه ليست لدى الإغريق أية فكرة عن الألوان ، كذلك ليس لدينا أية فكرة عن الكيفية التي يرى بها الله الكلى الحكمة ، جميع الأشياء ويفهمها» .

كان نيوتن يعتقد أن وظيفة العلوم هي بناء المعلومات وتنميتها ، وكلما كثر كمال معارفنا كثر اقترابنا من فهم السبب رغم أن الإنسان قد لاكتشف قط قوانين الطبيعة العلمية الصحيحة .

لما كان كتاب «النظريات الرياضية» عملا وليد الذكاء المفرط فان المعجبين بنيوتن المتحمسين له ، يؤكدون أنه لم يكتب في الفراغ. فكما ذكر كوهين Cohen :

« بنيت نظريات نيوتن العظيمة . على أعمال سابقه لقد انتج الماضى السابق مباشرة ، الهندسة التحليلية من ابتكار ديكارت وفورما Format ، والجبر من ابتكار أوجترد Oughtred وهاريوت Harriot و واليس Wallis وقانون الحركة لكبلر ، وقانون الاجسام الهابطة لجاليليو . وكذلك انتج قانون تكوين السرعات لجاليليو - وهو قانون يقول انه يمكن تحليل حركة ما الى مركبات كل منها مستقلة عن الاخرى (فمثلا، تتألف حركة القذيفة من سرعة امامية منتظمة وسرعة الى أسفل ذات عجلة ، مثل حركة جسم مطلق هابط) وهذا قليل من كثير من المكونات انحاضرة التى تنتظر نظريات نيوتن العظمى . ولكن يبقى امام عبقرية نيوتن أن تضيف اليها اللسة الاخيرة العظمى، ليبرهن أخيرا ولاخر مرة كيف يسير نظام الكون تبعا لقانون رياضى» .

كان من الجلى ، كما ذكر جان Jeans ، أن العالم

بحاجة الى رجل يوسع ان يضيف النظريات ويستنتجها ويطلبها، فوجد ذلك الرجل ، بامتيان رائع ، في شخصية نيوتن» .

اعترف نيوتن نفسه بأن «نظامه للعالم» علم ميكانيكا الكون مبنى على أعمال بداها كوبرنيكوس وأخذها عنه تيكو براهي وكبلر وجاليليو . وقال نيوتن : «اذا كنت قد رأيت أبعد مما رأى غيرى من الرجال ، فانما ذلك لوقوفى على أكتاف العمالقة» .

والواقع أن السبب المحتمل للمعارضات والمناقشات التى ملأت حياة نيوتن ، هو الاختمار الذهنى السائد فى عصره . كان الجو زاخرا بالنظريات الجديدة التى فحصها عدد كبير من العلماء الكفاء . ولا يدهشنا أن يكتشف رجلان نفس الاكتشاف فى وقت واحد تقريبا ، وكل منهما مستقل عن الآخر . يبدو أن هذا حدث بالضبط فى اكتشافى نيوتن الرئيسيين اللذين اكتشفهما لينز وهوك . فاخترع لينز حساب التفاضل ، وعدل هوك فى نظرية الجاذبية الكونية بعد أن ابتكرهما نيوتن بوقت ما . ولكنهما أعلنهما للعالم قبل نيوتن الذى أهمل فى نشر مؤلفه .

استقبل معاصرو نيوتن كتابه «النظريات الرياضية» ، فى انجلترا واسكتلندا بترحاب أكثر من استقبال الناس له فى القارة الاوربية ، ولكنه استقبل ببطء فى كل مكان . وكما تنبأ نيوتن ، احتاج فهمه الى مقدرة رياضية عظيمة ، ومع ذلك فان طريقة عرضه الخارقة جعلت الناس ، حتى من كانت لديهم فكرة بسيطة عن مؤلفه يقلون عليه . وشيئا فشيئا قبل العلماء ، فى كل مكان، نظريات نيوتن ، وفى القرن الثامن عشر سلفوا بها فى عالم العلوم .

يبدو أن نيوتن فقد كل متعة فعالة فى الابحاث العلمية بعد أن كتب «النظريات الرياضية» ، رغم أنه عاش مدة أربعين عاما

بعد نشره ، تسلم خلالها عدة تكريمات مشرفة : فعين مديرا لدار
السكة ، ومنحته الملكة آن Anne لقب فارس ، وانتخب
رئيسا للجمعية الملكية منذ عام ١٧٠٣ حتى وفاته في سنة ١٧٢٧ ،
ورأى نشر الطبعتين الثانية والثالثة من كتابه . وعلى العموم ،
قدر اسمى تقدير ونال أعظم أجلال .

عدلت الاكتشافات العلمية في القرن العشرين في نظريات
نيوتن أو أظهرت عدم ملاءمة بعضها ، وخصوصا فيما يتعلق بعلم
الفلك . فمثلا ، أكدت نظرية أينشتاين في النسبية أن الفضاء
والزمن ليسا مطلقين كما علم نيوتن . وعلى العموم ، فكما ذكر
بعض الثقات الحجة في العلوم والتكنولوجيا ، أن تركيب ناطحة
السحاب ، وأمن جسر سكة حديدية ، وحركة السيارة ، وتحليق
الطائرة ، وملاحة السفينة عبر المحيط ، وقياس الزمن وما الى
ذلك من الادلة في حضارتنا المعاصرة ، لاتزال تتوقف أساسا على
قوانين نيوتن . وكما كتب السير جيمس جانز : «ليست نظريات
نيوتن مناسبة فقط فيما يختص بالتهدييات البالغة السمو للعلوم
الحديثة ، بل وان الفلكي عندما يريد اعداد تقويمه الملاحي أو
مناقشة حركات الكواكب ، يستعمل نظريات نيوتن وحدها تقريبا .
والمهندس الذي يريد تشييد جسر أو بناء سفينة أو تصميم
سيارة ، يعمل تماما ماكان يعمل في حالة ماإذا كانت نظريات نيوتن
لم يبرهن على عدم مناسبتها . ونفس الشيء صحيح مع المهندس
الكهربى سواء اكان يصلح تليفونا أو يصمم محطة لتوليد
الكهرباء . لاتزال العلوم المستعملة في حياتنا اليومية ، مبنية على
قوانين نيوتن . ومن المستحيل تقدير ماتدين به هذه العلوم لعقل
نيوتن الصافي والثاقب ، الذى وضعها على الطريق الصحيح ،
وان نظرياته لراسخة ومقنعة لدرجة أنه ما من أحد فهمها واستطاع
ان يشك في صحتها » .

لابد للثناء والتقريظ اللذين نالهما نيوتن على لسان أينشتاين
أن يمحو أى قدح من الفلاسفة منافسيه «اذ كانت الطبيعة أمامه
كتاباً مفتوحاً استطاع قراءة حروفه دون عناء . لقد ضم فى شخص
واحد : العالم القائم بالتجارب ، وصائع النظريات والميكانيكى
والمفنفن فى التعبير» .

قدر نيوتن حياته وهو فى آخر أيامه تقديراً يتسم بالتواضع،
فقال : «لست أدرى ماذا أبدو أمام العالم ، ولكنى أبدو أمام نفسى
كفلام على شاطئ البحر ، يتسلى من آن الى آخر بالعثور على
حصاة أكثر ملاسة او صدفة أجمل من العادية بينما يقع محيط
الحقيقة الخضم كله أمامى دون أن يكتشف» .

١٤ - بقاء الاصلح

تشارلز داروين Charles Darwin

أصل الاجناس

بتطابق عجيب شهد عام ١٨٠٩ مولد قادة عظام بدرجة خارقة للعادة ، ربما كان ذلك أكثر من أية سنة بعينها في التاريخ كله . قدر لكل عظيم منهم أن يكون مبرزاً في مجاله . فهذان تشارلز داروين «نيوتن علم الاحياء» ، وأبراهام لنكولن الرجل العظيم الذي تبنى موضوع عتق العبيد وحققه ، ولدا في نفس اليوم وكاد مولدهما أن يكون في نفس الساعة . ومن بين عظماء الرجال الذين راوا النور في تلك السنة نفسها ، جلادستون Gladstone وتينيسون Jennyson وادجار الان بو Edgar Allan Poe ، وأوليفر وندل هولمز Oliver Wendell Holmes ، واليزابيث باريل براوننج Elizabeth Barell Browning وفيلكو ماندلسوهن Felix Mendelssohn .

ما من أحد من هؤلاء الاسماء الشهيرة ، وفي الواقع من بين

جميع الملايين المولودين في القرن التاسع عشر ، وربما ، باستثناء كارل ماركس ، مامن أحد فعل أكثر من داروين في تغيير الاتجاهات الرئيسية للفكر ، وخلق نظرة جديدة في المواضيع البشرية . وان «الداروينية» فكرة ثبتت ورسخت تماما في عقول الشعب مثل الماركسية والمالطوسية والماكيافيلية .

على الرغم من أن المبادئ الأساسية للنظريات الداروينية ، تحظى اليوم بقبول عام تقريبا في العالم العلمي ، فقد ثارت المجادلات حولها في مدى قرن تقريبا . والمعارك الأساسية الحديثة للقرنين التاسع عشر والعشرين التي بلغت ذروتها في مجالات « موضوع القرد » في ولاية تينيسى Tennessee من بين الامثلة القليلة لحرية بدأت في عام ١٨٥٩ ، ولم تبدأ أمارات الهدنة من هذه الهجمات الا حديثا .

لم يبد داروين وهو شاب سوى القليل من الدلائل على انه سيكون عالما ذا شهرة عالمية . . . انحدر من أسرة تضم عددا من العلماء المبرزين والرجال المحترفين ، ولكن ، حتى والده نفسه ، ساوره شك بالغ فيما اذا كان ابنه سيصبح شيئا ما . ففي مدرسة «قواعد اللغة» ، ضاقت شارل الصغير دراسة اللغات الميتة والمنهج الكلاسيكي الجاف البالغ الصعوبة . وقد انبه ناظر تلك المدرسة على تضيق وقته في التجارب الكيميائية وجمع الحشرات والمعادن . ولكي ينهض نهج أبيه ، أرسل الى جامعة ادنبره وهو في السادسة عشرة ليدرس الطب . وبعد قضاء سنتين فيها ، قرر أن مهنة الطب ليست له . فنقل الى كامبريدج ليتدرب على الكهنوت للكنيسة الانجليزية .

من وجهة نظر الدراسة الشكلية ، اعتبر داروين أن دراسة السنوات الثلاث في كامبريدج كانت مضیعة للوقت . بيد أن الحظ ساعده هناك بأن صادق استاذين ذوي نفوذ بالغ . قضى داروين

وقتا طويلا مع هنسلو Henslow أستاذ علم النبات ،
وسدجويك Sedgwick أستاذ الجيولوجيا ، في رحلات الى
الحقول يجمع الخنافس وملاحظات التاريخ الطبيعي .

نال داروين عرضا ، عن طريق سدجويك ، بالابحار كعالم
طبيعى على ظهر سفينة البحرية «بيجل Beagle» . فخرج
في بعثة للقيام بمسح واسع النطاق في نصف الكرة الجنوبي . وفي
السنوات التى تلت تلك الرحلة ، اعتبرها داروين «أهم وأعظم
حادث في حياتي» . فقد قررت هذه الرحلة مجال مستقبله كله .
وقد ماتت «فكرة مصيره كاهنا ، ميتة طبيعية فوق البيجل» .

رست البيجل ، أثناء السنوات الخمس التالية من ١٨٣١
- ١٨٣٦ ، على كل قارة وكل جزيرة عظمى ، تقريبا ، أثناء دورانها
حول العالم . وطلب من داروين أن يعمل جيولوجيا وخبرا في علم
النبات وعلم الحيوان وعالما في العلوم الطبيعية بصفة عامة . وهذا
اعداد رائع ممتاز لحياته القادمة في الابحاث والكتابة . فأينما
ذهب ، كان يجمع مجموعات ضخمة من النباتات والحيوانات ،
المتحجرة والحية ، من البرية والبحرية . كان يفحص بعين العالم
الطبيعى ، جميع النباتات والحيوانات التى تعيش على الارض وفي
البحر . في سهول البامبا بالارجنتين ، ومنحدرات جبال الانديز
Andes « الجافة والبحيرات الملحة والصحارى في شيكى
واستراليا ، وغابات البرازيل الكثيفة ، وتيرادلغويجو
Tierradel Fuego وتاهيتى ، وجزر الرأس الاخضر المنزوعة
الغابات ، والتكوينات الجيولوجية لساحل أمريكا الجنوبية وجبالها
والبراكين الحية والخامدة بالجزر وارضى القارة ، والحواجز
المرجانية ، والشديدات المتحجرة في باتاجونيا Patagonia ، والاجناس
البشرية البائدة في بيرو Peru والوطنيين الاصليين في تيرادلغويجو
وباتاجونيا .

من بين جميع المناطق التي زارها داروين ، لم تثر أية واحدة منها متعته أكثر مما أثارتها جزر جالاباجوس Galapagos الواقعة على مسافة ٥٠٠ ميل غربى ساحل أمريكا الجنوبية . رأى داروين في هذه الجزر البركانية المنعزلة غير المأهولة التي تكاد تكون قاحلة سلاحف عملاقة موجودة في كل مكان كحفريات ليس غير وسحليات ضخمة انقرضت منذ زمن بعيد من أجزاء العالم الأخرى ، وسرطانات عملاقة وسباع بحر هائلة الحجم . وقد أدهشه بنوع خاص أن طيور تلك الجزيرة كانت شبيهة بطيور القارة المجاورة ، ولكنها ليست مطابقة لها . وزيادة على ذلك ، كانت هناك اختلافات بين شتى أجناس الطيور من جزيرة الى جزيرة .

قوت هذه الظواهر الغريبة في جزر جالاباجوس بالإضافة الى بعض الحقائق التي سبق أن لاحظها في أمريكا الجنوبية ، قوت أفكار التطور التي بدأت تتشكل في ذهن داروين ، وهالك روايته هو نفسه :

« دهشت دهشة بالغة عندما اكتشفت في تكوينات البامبا حيوانات حفزية ضخمة مغطاة بدروع كدروع الارماديلو الحالى ، وثنائيا بالطريقة التي تحل بها الحيوانات الغريبة التشابه ، أحدها محل الآخر في الاتجاه جنوبا على القارة ، وثالثا بالصيغة الأمريكية الجنوبية لمعظم انتاجات أرخبيل جالاباجوس ، وخصوصا بالكيفية التي تختلف بها اختلافا طفيفا في كل جزيرة من مجموعة الجزر هذه . ومامن جزيرة منها تبدو عتيقة جدا ، بالمعنى الجيولوجى » .

ماعاد داروين يصدق اطلاقا تعاليم «التكوين» القائلة بأن كل جنس خلق كاملا وانحدر خلال العصور دون تغير .

وفور عودته إلى إنجلترا ، شرع يحتفظ بمذكراته عن التطور ،
ويجمع الحقائق عن مختلف الأجناس ، وهذا هو رايه « أصل
الأجناس » . فكتب أول تسويده عن نظريته في سنة ١٨٤٢ وتفع
في ٣٥ صفحة ، ثم وسعها في سنة ١٨٤٤ إلى صورة اكمل تقع في
٢٣٠ صفحة . كان اللغز العظيم ، في البداية ، هو كيف يفسر
ظهور الانواع واختفاءها . لماذا تنشأ الأجناس وتتحوّل بمرور
الزمن وتتفرع إلى عدة أنواع ، وتختفي في الغالب من الوجود
تماما ؟

عشر داروين على مفتاح هذا اللغز عندما قرأ ، بمحض
الصدفة ، موضوع مalthus عن السكان . أبان مalthus أن معدل
الزيادة في عدد السكان قد أخرته «عوامل إعاقة إيجابية» كالأمراض
والحوادث والحروب والمجاعات ، فطرا على فكر داروين أن هناك
عوامل مشابهة تعمل على انخفاض عدد الموجود من الحيوانات
والنباتات ، فكتب يقول :

« واذا صرت على أتم استعداد لتقدير قيمة تنازع البقاء
الساري في كل مكان ، من ملاحظاتي المستمرة مدة طويلة لعادات
الحيوانات والنباتات ، طرا على بالي ، في الحال ، انه في مثل
هذه الظروف ، تميل الأجناس الصالحة إلى الاحتفاظ بجنسها ،
بينما تندثر أو تهلك الأجناس غير الصالحة . وتكون نتيجة هذا
تكون أجناس جديدة . اذن، تكونت عندي هنا أخيرا نظرية يمكنني
أن أعمل على هديها » .

وهكذا ولد مذهب داروين الشهير «الانتقاء الطبيعي» أو
«تنازع البقاء» أو «بقاء الأصالح» وهذا هو حجر الأساس لكتابة
«أصل الأجناس» .

ظل داروين مدة عشرين سنة يكتب مذكراته ويضع البراهين

على نظرياته . فقرأ كميات ضخمة من النصوص - مجموعات كاملة من المجلات الدورية ، وكتب الرحلات وكتب الرياضيات ، وزراعة الزهور والفاكهة والخضر وتربية الحيوان والتاريخ الطبيعى العام ، فكتب يقول : «عندما أتأمل قائمة الكتب التى قرأتها ولخصتها ، وتشمل مجموعات كاملة من الصحف والصفقات أدهشنى نشاطى» . فتحدث الى خبراء تربية الحيوان والنبات ، وأرسل مجموعات من الاسئلة الى كل من يمكن ان تكون لديهم معلومات مفيدة . أعدت هياكل عظيمة لعدة أنواع من الطيور الاليفة، وقورنت أعمار وأوزان عظامها بعظام أجناس الطيور البرية فقام بتربية الحمام الأليف وأجرى تجارب واسعة فى التهجين . كما أجرى تجارب على الفواكه والبذور الطافية على مياه البحار ، وفحص عدة أمور أخرى تتعلق بانتقال البذور ، مستخدما فى ذلك جميع معلومات علم النبات وعلم الحيوان وعلم الحفريات او الجثث المتحجرة التى اكتسبها من رحلاته على ظهر سفينة البحرية «السيجل» . وأضاف الى كمية المعلومات هذه آراءه الشخصية ، اذ كان دائم التفكير فى نظرياته الثورية .

اعتقد داروين ان التدعيم القوى لمذهبه «الانتقاء الطبيعى» جاء من دراسة «الانتقاء الصناعى» . ففى حالة الحيوانات الاليفة والنباتات المنزلية - الخيول والكلاب والقطط والقمح والشعير وزهور الحدائق ونحوها - أنتقى الانسان وربى منها أكثرها نفعا لاحتياجاته . وهكذا حورت الحيوانات الاليفة والمحاصيل والزهور خلال هذه العملية حتى انه قلما يمكن التعرف على أنها تنتمى الى أسلافها البرية بصلة . فنشأت أجناس جديدة عن طريق الانتقاء . فينتقى المربي الحيوانات ذوات الصفات التى يريدها ولايربى سواها ، جيلا بعد جيل ، وأخيرا ينتج أجناسا تختلف عما كانت موجودة من قبل . فأنواع الكلاب المتباينة ، مثل

الكلب الطويل الجسم ، والقصير الارجل ، وكلب حراسة الاغنام ،
والابيض الطويل الاذان وكلاب الصيد بجميع أنواعها ، منحدره
كلها عن الذئب .

قال داروين ، اذا أمكن احداث التطور بالانتقاء الصناعى ،
فهلا تستطيع الطبيعة أن تفعل ذلك بالانتقاء الطبيعى ؟ وفى الطبيعة ،
يحل «تنازع البقاء» محل المربى . لاحظ داروين ، بين جميع
أنواع الحياة ، أن عددا كبيرا من الافراد يجب أن يهلك . لا يستطيع
الحياة من بين المولود منها الا نسبة بسيطة ، تمتد بعض الاجناس
بالغذاء اجناس أخرى . تدور المعركة بغير انقطاع . وتبديد المنافسة
العنيفة الحيوانات والثباتات غير الصالحة فتتقرض ، وتحدث
تغيرات فى الاجناس لتلائم الظروف اللازمة لبقائها .

وهكذا أصر داروين على بناء حصن من البراهين لنظرياته
يتحدى كل هجوم . ولكنه أهمل نشرها حتى خمسينات القرن
التاسع عشر . وأخيرا ، بعد الحاح أصدقائه المخلصين ، أخذ يعد
العدة لعمل اثرى يصدر فى عدة مجلدات . غير أنه عندما كان ذلك
العمل فى منتصفه تقريبا ، نزلت صاعقة ، اذ تسلم داروين خطابا
من الفريد روسل والاس Alfred Russel Wallace أحد زملائه
العلماء الذى كان يقوم بأبحاث واكتشافات فى التاريخ الطبيعى فى
ارخبيل الملايو . ذكر والاس أنه هو أيضا يعمل فكره فى أصل
الاجناس ، وأنه ، كما فعل داروين ، قرأ مalthus فأوحى اليه
بذلك العمل . تضمن الخطاب مقالا عن «ميل أنواع الاجناس الى
أن ترحل عن شكلها الاصلى الى غير رجعة» . وكان هذا بالضبط
حقيقة من حقائق نظرية داروين ، فقال داروين : «لو اطلع والاس
على مذكراتي الخطية التى كتبتها فى سنة ١٨٤٢ ، لما عمل ملخصا
خيرا منه (فحتى مصطلحاته هى نفس عناوين أبواب مؤلفى » .

واجهت داروين معضلة . فمن الجلى أن كلا من الرجلين

قد وصل الى نفس النتائج تماما ، رغم ان كلا منهما كان يعمل وحده بمنأى عن الآخر ومستقلا عنه ، ورغم ان داروين قضى سنوات من الدراسة والتفكير في ذلك الموضوع ، بينما طرأت آراء والاس على تفكيره فجأة . واخيرا استقر الراى على ان يقدم كل منهما اوراقه في الاجتماع التالى للجمعية اللينائية Linnean وبناء على ذلك اعلن لأول مرة عن نظرية التطور بالانتقاء الطبيعى في اول يوليو سنة ١٨٥٨ . وبعد ذلك بفترة قصيرة صدر مقال كل منهما في صحيفة الجمعية .

الهب حادث والاس حماس داروين ، فترك المؤلف الضخم الذى كان يعده ، وقرر ان يكتب ما أطلق عليه «الملخص» . وقرب نهاية عام ١٨٥٩ نشر جون موراي John Murray ، في لندن ذلك الكتاب الذى قدر له ان يصبح حجر الزاوية في تاريخ العلوم . كانت الطبعة الاولى ١٥٠٠ نسخة بيعت كلها في اليوم الأول ، فتبعها طبعات أخرى حتى بلغ عدد النسخ التى بيعت في حياة داروين (مات في سنة ١٨٨٥) ٢٤٠٠٠ نسخة في انجلترا وحدها ، وترجم ذلك الكتاب الى جميع اللغات المتحضرة تقريبا كان عنوان النسخة الاصلية «أصل الاجناس بواسطة الانتقاء الطبيعى أو بقاء الاجناس الصالحة في التنارع من أجل البقاء» . ثم اختصر الزمن هذا العنوان الطويل الى «أصل الاجناس» .

ناقش داروين الاسس الجوهرية لنظريته في الابواب الاربعة الاولى من كتابه «أصل الاجناس» . وتناولت الابواب الاربعة التالية الاعتراضات الممكنة على هذه النظرية . وبعدها تأتى عدة أبواب تتناول علم طبقات الارض والتوزيع الجغرافى للنباتات والحيوانات ، والحقائق المناسبة لتصنيفها ، وعلم الشكل الخارجى للكائنات وعلم الاجنة . ويلخص الباب الاخير كل ماسبق .

فسر داروين ، في بداية كتاب «أصل الاجناس» تلك التغيرات

التي حدثت للحيوانات الاليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الانسان . ويقارن الانواع التي نتجت عن « الانتقاء الصناعى » بالتغيرات التي حدثت للحيوانات الاليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الانسان . ويقارن الانواع التي نتجت عن « الانتقاء الصناعى » بالتغيرات التي تحدث فى الطبيعة او « الانتقاء الطبيعى » فأينما توجد الحياة يحدث التغير باستمرار ، وما من فردين متشابهان تماما .

اضاف داروين تنازع البقاء الى التنوع . فاستعمل بعض الامثلة الشهيرة لشرح كيف تزيد قدرة الكائنات الحية على التكاثـر ، الى اى حد طالما لها مقدرة على الحياة . وحتى أبطأ الحيوانات فى التكاثـر ، مثل الاقبال ، سرعان ما تملأ الدنيا . فاذا كبر كل فيل الى طول البلوغ وتكاثر طبيعيا ، فانه كما يقول داووين « سيكون هناك بعد مدة من ٧٤٠ الى ٧٥٠ سنة ، سيكون هناك على قبد الحياة نحو الى ١٩ مليون فيل منحدرة من زوج الافيال الاول » . ومن هذا المثال وغيره من الامثلة ، استنتج أنه « بما أن عدد الافراد التى تولد تزيد كثيرا على مايمكن أن يعيش ، فلا بد أن يكون هناك تنازع على البقاء ، أما بين فرد ما وفرد آخر من نفس جنسه ، أو بين أجناس مختلفة ، أو بين الكائنات الحية وظروف الحياة الطبيعية » . لاشواذ للقاعدة القائلة بأن كل نبات أو سمك أو طائر أو حيوان ، ومنه الانسان ، ينتج بذورا الى ما لانهاية أكثر مما يستطيع أن يتلاءم مع العالم المزدهم أو أكثر مما يولد . ومعدل الزيادة يتبع متوالية هندسية أى متضاعفة .

كذلك قدم رسما بيانيا للاعتماد المتبادل بين الكائنات الحية كل على الآخر . وجد داروين أن التلقيح النباتى بواسطة النحل ضرورى لاختصاب ازهار البانسية وبعض أنواع البرسيم .

«يتوقف عدد النحل في كل منطقة ، الى حد كبير ، على عدد جردان الحقل التي تتلف خلاياها وأقراص العسل التي تصنعها ... ويتوقف عدد الجردان كثيرا كما يعرف كل انسان ، على عدد القطط .. اذن فمن المعقول جدا أن وجود أى حيوان مفترس بأعداد كبيرة فى اية منطقة ، يقرر ، عن طريق اعتماد كائن على آخر ، أولا عدد الجردان ، ثم عدد النحل ، وبعد ذلك وجود زهرة معينة فى تلك المنطقة .»

يبدأ كتاب «أصل الاجناس» بأن يوضح كيفية عمل مبدأ «الانتقاء الطبيعى» فى ايقاف زيادة عدد السكان . يكون بغض افراد جنس ما أقوى من غيرها أو أسرع جريا أو أعظم ذكاء أو أكثر مناعة للأمراض أو أقدر على احتمال قسوة الطقس . يبقى هؤلاء أحياء ويتكاثر بينما يهلك الضعفاء . يعيش الارنب الابيض فى المناطق القطبية بينما تستأصل الثعالب والذئاب الارانب البنية اللون والاكبر جسما . وعاشت الزراف الطويلة الاعناق لانها استطاعت ، فى وقت الجفاف ، الحصول على طعامها من قمم الاشجار ، بينما ماتت جوعا الزراف القصيرة الاعناق . فاكدت هذه الاختلافات مبدأ «بقاء الاصلح» . وفى خلال عشرات الالوف من السنين ، أدى ذلك الى خلق اجناس جديدة .

يروى داروين قصة قانون السن والناوب والمخلب وهى تعمل فى كل مكان ، فيقول :

«نبر وجه الطبيعة مشرقا بالبشر ، وكثيرا مانرى وفرة الطعام ، ولا نرى أو ننسى أن الطيور التى تفرد حولنا تتغذى غالبا بالحشرات أو البذور ، وهكذا تهلك الحياة باستمرار ، كما لانسى كيف تهلك هذه الطيور المفردة ويهلك بيضها وفراخها بواسطة الطيور الجارحة والوحوش الضارية ، ولانتذكر دائما انه على الرغم من الوفرة العظيمة فى الطعام ، فانه لا يكون بمثل هذه الدقة فى جميع الفصول المتعاقبة فى العام» .

أشار داروين الى مظهر هام من مظاهر «الانتقاء الطبيعي»، فقال : «المعتاد أن الذكور الأقوياء الأكثر ملائمة لماكنهم في الطبيعة، هم الذين يتركون ذرية أكثر ... فالوعل العديم القرون ، أو الديك عديم المخالب القوية أضعف فرصة في ترك ذرية عديدة» . و «غالباً ما يكون النضال بين الطيور في صورة أكثر هدوءاً» . فان ذكور الأجناس المختلفة تسعى الى جذب الاناث بالتغريد العذب أو بالريش الجميل أو بالقيام بحيل غريبة .

وكذلك الطقس عامل قوى في الانتقاء الطبيعي ، لانه يبدو أن الفصول الشديدة البرودة والجفاف هي أكثر الفصول أعاقاً للتكاثر ... يبدو فعل الطقس ، لأول وهلة ، مستقلاً تماماً عن تنازع البقاء . ولكن طالما يعمل الطقس على اقلال الطعام فانه يجلب في ركابه أقصى تنازع بين الأفراد ، سواء من نفس الجنس أو بين أفراد الأجناس المختلفة التي تتغذى بنفس نوع الطعام» . والمنتظر أن التي تعيش أكثر من غيرها هي الأفراد القوية القادرة على مقاومة الحر أو البرد ، والقادرة أكثر من غيرها على الحصول على طعامها .

كتب داروين يقول :

«يتربص الانتقاء الطبيعي ، كل يوم ، بل وكل ساعة في العالم ، بأقل الاختلافات قبيحة الردىء ويحتفظ بكل ما هو طيب ، يعمل في هدوء وفي الحال كلما وإينما سنحت له الفرصة عند تحسين كل كائن عضوى تبعاً لظروف حياته العضوية أو غير العضوية . لم نبصر شيئاً من هذه التغيرات البطيئة وهي تتقدم حتى أوضحت يد الزمن أنصرام العصور ، وتكون نظرنا الى العصور الجيولوجية البالغة القدم ، غير كاملة ، فلانرى غير اختلاف أشكال الحياة الآن عما كانت عليه في الماضى» .

قرر داروين في آخر أبواب كتابه انه لا حدود لقوة الانتقاء الطبيعي ، واقترح أن الانسان يمكنه « أن يستنتج من المشابهة ، انه من المحتمل أن تكون جميع الكائنات العضوية التي عاشت على هذه الارض منحدرة من صورة أصلية واحدة دبت فيها الحياة أول مادبت » . واعتقد أن جميع صور الحياة المعقدة وجودها للقوانين الطبيعية . وجد أن نتائج الانتقاء الطبيعي موحية .

وهكذا نجد ، من حرب الطبيعة . ومن المجاعات ، ومن الموت ، نجد أعظم موضوع نستطيع التفكير فيه ، وهو انتاج الحيوانات الراقية ، هو مايلي ذلك مباشرة . توجد عظمة في وجهة النظر هذه عن الحياة ، بشتى قواها التي نفثها الخالق في بضعة صور أو في صورة واحدة . وبينما يدور هذا الكوكب تبعا لقانون الجاذبية الثابت ، فمن هذه البداية البسيطة نشأت صور لانحصى في غاية الجمال والعجب ، ولا تزال تنشأ .

على هذا النحو كانت نظرية التطور اللانهائي التي قدمها كتاب «أصل الاجناس» . ومع ذلك ، فعلى نقيض الاعتقاد السائد أن داروين لم يخلق نظرية التطور ، فهذه الفكرة أقدم من أريستو ولوكريتيوس . أيد هذا المذهب كثير من العقول البالغة الذكاء امثال : بوفون Buffon وجوته Goethe وإيراسموس داروين Erasmus Darwin (جد شارل) ، ولامارك Lamarck وهربرت سبنسر Herbert Spencer . . . اشتهرت نظرية شارل داروين في ناخيتين : الأولى قدم البراهين ، التي تقبل الجدل ، للتدليل على حقيقة التطور أكثر مما قدم من سبقوه . والثانية أنه قدم نظريته الشهيرة عن الانتقاء الطبيعي بتفسير معقول لطريقة التطور .

شبه تهاافت معاصري داروين على كتاب «أصل الاجناس» ،

بحريق هائل انطلق كالبرق في جرن . فاذا كانت هذه النظرية الثورية الجديدة صحيحة ، فلا يمكن بعد ذلك قبول قصة التوراة عن الخليفة . فادركت الكنيسة ، من فورها ، أن مذهب داروين خطر على الدين واقامت عاصفة من المعارضة . وعلى الرغم من أن داروين كان على جانب كبير من الحذر ولم يطبق نظريته على الجنس البشرى ، فقد ذاع اتهامه بأن ذلك المؤلف يقول ان الناس منحدرون عن القرود .

قامت محاولات للحط من قدرة داروين عن طريق السخرية، فوصفه مقال في صحيفة كوارترلى ريفيو Quarterly Review بأنه «شخص واهم» يحاول في كتابه «أن يدعم نسيج تخمينه العفن تماما وتأملاته القدرية» وأن «طريقة تناوله للطبيعة مخزية للعلوم ، أى خذى» . أما صحيفة سبكتاتور Spectator فلم تعجبها هذه النظرية «لأنها تنكر الغايات الاخيرة ، وبذا تدل على فهم غير أخلاقي من جانب المدافعين عنها» . وزيادة على ذلك اتهم داروين بجمع كمية من الحقائق لتدعيم مبدأ زائف ، و «لا يمكنك أن تصنع حبلا من سلسلة من الفقايع الهوائية» . وتساءلت إحدى الصحف عما اذا كان بالإمكان تصديق أن جميع أنواع اللفت الصالحة ، تميل الى أن تصبح اناسا . ولما لم تكن في انجلترا محاكم تفتيش دينية ، فان الاثينايوم Athenaeum أوصت في صحيفة مناهضة أخرى بإرسال داروين «تحت رحمة القاعة المقدسة وطائفة الكهنة وقاعة المحاضرة والمتحف» . فكان تعليق داروين على ذلك : «لن يحرقنى هذا ، على أية حال ، ولكنه سيعيد الغابة ويعلم الوحوش السود كيف تمسكنى» .

لم يسمح الاستاذ هيوبل Whewell بوضع نسخة من كتاب «أصل الاجناس» في مكتبة كلية كامبريدج التى تربي وتعلم فيها داروين .

حظى داروين بتأييد قوى من زملائه العلماء ، كما عارضه البعض مرة . مثل وجهة النظر الرجعية اشخاص مثل أوين Owen في انجلترا ، واجاسيز Agassiz في أمريكا ، فقرر كل منهما أن الافكار الداروينية هرطقة علمية ، وسرعان ماسيطويها النسيان . ووصف العالم الفلكى السير جون هرشيل Herchel ، الداروينية بأنها « قانون قلب الأوضاع » . وقرر سدجويك Sedgwick أستاذ داروين لعلم طبقات الارض بجامعة كامبريدج ، أن هذه النظرية «باطلة وشريرة بدرجة محزنة» . وكتب داروين يقول : «انه ضحك حتى آله جنباه من شدة الضحك » على كتابه اذ اعتبره « آلة وحشية مثل قاطرة الاسقف، ويلكنز Wilkins التى كانت ستبحر بنا الى القمر » .

رغم كل هذا ، لم يعدم داروين الابطال الشجعان وكان في مقدمة هؤلاء شارل لايل Charles Lyell عالم طبقات الارض ، وتوماس هوكسلى Huxley أستاذ علم الاحياء ، وجوزيف هوكر Hooker عالم النبات ، آساجراى Asa Gray عالم النبات الأمريكى الشهير . واكثر من اعتمد عليه داروين من بين كل هؤلاء ، هو هوكسلى الذى اطلق عليه اسم «الوكيل العام» ، والذى أشار اليه انه «الحارس الوفى (بولدوج) لداروين» . لم يكن داروين رجل جدل ، ولم يظهر قط فى الاجتماعات العامة ليدافع عن نظريته ، وانما الذى اضطلع بمعظم الدفاع هو هوكسلى القدير الغيور .

كان هوكسلى هو الذى لعب أحد الدورين الهامين فى اجتماع الجمعية البريطانية فى اكسفورد سنة ١٨٦٠ . كان برنامج الاجتماع هو النظرية الداروينية . كان المدفع الاكبر فى جانب المعارضة هو الاسقف وبرفورس Wiberforce أسقف

اكسفورد . وفي نهاية خطاب صاحب ظنه حطم نظرية داروين .
استدار الاسقف الى هوكسلي وهو جالس على منصة الخطابة ،
وسأل متهمكا : «أود أن أسأل الاستاذ هوكسلي : هل جاء
الانحدار عن القرد ، من ناحية جده أو من ناحية جدته ؟» فصاح
هوكسلي يكلم أحده أصدقائه بقوله : «لقد أسلمه الرب بين
يدى» ، وصعد ليجيب على السؤال . ويقال انه قال :

« لا يحق للمرء أن يخجل من أن جده قرد ، وإنما الجد
الذى أشعر بالعار منه هو أن كان رجلا مضطرب الذكاء متقلبه ،
لا يقنع بالنجاح في مجال عمله ، وإنما يقحم نفسه في أمور علمية
لا يلم بها الماما حقيقيا فيلقى الغموض عليها ببلاغة عديمة الهدف»
وسرح بانتباه سامعيه بعيدا عن جوهر الموضوع بانحراف بلاغى
ونداء بارع الى التعصب الدينى » .

هذا هو أحد الاصطدامات العديدة بين الكنيسة والعلم
بسبب المذهب الداروينى والتطور الذى استمر اواره في السنين
اللاحقة .

عدلت آراء داروين عن الدين عندما تقدمت به السن .
فلما كان شابا ، آمن بفكرة الخليفة الخاصة دون ابداء أى سؤال
عبر في حياته وخطاباته عن اعتقاده بأن الانسان سيكون في
المستقبل البعيد مخلوقا أكثر كمالا عما هو الآن» .

وأضاف داروين يقول :

« أثر في مصدر آخر للتساؤل عن وجود « الله » يتصل
بالعقل وليس بالمشاعر ، على أنه أكثر أهمية . جاء هذا من
الصعوبة البالغة ، أو بالحرى من استحالة تصور هذا العالم
الشاسع العجيب الذى يشمل الانسان ذا القدرة على النظر الى
الماضى والى المستقبل نتيجة الفرصة العمياء أو الحاجة العمياء .

وبينما انا اتمثل هذا ، اشعر بأننى مضطر الى النظر الى كائن اول ذى عقل ذكى الى درجة انه يشبه عقل الانسان . واننى لاستحق ان اوصف بالاحاد . كانت هذه الفكرة قوية فى ذهنى فى حوالى الوقت الذى كتبت فيه «أصل الاجناس» حسبما أستطيع ان أتذكر . ومنذ ذلك الوقت اخذ يضعف تدريجيا مع بعض التغيرات . ولكن عندئذ ينشأ الشك : أمن الممكن ان نثق فى عقل الانسان ، الذى كما اعتقد ، متطور عن عقل كعقل أدنى حيوان ، أمن الممكن ان نثق فيه عندما يستنتج مثل هذه النتائج ؟

عند ذلك رفع داروين يديه وقال :

« لا ادعى اننى اقيت اقل ضوء على مثل هذه المسائل فلغز نشأة جميع الكائنات مستحيل الحل بواسطتنا ، واننى كفرد ، يجب ان اقنع بان أبقى من انصار مذهب عدم كفاية العقل البشرى لفهم الوحي» .

تلا كتاب «أصل الاجناس» سبيل من الكتب بقلم داروين السليال ، تناولت مواضيع اكثر تخصصا خططت لتكون ملحقا للتطور بالانتقاء الطبيعى وتكملة وتدعمه ، ذلك التطور الذى قدم بطريقة مفهومة فى كتاب «أصل الاجناس» . فصدر أولا مجلداً صغيراً بعنوان «عن شتى الطرق التى تلقح بها الإوركيديات بواسطة الحشرات» ، و «طبائع النباتات المتسلقة» . وبعدهما ظهر مؤلفان ضخمان : «تنوع الحيوانات والنباتات بالاستئناس» ، و «انحدار الانسان والانتقاء بالنسبة للجنس» . وتناولت الكتب التالية التعبير عن العواطف فى الانسان والحيوان ، والنباتات آكلة الحشرات ، وآثار الاخصاب بالتهجين ، وقوة الحركة فى النباتات ، وتكون الفطر النباتى .

تعهد داروين في كتاب « أصل الأجناس » أن نخفف من مناقشة موضوع نشأة الانسان ، لانه اعتقد ان اى تأكيد لمرحلة التطور يسبب نبذ نظريته كلها . ومع ذلك فقد قدم كمية ضخمة من الأدلة في «انحدار الانسان» ليشرح ان الجنس البشرى هو ايضا ناتج من التطور من صور أدنى .

ومن وجهة نظر الماضى ، كان انطباع داروين لجميع مجالات العلوم العظمى تقريبا ، عميقا ومستمر في تعمقه . فقبل علماء الاحياء مذهب التطور العضوى ، وكذلك فصل علماء طبقات الارض والكيميائيون وعلماء الفيزياء ، كما قبله علماء الاجناس البشرية والعلماء النفسانيون والمعلمون والفلاسفة وعلماء الاجتماع ، وحتى علماء التاريخ وعلماء السياسة وفقهاء اللغة . فكتب شارلز الود Charles Ellwood ، يقول :

« عندما يتأمل المرء في الاثر الضخم لمؤلف داروين على جميع فروع الفكر البشرى ولاسيما على علوم الاحياء والنفس والاجتماع ، يجد نفسه مضطرا الى استنتاج ان ... يجب اعطاء داروين اسمى مقعد شرفى كأعظم مفكر استثمر افكاره في القرن التاسع عشر ، ليس في انجلترا وحدها وانما في العالم أجمع . وان الاهمية الاجتماعية لتعاليم داروين قد بدأت في الدخول الى الافهام» .

ذكر وست West في كتابته عن «أصل الاجناس» : « كان الأثر بالغا بحق . فبمجرد تقديم مبدا جديد حركى وليس ساكنا ، قلب كل فرع للدراسة ، من علم الفلك الى التاريخ ، ومن علم الحفريات الى علم النفس ومن علم الاجنة الى الدين» .

ومن ناحية اخرى ، كانت هناك تطبيقات لنظريات داروين، لاشك في أنه استاء منها ، مثال ذلك الفاشية التي استخدمت فكرة الانتقاء الطبيعى ، او بقاء الاصلح لتبرر تصفية اجناس

بعينها . وبنفس هذه الطريقة دافع عن الحروب بين الامم ، بأنها وسيلة لايادة الضعفاء واستمرار بقاء الاقوياء . كذلك حشرت الداروينية بواسطة أنصار الماركسية لتطبيقها على تنازع الطبقات ، كما بررت جماعات الاعمال الوحشية ، بواسطة الداروينية طرق اباداة المجتمعات الصغيرة لنفس الاسباب .

ولما كان داروين دقيق الملاحظة والتجارب بصورة خارقة ، فقد بقى مؤلفه راسخا في معظم أحواله عندما اتسع نطاق المعارف العلمية . ورغم أن نظرياته قد عدلتها اكتشافات العلوم الحديثة، فإنه نجح في التنبؤ بصورة مدهشة ، بالأراء السائدة الآن في علم الوراثة والحفريات ومجالات عديدة أخرى .

جاء تقدير آخر لمكانة داروين السامية في تاريخ العلوم من عالم احياء عظيم آخر هو جوليان هوكسلى Julian Huxley حفيد زميل داروين وصديقه والمدافع عنه ، فقال جوليان :

« وضع مؤلف داروين ... عالم الحياة في نطاق القانون الطبيعى . لم يعد من الضروري أو من الممكن أن نتصور أن كل نوع من الحيوان أو النبات قد خلق خلقا خاصا ، ولا أن طرقه الجميلة البارعة في الحصول على غذائه أو الفرار من أعدائه ، قد ذكرت فيها قوة خارقة ولا أن هناك غرضا مقصودا وراء هذه العملية الثورية . فاذا كانت فكرة الانتقاء الطبيعى صحيحة ، فإن الحيوانات والنباتات والانسان نفسه ، قد صارت الى ماهى عليه الآن بأسباب طبيعية ، عمياء وتلقائية ، كتلك التى تحدث لتشكيل هيئة الجبل ، أو التى تجعل الارض والكواكب الاخرى تدور حول الشمس في افلاك اهليلجية . ينتج التنازع الاعمى للبقاء وتنتج عملية الوراثة العمياء تلقائيا لانتقاء اكثر الانواع ملائمة للبقاء ، ولتطور الاجناس نحو التقدم .

مكننا مؤلف داروين من أن نرى مركز الانسان وحضارتنا الحالية ، في نور حقيقى . ليس الانسان سلعة فرغ من صنعها ، فصار غير قابل للتقدم أكثر من ذلك . ان وراءه تاريخا طويلا ، ليس تاريخا نحو التقهقر والهبوط ، وانما هو نحو الصعود . وأمامه امكان التطور التقدّمى أكثر مما هو عليه . وزيادة على ذلك ، ففى ضوء التطور ، علينا أن نتعلم أن نكون أكثر صبرا . بالقياس الى المليون سنة التى عاشها الانسان على الارض ، والالف مليون سنة لتقدم حياته . وبوسعنا أن نتذرع بالصبر عندما يؤكد لنا علماء الفلك أن أمامنا على الأقل ألف مليون سنة أخرى لتتطور فيها تقدّميا الى صور سامية جديدة .

١٥ - العالم النفساني للاواعي

سيجموند فرويد Sigmund Freud

تفسير الاحلام

اتفق على ان علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الأخرى في أنه اكثرها غموضا وأعظم لفز بينها ، وأقل جميع العلوم قابلية للبرهان العلمى . ففى طبيعة الاشياء ، لا مفر من الزوغان وعدم قبول التكهن ، لأن العالم النفساني يتناول أعظم الظواهر الطبيعية غموضا . فأية نظرية فى الكيمياء أو فى علم الفيزياء ، يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحة أية نظرية فى علم النفس . ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيجموند فرويد والمحللين النفسانيين لمدة تزيد على الستين عاما .

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها ، فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث . وحتى أينشتين نفسه لم يمس تصورات معاصريه أو يتدخل فى حياتهم مثلما فعل فرويد . صاغ فرويد افكارا ومصطلحات فى محيط المناطق

المجهولة من العقل ، صارت جزءا من حياتنا اليومية . لقد أحس بأثار تعاليمه كل مجال من المعارف - الادب والفن والدين وعلم الاجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الاجرام والتاريخ ، وتاريخ حياة الافراد وغير ذلك من دراسات المجتمع والفرد .

رغم كل ذلك ، هناك بعض الحلاوة والضوء في هذه التعاليم . وقد أبدى أحد النقاد غير الاوفياء ملاحظته قائلا :

« عندما انتشرت نظريات فرويد ، ظهر امام الرجل العاظم كاعظم مفسد للسروود في تاريخ الفكر البشرى ، يحول مزاج الانسان ومرجه الى كبت محزن غريب ، ويجد العداوة في جذور الحب والضعفينة في قلب الرقة ، والزنا بالاقارب في المحبة البنية ، والاجرام في السخاء وكراهية الاب المكبوتة ، كطبيعة بشرية عادية موروثة» .

ومع هذا ، فبسبب فرويد ، تختلف فكرة الناس ، اليوم، عن انفسهم . يعتقدون ان افكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الادراك على الوعى ، والاساس الجنسى لاضطراب وظائف الاعصاب ، ووجود الغريزة الجنسية لدى الاطفال وأهميتها ، ووظيفة الاحلام ، وعقدة اوديب ، والكبت والمقاومة وقراءة الافكار ، يعتقدون ان هذه الافكار امور عادية . ثم ان عيوب الانسان كفلتات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية ، تتخذ أهمية جديدة عند النظر اليها من وجهة نظر فرويد . ومن الصعب الآن ادراك مقدار التعصب الذى كان على فرويد أن يتغلب عليه عند نشر نظرياته ، اذ كان ذلك أشد بكثير مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين .

عندما ولد فرويد في فرايبيرج Freiberg إحدى مدن مورافيا Moravia . لم يكن كتاب « أصل الجنس » قد ظهر بعد .

كان ذلك في سنة ١٨٥٦ . وكان أسلاف فرويد مثل
أسلاف كارل ماركس ، حاخامات ، بيد أن فرويد ، على
عكس كارل ماركس ، قال : « بقيت يهوديا » . انتقل فرويد وهو
في الرابعة من عمره ، مع أسرته ، الى فيينا حيث قضى كل صباه .
وتبعاً لأهم كاتب لتاريخ حياته ارنست جونز Ernest Jones
يدين لوالده تاجر الصوف ، « بارتيا به الحكيم في تقلبات الحياة
غير المؤكدة ، وعادته في ذكر مبدأ أخلاقى برواية قصة يهودية ،
وعدم اعتقاده في أمور الدين » . وعاشت والدته فرويد حتى
بلغت الخامسة والتسعين من عمرها ، شخصية جمة النشاط
واقرة الحيوية . وكان سيجموند هو مولودها البكر وابنها
المحجب . وبعد ذلك كتب يقول : « ان الانسان المتمتع بالحظوة
غير المتنازع فيها لدى أمه ، يحس طول حياته بمشاعر القاهرة ،
وهى الثقة بالنجاح الذى يحث غالباً على النجاح الحقيقى » .

اولع فرويد في أول حياته بنظريات داروين لانه أحس بأنها
« توحى بآمال في تقدم خارق لمفهومنا عن العالم » . واذا رغب في
أن يكون طبيباً ، التحق بجامعة فيينا ليدرس الطب ، ونال
البكالوريوس في سنة ١٨٨١ . واذا عين طبيب امتياز مقيماً في
المستشفى العام ، استمر في دراسة علم الأعصاب وتشريح المخ .
وبعد بضع سنوات ، حدث التغير في حظه الذى انتهى برسوخ
شهرته العالمية . صحبه زميل جائل الى باريس ليعمل تحت امره
جان شاركو Jean Charcot ، الذى كان وقتئذ أستاذاً
فرنسياً واسع الشهرة في علم الأمراض والخصائيا في الاعصاب
فحظى بالاتصال المباشر بأعمال شاركو في الهستيريا وعلاجه لها
بالتنويم الإيحائى ، ومما أعجب فرويد برهنة شاركو على « صحة
الظواهر الهستيرية ، وكثرة حدوثها للرجال ، واحداث الشلل
الهستيرى واقتباض العضلات الهستيرى بالتنويم الإيحائى » ،
ومشابهتها في مظهرها عموماً بنوبات الهستيريا الحقيقية .

غير انه لما رجع فرويد الى فيينا ، لم يستطع اقناع زملائه
الاطباء باى اساس علمى لعلاج الاضطرابات العصبية بطرق
التنويم المغناطيسى . والادهى من ذلك انه عوقب على آرائه
المتطرفة باستبعاده من معمل تشريح المخ . ومنذ ذلك الوقت
صار شخصيه منعزلة وانسحب من الحياة الاكاديمية ، وانقطع
عن حضور اجتماعات جمعيات العلماء . واثناء ممارسته الخاصة
للطب ، استمر عدة سنوات يجرى التجارب بالتنويم المغناطيسى،
ولكنه هجر ندرجيا اذ لم يخضع لتجاربه غير القليل من الناس،
ولان التنويم المغناطيسى نفسه ينتج احيانا آثارا مفاجئة على
الشخصية التى ينومها . فاستعاض عن ذلك بتطوير الطرق المعروفة
باسم «المشاركة الحرة» التى صارت منذ ذلك الوقت مهنة التحليل
النفسى الاصلى .

لاجدال فى أن فرويد هو مؤسس طب الامراض العقلية
الحديث . فقبل عصره كان طب الامراض العقلية يتناول اغراض
الجنون ، مثل انشقاق الانف ومرض العقل الجنونى الهبوطى ،
الذى يحتاج الى العزل فى مستشفى الامراض العقلية . بدأ فرويد
عمله الاكلينيكي بعلاج حالات الكبت والتنازع العصبى . وسرعان
ما استنتج أن مثل هذه التنازعات ليست قاصرة على مرضى
الاعصاب ، بل تصيب أيضا سليمى العقول . وعلاوة على ذلك ،
ليست الاضطرابات العصبية امراضا بالمعنى الصحيح ، بل حالات
نفسية للعقل . وكانت المشكلة الكبرى هى كيفية علاج هذه
الاضطرابات العقلية الواسعة الانتشار . وبناء على ملاحظاته
وتجاربه وممارسته علاج كثير من مرضى فيينا ، بنى أسس التحليل
النفسى فى أواخر ذلك القرن .

كان فرويد من أعظم كتاب العلوم الكثيرة التصانيف فى
عصرنا . فلا يمكن أن نجد مجموعة الافكار الجديدة والآراء

السيكولوجية التي خرجت من قلمه ، في اى كتاب فرد او صحيفه واحدة . ومن المحتمل انه كان ينظر الى اول مؤلف له ، وهو المؤلف العظيم «تفسير الاحلام» ، الذى صدر فى سنه ١٩٠٠ كأكثر مؤلف جيب الى نفسه ، ويضم جميع الملاحظات والآراء الاساسية تقريبا . وفى أحد مؤلفاته الاولى بعنوان «دراسات فى الهستيريا» الذى نشر فى سنة ١٨٩٥ ، ذكر اعتقاده بأن الاضطرابات الجنسية هى «العامل الاساسى واهم أسباب الاضطرابات العصبية والاضطرابات العصبية النفسية» . وهى احد احجار الزاوية فى نظرية التحليل النفسى . وفى السنوات القليلة التالية ، كتب فرويد آراءه فى المقاومة وانتقال الافكار ومشاكل الجنس فى عهد الطفولة ، والعلاقات بين الذكريات البغيضة والاهوام ، وميكانيكية الدفاع والكبت .

يبين ملخص موجز للنظريات الاساسية ، شيئا من تعقيد التحليل النفسى . فاولا ، ليست كلمة الامراض العقلية وكلمة الامراض العقلية النفسية مترادفتين . يمكن اعتبار الامراض العقلية النفسية فرعا من الامراض العقلية وتطبق عموما على اشد حالات اضطرابات الشخصية صعوبة . ثم يمكن تعريف التحليل النفسى بأنه فن علاجى لمداداة الاضطرابات العصبية والنفسية . وتبعاً لتقرير حديث ، يوجد مجرد ثلثمائة اخصائى فى التحليل النفسى من بين اربعة آلاف طبيب نفسانى فى الولايات المتحدة الامريكية .

لم يعجب العلاج الفردى فرويد الا نادرا ، واعتبر حالات سوء التكوين النفسى فى الافراد ، كأعراض الخلل الاقتصادى والاجتماعى والثقافى للعالم المعاصر . كان غرضه مهاجمة المرض جذريا .

يتفق معظم النقاد على ان حق فرويد فى الشهرة الدائرة

كتب غيرت العالم - ٢٨٩

يعتمد على اكتشافه وإرتياده للعقل غير الواعي . فقارن عقل الإنسان بجبل جليد ثمانية أنساعه مغمورة تحت السطح فقال أن معظم العقل مختف داخل اللاواعي . وتوجد تحت السطح دوافع ومشاعر وأغراض ، لا يخفيها المرء عن غيره فحسب ، بل وعن نفسه أيضا . ويقول علم النفس الفرويدي أن العقل اللاواعي هو المسيطر ، بينما النشاط الواعي مختصر الى مركز تابع ، واذ نوصلنا الى فهم الاعماق الكبيرة وغير المعروفة للعقل اللاواعي ، عرفنا الطبيعة الداخلية للإنسان . فقال فرويد أن معظم تفكيرنا لواع ، ولا يصير واعيا الا صدفة . والعقل اللاواعي هو مصدر الاضطرابات العصبية لان الفرد يحاول أن يريح ذكرياته البغيضة ورغباته الباطلة الى تلك المنطقة ، ولكنه لا ينجح الا في حفظها للمتاعب المستقبلية .

قسم فرويد النشاط الذهني للفرد على أنه يحدث على ثلاثة مستويات أطلق عليها : Id (١) الايد ، والذات ego والذات السامية superego . والايد ذات أهمية أولى . ويقول فرويد أن «منطقة عمل الايد هي الجزء المظلم غير الممكن الوصول اليه من شخصيتنا . والليل الذي عرفناه عنها، عرفناه من طريق دراسة الاحلام وتكوين أعراض الاضطرابات العصبية» . والايد هي مركز الفرائز والانفعالات البدائية ، وتمتد الى الوراثة ، الى الماضي الحيواني ، وهي حيوانية وجنسية في طبيعتها . انها غير واعية . ويستطرد فرويد فيقول : «تحتوى الايد على كل شيء موروث وكل ماهو موجود عند الميلاد وكل ماهو ثابت في تكوين الشخص» . الايد عميةا متهورة وكل غرضها هو تحقيق رغباتها وملذاتها دون تقدير للعواقب . وبنفس الفاظ ثوماس

(١) Id. لفظ مختصر من كلمة Idioplasm وهي الوحدة الوراثية
أو البلازما الوراثية أو أداة الوراثة في النواة .

مان Thomas Mann « لا تعرف اية قيم ولا خيرا ولا شرا ولا اخلاقا » .

الطفل الحديث الولادة نموذ الايد . وبالتدريج تنمو الذات من الايد اثناء نمو الطفل . وبدلا من أن تكون الذات منقادا تماما بمبدأ اللذة ، يحكمها مبدأ الحقيقة . تعي الذات العالم حولها مدركة وجوب كبح ميول الايد الجامحة منعا لخرق قوانين المجتمع وكما قال فرويد ، ان الذات هي الوسيط «بين مطالب الايد الطائشة وتحريم العالم الخارجى» . وعلى هذا تعمل الذات بمثابة رقيب على دوافع الايد وتلائمها تبعا للمواقف الحقيقية مدركة أن تحاشي العقاب أو حتى صيانة النفس ، قد تعتمد على مثل هذا الكبت . وقد ينتج عن الصراع بين الذات والايدي اضطرابات عصبية تؤثر على شخصية الفرد .

واخيرا ، هناك العنصر الثالث للعملية الذهنية ، وهو الذات السامية superego ، التى يمكن التوسع في تعريفها بالوعى . وكتب ا.ا. بريبل A.A. Brill ، وهو أعظم أنصار فرويد في أمريكا ، كتب يقول :

« الذات السامية ارقى تطور ذهنى يمكن أن يصل اليه الانسان ، وتتألف من رواسب جميع المحرمات وجميع القواعد الشخصية التى يطبعها الوالدان فى الطفل والبندائل الابوية . ويتوقف الاحساس بالوعى كلية على نمو الذات السامية » .

وتشبه الذات السامية الايد فى كونها غير واعية ، وكلتاها فى صراع دائم بينما تعمل الذات حكما بينهما . وتكمن المثل الاخلاقية وقواعد السلوك فى الذات السامية .

عندما تكون الايد والذات والذات السامية فى انسجام معقول، يكون الفرد طيب المزاج سعيدا . أما اذا صرحت الذات للايد بخرق

القوانين ، احدثت الذات السامية قلقلًا واحساسًا بالاثم وغيرهم .
من مظاهر الوعي . .

هناك عامل آخر قريب الشبه من الايد . أوجده فرويد ، وهو نظريته عن الشهوة الجامحة libidoo ، فيقول ان جميع انفعالات الايد مشحونة بصورة من «النشاط النفسى» اصطلاح على تسميته libido ، اى الشهوة الجامحة « جوهر مذهب التحليل النفسى» . ويعتبر جميع مايتعلمه المرء من ثقافة وفن وقانون ودين وغير ذلك من تطورات للشهوة الجامحة . وبينما يشار الى هذه الشهوة بأنها نشاط جنسى ، فالواقع ان كلمة «جنسى» تستعمل فى معنى واسع جدا . فتتضمن فى حالة الاطفال الحديشى الولادة اعمالا منها مص الابهام والرضاعة بالبرازة والتبرز . وفى السنين اللاحقة ، قد تنتقل الشهوة الى شخص آخر عن طريق الزواج ، وتتخذ صورة انحراف جنسى ، او يعبر عنها بخلق فنى او ادبى او موسيقى - وهذه عملية تعرف باسم «الاحلال» . والغريزة الجنسية فى رأى فرويد ، هى اعظم مصدر للعمل الخلاق .

يقرر فرويد فى اعظم نظريات التحليل النفسى جدلا ، انه تحت تأثير الشهوة الجنسية ، تنمو فى الطفل احساسات جنسية نحو والديه مستدئا بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية بشدى أمه ، فتكون لدى الطفل صلة حب لأمه ، وعندما تتقدم به السن ، ولكن فى سن مبكرة ، تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات جنسية قوية نحو أمه ، بينما يمقت أباه ويخافه كمنافس له . اما الطفلة الانثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها وتقع فى حب أبيها وتصير الام موضع كراهيتها ومنافسة لما . وبتطبيق هذه النظرية على الطفل الذكر ، يطلق عليها اسم «عقدة أوديب» التى اخذت اسمها من الشخصية الاسطورية الاغريقية القديمة

«أوديب» الذى قتل ابيه وتزوج امه . وقال فرويد ، ان عقدة اوديب موروثه عن أسلافنا البدائيين الذين قتلوا آباءهم فى ثورات الغيرة . وعندما يصل الشخص الطبيعى الى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الاوديبية . اما الافراد الضعاف فقد لاينجحون اطلاقا فى قطع الصلة بالابوين ، وبذا ينقادون الى سلسلة من الاضطرابات النفسية .

الواقع أن فرويد قرر يقول : «ان الاضطرابات النفسية ، بدون استثناء ، اضطرابات للوظيفة الجنسية» . وزيادة على هذا فلايمكن القاء اللوم على الاضطرابات العصبية فيما يختص بالزيجات الفاشلة أو شئون الحب غير الناجح لدى البالغين . بيد انه يمكن ان نعزى كل هذه الى العقد الجنسية للطفولة المبكرة . ويتطبق نظريه على مجال علم الأجناس البشرية ، استنتج فرويد فى كتابه « الشعارات والمنبوذين Totem a Taboo » أن الطبيعة والاساطير الدينية للآسان البدائي نتيجة لعقد الاب والام . وكان يعتقد أن الدين مجرد تعبير عن عقدة الاب . وبعد تحاليل مفصلة لمئات الحالات التى جاءت له للعلاج ، رفع الفريزة الجنسية والرغبات الجنسية الى دور بالغ الشأن فى تكوين الشخصية ، كما جعلهما السبب الرئيسى فى الاضطرابات العصبية . وهذا حكم رفضه بعض مشاهير اخصائى التحليل النفسى ، كما سنبين فيما بعد .

ولما أجبر المجتمع الفرد على أن يوقف الكثير من رغباته الملحة، فإنه يطوى نفسه على كثير من الكبت بطريقة غير واعية . وإذا استخدمنا مصطلح فرويد : ينجح وعى المرء فى منع «قوى اللاوعى المظلمة» التى كتبت ومنعت من الظهور مرة ثانية . ورغم هذا فان الاشخاص المصابين بالاضطرابات العصبية ، قد يعانون فترات من الاضطرابات العاطفية بسبب مثل هذه الرقابة . فيقول

فرويد : «إن من وظيفة العلاج بالتحليل النفسى أن يكشف حالات الكبت ويحل محلها حالات الحكم الصحيح التى قد ينتج عنها اما القبول واما نبذ ماسبق رفضه . وبسبب الطبيعة المؤلمة للمادة المكبوتة فقد جرت العادة أن يحاول المريض منع اكتشاف كبتة . ويطلق فرويد على هذه المجهودات «مقاومات» ويهدف الطبيب الى التغلب عليها .

نعرف الآن تلك الطريقة التى ابتكرها فرويد لتناول حالات الكبت والمقاومات ، تعرف باسم «التسلسل الحر للأفكار» - سيل من حديث العقل الواعى بواسطة مريض راقد على سرير اخصائى التحليل النفسى فى حجرة خافتة الضوء . يشجع المريض على أن يقول كل ما يدور فى رأسه بينما يتوقف عن اعطاء أى اتجاه وابع لأفكاره» . ويقرر فرويد أن طريقة التسلسل الحر للأفكار هى الطريقة الفعالة الوحيدة لعلاج اضطراب الاعصاب ، وقد حققت ماكان ينتظر منها ، وهو اظهار المادة المكبوتة الى الصورة الواعية، تلك المادة التى احتجزتها المقاومات» وقد وصف بريل طريقة فرويد مع المرضى بقوله : «حثهم على أن يظهروا كل انعكاس واع ويستسلموا الى التركيز الهادى ويتبعوا أحداثهم الذهنية التلقائية ، زيفضوا اليه بكل شىء . وبهذه الطريقة حصل اخيرا على تلك الافكار المتسلسلة فى حرية ، والتى تقود الى اصل الاعراض» . وهذه المادة المنسية التى يستخرجها المريض من العقل غير الواعى بعد مدة ربما تصل الى شهور من علاج التحليل النفسى، تمثل عادة شيئا مؤلما مقيتا ومخيفا وذمينا من الماضى ، وهى مواد يمقت المريض أن يتذكرها بوعى .

لابد ، فى مثل هذه العملية ، أن تحدث تلك الذكريات الهائلة كمية من المعلومات غير الملائمة والعديمة النفع . اذن ، يتوقف كل شىء على مقدرة الطبيب على تحليل مادته نفسيا ، تلك المادة التى،

كما اشار مختلف النقاد، يمكن تفسيرها بعدد لانهاى من الطرق . وعلى ذلك يكون ذكاء ومهارة اخصائى التحليل النفسى على جانب كبير من الاهمية الاساسية .

ومن خلال معالجة فرويد لمرضاه بالتحليل النفسى اكتشف ما أطلق عليه اسم «عامل ذى أهمية لا يحلم بها» ، وهو علاقة عاطفية شديدة بين المريض والطبيب المحلل وهذا يسمى «قراءة الافكار أو انتقال الافكار» .

لايقنع المريض بالنظر الى الطبيب المحلل النفسانى فى ضوء الحقيقة كمساعد وناصح . بل على العكس يرى المريض فى طبيبة النفسانى اعادة شخص على شىء من الاهمية فى طفولته أو ماضيه . ويعنى بهذه الاعداد « اعادة التجميع » - ونتيجة لهذا ينقل اليه مشاعر وانفعالات تنطبق بلاشك على هذا النموذج .

«يمكن أن تتفاوت قراءة الافكار بين نهايتين احدهما محبة عاطفية ذات صفة جنسية كاملة ، والاخرى تعبير منفلت الزمام من التحدى والكرهية الميريتين» . وفى هذا الموقف يكون الطبيب النفسانى المحلل «كقاعدة» ، فى موضع أحد والذى المريض ، أبية أو أمه» . ويعتبر فرويد حقيقة قراءة الافكار «خير اداة للعلاج النفسى» - بيد أن تناولها يظل أصعب وأهم جزء فى فن التجميل» . ويقرر فرويد أن المشكلة «تحل باقناع المريض بأنه يستعيد ممارسة علاقات عاطفية نشأت فى طفولته المبكرة» .

ومن انطرق المثمرة الأخرى ، التى ابتكرها فرويد للوصول الى الصراعات والعواطف الداخلية ، تحليل الأحلام ، الذى كان فرويد أول من توصل اليه ففيل عصره أعتبرت الأحلام بدون معنى أو هدف . كان كتابه «تفسير الأحلام» ، وأل محاولة للدراسة عملية جديدة لهذه الظاهرة . وقد أبدى فرويد ملاحظته بعد نشر

ذلك الكتاب بأحدى وثلاثين سنة ، «بأنه يتضمن ، حتى بعد حكمى فى هذا اليوم الحاضر، أعظم الاكتشافات التى ساعده الحظ فى ايجادها ، وأكثرها قيمة . » وتبعاً لفرويد : «يحق لنا أن نؤكد أن الحلم هو الانجاز المستمر لرغبة مكتوبه » يمثل كل حلم دراما فى العالم الداخلى « فـ لأحلام دائماً نتيجة صراع . وقال فرويد : و «الحلم هو حارس النوم » . ووظيفته مساعدة النوم ، لا أزعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغبات لا يمكن تحقيقها .

عالم الأحلام ، حسب رأى فرويد ، واقع تحت سيطرة العقل غير الواعى بالوحدة الوراثة (الايد) . والأحلام هامة لأخصائى التحليل النفسى ، لأنها تقوده الى العقل غير الواعى للمريض . وتكمن ، فى العقل اللاواعى ، جميع الرغبات البدائية والرغبات العاطفية المكبوتة من الحياة الواعية بواسطة الذات والذات السامية . والرغبات البهيمية موجودة دائماً تحت السطح، وتدفع نفسها الى الظهور فى الأحلام ، وحتى فى النوم ، تقف كل من الذات والذات السامية ، فى موقف الحراسة كرقبتين . لهذا السبب كانت معانى الأحلام غير واضحة دائماً ، وإنما يكون التعبير عنها فى صورة رموز تحتاج الى خبير يفسرها . وكرمز لا يمكن أخذها حرفياً الا ، بالطبع فى الأحلام البسيطة للأطفال . ويحتوى كتاب «تفسير الأحلام» عدة أمثلة حللها فرويد تحليلاً نفسياً .

ومن الأعمال التعبيرية للعقل اللاواعى ، أخطاء التهجمى وزلات اللسان ، وحيل شاردى الذهن . ويقول فرويد «بنفس الطريقة ينتفع أخصائى التحليل النفسى من تفسير الأحلام ، كما ينتفع من الزلات البسيطة الكثيرة والأخطاء التى يقوم بها الناس - التى يطلق عليها اسم أفعال عارضة» . فى سنة ١٩٠٤ ، فحص فرويد ذلك الموضوع فى كتابه «العلاج النفسى للحياة اليومية» .

يقرر في ذلك المؤلف ، و «ليست هذه الظواهر وليدة الصدفة . .
فلها معنى ويمكن تفسيرها . ويقنع المرء بأن يستخلص منها وجود
انفعالات ونوايا مكتوبة» . فنسيان المرء لاسم ما : معناه انه يكره
الشخص المسمى بذلك الاسم . وعندما يفوت القطار شخصا
بسبب التباس في جدول المواعيد ، فقد يدل ذلك على انه لا يرغب
في ركوبه . والزوج الذى يفقد مفتاح بيته او ينساه ، قد يكون
غير سعيد في بيته ولا يرغب في العودة اليه . يمكن لدراسة مثل
هذه الهفوات أن تقود اخصائى التحليل النفسى الى متاهات العقل
اللاواعى .

يمكن الحصول على نفس المنطلق من النكات التى سماها
فرويد «خير صمام أمن أنتجه الانسان العصرى» اذ من خلالها
نتحرر مؤقتا من حالات الكبت التى يريدنا المجتمع المؤدب أن
نخفيها .

ربما كان بسبب احساس محذر سابق ، او تخلص من
الاوهام متزايد ، او منتهى التشاؤم ، ان صار فرويد ، في اواخر
أيام حياته ، مشغولا «بغريزة الموت» . انتهى به الأمر الى اعتبار
هذه الفكرة على قدم المساواة فى الاهمية مع « الغريزة الجنسية »
فقرر فرويد أن هناك غريزة موت تسوق جميع المواد الحية الى
العودة الى الحالة غير العضوية التى جاءت منها . وتبعاً لهذا
الراى تتجاذب المرء باستمرار قوتان : قوة الحث على الحياة وهى
الغريزة الجنسية ، وقوة مضادة أخرى هى الحث على الهلاك او
الابادة ، وهى غريزة الموت . وبطبيعة الحال ، تتغلب فى النهاية
غريزة الموت . وهذه الغريزة هى المسئولة عن الحرب وعن انواع
السادية كالتعصب ضد الاجناس والطبقات والمتعة الشديدة فى
المحاكمات الاجرامية ومصارعة الثيران ، والاعدام بدون محاكمة .
وبالاختصار، كل ما سبق ذكره هو النقط الرئيسة فى نظرية

فرويد . وقد انقسم علماء النفس اليوم الى معسكرين او ثلاثة معسكرات متعارضة ، يؤيد البعض فرويد ، ويعارضه بعض آخر . وحتى تلاميذه ، عدلوا قبولهم المطلق لنظرياته في الخمسين سنة الماضية ، وها هو الفريد ادلر : Alfred Adler ، أحد أتباعه المبكرين ، ينشق عن المعسكر الفرويدي لاعتقاده أن فرويد أكد الغرائز الجنسية أكثر من اللازم . وكمذهب بديل ، أخذ أدلر يعلم أن رغبة كل إنسان في إثبات تفوقه هي ينبوع الأساس في السلوك البشري . وقد أنشأ فكرة «مركب النقص» الذي يضطر الفرد الى النضال لإبراز نفسه في نشاط ما . ومن مشاهير المنشقين الآخرين : كارل جونغ Karl Jung أحد مواطني مدينة زيوريخ ، الذي حاول أيضا أن يقلل من دور الجنس . قسم جونغ البشرية الى نوعين نفسانيين : أحدهما مقلوب من الداخل الى الخارج ، والثاني مقلوب من الظاهر الى الباطن ، ولو أنه أدرك أن كل فرد خليط من النوعين وعلى نقيض فرويد ، أكد جونغ عوامل الوراثة في تكوين الشخصية . وعلى العموم ، فإن نقاد فرويد يخالفونه في بعض النقاط ، مثل إصراره على الأهمية الأولى للاضطرابات النفسية في عهد الطفولة ، واتهامه الناس بأن تتحكم فيهم الغرائز البدائية الصارمة ، وعلى تصعيده الشهوة الجنسية الى مركز رئيسي في تكوين الشخصية . كذلك يخالفه البعض في اعتقاده أن التسلسل الحر للأفكار طريقة لا تخطيء لارتداد العقل الباطن ، مبرزين ، بنوع خاص ، صعوبة تفسير المعلومات الناتجة عن هذه الطريقة .

ومع ذلك ، فكما لاحظ أحد علماء النفس :

«لم تقلل التغيرات ولا التطورات التي حدثت في خلال ستين عاما ، بحال ما ، من مركز فرويد أو نفوذه . لقد فتح مملكة العقل الباطن ، وأبان كيف أنه يساعد في جعلنا على مانحن عليه ، وكيف

نصل الى ذلك . وكان لابد لكثير من آرائه واستنتاجاته من أن يعدلها من يأتي بعده في ضوء المزيد من التجارب . ويمكنك أن تقول ان خلفه كانوا يكتبون «عهدا جديدا» في طب الامراض العقلية ، ولكن سيجموند فرويد كتب «العهد القديم» وسيظل عمله أساسا في ذلك المجال» .

انا ندين لفرويد بالكثير من نظرتنا الحديثة الى الجنوب . وهناك ميل متزايد الى تقرير ان « مرضى الاضطرابات العقلية مثلنا ، بل وأكثر من كونهم مثلنا» . وقد أكد الكسندر رايد مارتين Alexander Reid Martin ، انه : « سواء أعلن أو لم يعلن ، فان جميع مستشفيات الامراض العقلية والامراض النفسية . تستخدم عناصر علم النفس الفرويدي ونظرياته الأساسية . وماكان يعتبر من قبل عالما غير معروف ومخيفا وغامضا وعديم الهدف وبلا معنى ، أصبح عن طريق فرويد عالما نيرا وزاخرا بالمعاني وجذابا وممتعا ومعتزفا به ، ليس في الطب فحسب ، بل وفي جميع العلوم الاجتماعية .

أوحظ اثر الفكر الفرويدي على الادب والفن بنفس القدر . ففي عالم الخيال والشعر والدراما وغيرها من الصور الادبية الاخرى ، ازدهرت آراء فرويد في السنوات الحديثة . وقد أبدى برنارد دي فوتو Bernard de Voto رأيه بقوله : «ما من عالم طبيعي آخر كان له على الادب مثل ذلك الاثر القوي والواسع الانتشار» فلم يكن اثره اقل عمقا على التصوير والنحت وعالم الفن عموما .

من الصعب احصاء ما سهمت به عبقرية فرويد في معارفنا من نظريات وآراء متعددة النواحي ، وذلك بسبب اتساع مجالاته المتعبة الشاقة وطبيعة اكتشافاته المتعددة الاتجاهات . وقد قام

الكاتب الانجيزى روبرت هاملتون Robert Hamilton بمحاولة ،
فاستنتج مايتى :

« وضع فرويد علم النفس فى الخريطة . كان عالما مكتشفاً عظيماً ، ويعزى الكثير من نجاحه الى طرافته واسلوبه الادبى . ورغم كون طريقته لاتعتمد على شىء ملموس ، فما من طريقة خارج الادب البحت كانت اكثر امتاعاً وطرافة وذات أسلوب جذاب . لقد جعل العالم يفكر نفسياً - وهذه ضرورة اساسية لعصرنا ، واجبر الناس على ان يسالوا انفسهم اسئلة حيوية لصالحهم البشرى . فمن قضايا علم النفس الاكاديمى العقيم للقرن التاسع عشر ، أنتج النظريات المضادة فى التحليل النفسى بسلبياتها المظلمة . »

تناول أحد مشاهير الطب النفسى الأمريكين، وهو فريدريك ورتام Frederic Wertham ، من وجهة نظر أخرى ، فكتب يقول :

« يجب على المرء أن يوضح أنه زيادة على الكثير من الحقائق الاكلينيكية الجديدة عن المرضى الذين لاحظهم فرويد ، فانه أحدث ثلاثة تغييرات فى التمهيد لدراسة الشخصية والعلاج العقلى . اولها الكلام عن العمليات السيكلوجية جميعاً ، والتفكير فيها بمنطق العلوم الطبيعية . لم يكن هذا ممكناً الا عندما قدم فرويد الفكرة الواقعية عن العقل الباطن والطرق العملية لفحصه. وثانيها تقديمه لبعد جديد للعلاج السيكلوجى : الطفولة ، قبل فرويد مارسوا طب الامراض العقلية كما لو كان كل مريض هو آدم - الذى لم يكن طفلاً قط . وثالثها هو افتتاح الفهم النوعى للغريزة الجنسية . كان الاكتشاف الجديد هنا ، هو انه ليس للأطفال حياة جنسية وانما للغريزة الجنسية طفولة . »

أصدر أ . أو . تانسلى A.O. Tansley حكماً مماثلاً آخر ، فى تقرير عن موت شخص أعد للجمعية الملكية بلندن :

«تغدو الطبيعة الثورية لاستنتاجات فرويد عندما نتذكر انه كان يفحص مجالا لم يرتده أحد قبله اطلاقا ، وهو منطقته من العقل البشرى لم ينفذ اليها أحد من قبل ، واعتبرت مظاهرها الواضحة غير قابلة للتفسير ، او انها انحرافات فاسدة ، او تجاهلها العلماء لانها تقع تحت أقوى المحرمات البشرية . ولم يدرك مجرد وجود هذا المجال - فاضطر فرويد الى فرض حقيقة وجود منطقة لاواعية بالعقل ، ثم محاولة اربادها بالتفكك الواضح فى سلسلة الاحداث العقلية الواعية .

واخيرا فرود وينفريد أوفر هولستر Winfred Overholster انه : « هناك سبب قوى للاعتقاد بأنه بعد مائة عام منذ الآن ، سيعتبر فرويد فى مصاف كوبرنيكوس ونيوتن ، كأحد الرجال الذين فتحوا افقا جديدا من آفاق الفكر . فمن المؤكد انه فى عصرنا هذا ، لم يلق أحد ضوءا على أعماق عقل الإنسان ، كما فعل فرويد » .

قضى فرويد آخر شهور حياته فى المنفى . فبعد احتلال النازى للنمسا ، اضطر الى مغادرة فينا فى سنة ١٩٣٨ ، فمنحته انجلترا حق اللجوء ، ولكن سرطان الفم تسبب فى موته فى سبتمبر ١٩٣٩ ، بعد ذاك بأكثر قليلا من سنة .

مجلس التعليم
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

١٦ - شبين العصر الذري

ألبرت أينشتاين Albert Einstein

النسبية : نظرياتها الخاصة والعامة

كان ألبرت أينشتاين أحد الأشخاص النادرين في التاريخ ،
اذ نجح في أن يصير أسطورة نسب بطولية إبان حياته . فكلما بدت
آراؤه غامضة على العلمانيين من الشعب ، زادت غرايتها وزادت
رؤيته يتكلم من علو أولمبي بعيد . وكما لاحظ برتراند راسل
Bertrand Russel بحق : « يعرف كل شخص أن أينشتاين
قد فعل شيئا مذهشا ، بينما يعرف القليلون بالضبط ذلك الذي
فعله » . ولكي نعلم ، ولو بصفة غير دقيقة ، أنه قلما يوجد عشرة
أشخاص في العالم كله يفهمون تماما نظريات أينشتاين عن الكون ،
التي تتحدى وتخدع الألوف ان لم يكن الملايين الذين يحاولون
فهم مايقوله ساحر الرياضيات العظيم ذاك .

يبدأ عدم قابلية فهم نظريات أينشتاين من الطبيعة المعقدة
والخارقة لمجال عمله . وذكرت . ١ . بريدجز T.E. Bridges ،
ان عالما انجليزيا غير معروف الاسم وصف الموقف كما يلي :

« يتناول مذهب اينشتين هذا ، النسبة بين الاحداث الطبيعية والرياضية ، اذن فلا يمكن شرحها الا بمصطلحات رياضية . ومن المستحيل تقديمها بأية صورة اخرى يمكن ان يفهمها اولئك الذين لا يلعبون بالجبر الماما متقدما » .

ويعبر جورج و . جراى George W. Gray بوجهة نظر مشابهة فيقول :

« بما ان مؤلف النظرية النسبية ، قدمها بلغة رياضية . واذا اردنا الدقة في التعبير ، فلا يمكن التعبير عنها بطريقة غير تلك ، فان هناك زعما معينا في كل محاولة لترجمتها الى اللغة الدارجة ، كما تمكن محاولة ترجمة السيمفونية الخامسة لبيتهوفن Beethoven على السكسية (Saxophone) .

ومع ذلك ، فربما أمكن اقتراح بعض مظاهر معينة من عالم اينشتين دون الاتجاه الى الرموز الرياضية . وياله من عالم خيالى يقرب رأسا على عقب تلك الافكار التى ظلت معترفا بها لعدة قرون ، «وهذا عصيد غريب يطلب من الرجل العامى ان يهضمه» . فمثلا ، يطلب منا ان نعترف بأفكار لا يمكن تصديقها ، مثل : الفضاء مقوس ، وأقرب بعد بين نقطتين ليس خطا مستقيما ، والكون محدود ولكن بغير حدود ، والخطوط المتوازية تتلاقى أخيرا ، والاشعة الضوئية تسير فى خطوط منحنية ، والزمن نسبى ولا يمكن قياسه بطريقة واحدة فى كل مكان ، وان قياس الاطوال يختلف باختلاف السرعة ، وان الارض اسطوانية الشكل وليست كروية ، والجسم المتحرك ننكمش حجما ، ولكن كتلته تزيد ، وأن هناك بعدا رابعا هو الزمن ، علاوة على الابعاد الثلاثة المألوفة وهى الطول والعرض والارتفاع .

رغم أن اينشتين قد أسهم بنظريات لاتحصى فى الرياضيات ، فان شهرته تستند أولا وقبل كل شئ على نظرية النسبية . وهذا عمل جعل بانيش هو فمان Banest Hoffman

يستنتج ان له «صفة أثرية وضعت مؤلفه بحق بين عظماء العلماء في جميع العصور، في الصحبة المختارة لاسحق نيوتن وارشميدس. اطلقت هذه النظرية بمناقضاتها المذهلة ونجاحها الظاهر ، اطلقت مخيلة الجمهور» .

بدأت ثورة اينشتين في سنة ١٩٠٥ ، فظهرت في صحيفة المانية عنوانها «التقويم السنوى لعلم الطبيعة Annalen der Physik في ثلاثين صفحة تحمل العنوان غير المثير » عن الديناميكا الكهربائية للجسام المتحركة « . وكان اينشتين وقتذاك في السادسة والعشرين من عمره ، يعمل موظفا بسيطا في ادارة تسجيل المخترعات السويسرية . ولد في أسرة يهودية من الطبقة المتوسطة بمدينة اولم Ulm في بافاريا ، سنة ١٨٧٩ . وعندما كان تلميذا ، لم يكن يجيد شيئا من الدروس غير الرياضيات ، ذلك المجال الذي أبدى فيه دليلا مبكرا على النبوغ . ولما ساءت الحالة المالية لأسرته ، اضطر الى أن يعول نفسه بنفسه وهو في الخامسة عشرة ، فهاجر الى سويسرا حيث استطاع الاستمرار في دراسته العلمية باكاديمية الفنون التكنولوجية في زيورخ Zurich وتزوج من زميلة له في الأكاديمية وصار مواطنا سويسريا . ولما ضن عليه بما كان يصبو اليه وهو أن يكون أستاذا جامعا، ولكي يكسب عيشه استقر في عمل يقوم فيه بعمل التقارير الأولية وتسجيل طلبات المخترعين لتسجيل اختراعاتهم . وكان يشغل وقت فراغه من العمل في دراسة مؤلفات الفلاسفة وعلماء الطبيعة والرياضيات . وسرعان ما استعد لإخراج طوفان من الافكار الطريفة في الفيزياء ، وقدر له أن يلقي ردود فعل بعيدة المدى .

قدم اينشتين في صحيفته لسنة ١٩٠٥ ، النظرية الخاصة للنسبية متحديا أفكار الانسان السائدة من الزمن وعن الفضاء

وعن المادة والطاقة . وضعت أسس هذه النظرية في موضعين أساسيين . الاول هو نظرية النسبية القائلة بأن جميع الحركات نسبية . وهناك مثل مألوف لهذه النظرية . في القطار المتحرك أو السفينة المتحركة . فالشخص الجالس في قطار ذى نوافذ مغطاة بأغطية قاتمة ، وبه قليل من الضوء ، لا تكون عنده أية فكرة عن السرعة . ولا عن اتجاه سير القطار ، وقد لا يشعر إطلاقاً بأن القطار يتحرك . والشخص الموجود في سفينة مغلقة النوافذ ، يكون في نفس الموقف . لا يشعر بالحركة الا بمصطلحات نسبية أى بالنسبة لاجسام أخرى . وعلى نطاق اوسع ، فان الحركة الامامية للارض لا يمكن الاحساس بها ان لم يكن هناك اجرام سماوية لعمل مقارنة .

أما الفرض الثانى الأينشتين فهو ان سرعة الضوء مستقلة عن حركة مصدره . فسرعة الضوء البالغة ١٨٦.٠٠٠ ميل/فى الثانية ثابتة دائما في أى مكان على سطح الارض ولا تتأثر بالمكان أو الزمن أو الاتجاه . فمثلا ، في قطار متحرك ، يسير الضوء بنفس السرعة تماما التى يسير بها خارج القطار . ومامن قوة تؤثر عليه فتجعله أسرع أو أبطأ . وزيادة على ذلك ، مامن شىء يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء رغم أن الالكترونات تقترب كثيرا من هذه السرعة . والواقع أن انضوء هو العامل الوحيد الثابت وغير المتغير في الطبيعة كلها .

قام العلمان الأمريكان ميتشيلسون Michelson ومورلى Morley في سنة ١٨٨٧ بتجربتهما الشهيرة التى وضعت أساس نظرية أينشتين عن الضوء ، وبنى جهاز بالغ الدقة لقياس سرعة الضوء بدرجة عالية من الدقة . وضعت انبوبتان طول كل منهما ميل ، متعامدتين . احدهما موضوعة في اتجاه دوران الارض حول الشمس ، والثانية في عكس اتجاه حركة

الأرض ووضعت مرآة عند نهاية كل أنبوبة . وأطلق شعاع ضوئي في كلتا الأنبوبتين في وقت واحد . ولما كان الاثير غير المرئي يملأ كل فضاء لا تشغله أجسام صلبة ، فإن أحد الشعاعين الضوئيين يشبه سباحا يعوم ضد التيار ، بينما يقارن الشعاع الآخر بسباح آخر يعوم في اتجاه التيار . ولدهشة وذهول العالمين ارتد الشعاعان معا في نفس اللحظة . فاعتبرت هذه التجربة فاشلة .

أجابت صحيفة أينشتاين في سنة ١٩٠٥ على السؤال الذي حير مينشيلسون ومورلي وزملاءهما من علماء الطبيعة . لم يعمل حساب وجود الاثير ، والواقع ان الانبوبيتين قاستا سرعة الضوء قياسا صحيحا ، والنقطة التي استنتجها أينشتاين هي أن الضوء يسير دائما بنفس السرعة ، مهما تكن الظروف التي يقاس فيها . ولا تؤثر حركة الأرض بالنسبة الى الشمس ، على سرعة الضوء .

وعلى عكس تعاليم نيوتن ، أكثر أينشتاين أنه ليس هناك شيء يسمى «حركة مطلقة» ، وأن فكرة الحركة المطلقة لجسم في الفضاء عديمة المعنى . فالجركة هي الحالة الطبيعية لجميع الأشياء . لا يوجد في أى مكان على سطح الأرض، أو في الكون شيء ما في حالة سكون تام أو سكون مطلق . فالحركة مستمرة في جميع انحاء عالمنا غير الساكن ، من الذرة المتناهية في الصغر ، الى أضخم مجرة سماوية . فمثلا ، تدور الأرض حول الشمس بسرعة ٢٠ ميل/في الثانية . وفي عالم يتحرك فيه كل شيء وليس به نقط ثابتة للمقارنة ، لا توجد أية معايير ثابتة لمقارنة السرعات والطول والحجم والكتلة والزمن الا عندما تقاس بحركاتها النسبية . أما الضوء وحده فهو غير النسبي ، وسرعته ثابتة لا تتغير بغض النظر عن مصدره أو موقع المبرر ، كما أثبتت تجربة ميتشيلسون ومورلي .

ولاشك في أن اضعف افكار اينشتين كلها فهمها وأكثرها عدم قلب للمعتقدات الموروثة ، هو نسبية الزمن . فيقرر اينشتين أن الاحداث الحاصلة في اماكن مختلفة وفي لحظة واحدة لمبصر واحد ، ليست حادثة في نفس اللحظة لمبصر آخر يتحرك نسبيا للاول . فمثلا ، اذا حكم بأن حادثين وقعا معا في وقت واحد لمبصر على الارض وآخر في قطار او في طائرة ، فالحقيقة انهما لم يقعا في نفس اللحظة . فالزمن نسبي لمركز المبصر وسرعته وليس مطلقا . وبتطبيق هذه النظرية على الكون ، فان حادثا وقع على نجم بعيد ، كانهجار مثلا ، وشاهده أحد سكان الارض ، فان ذلك الانفجار لم يحدث في نفس الوقت الذي شوهد فيه على الارض ، بل على العكس ، رغم أن سرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل/ثانية فان حدثا وقع على نجم بعيد جدا ، قد يكون حدث قبل وصول خبره الى الارض بسنوات . والنجم الذي يرى اليوم هو بلاشك نفس النجم الذي رؤى منذ زمن بعيد ، مع أنه ربما لم يعد له وجود في لحظة الرصد .

اذا أمكن أن نتصور انسانا يكتسب سرعة اعظم من سرعة الضوء ، فيحسب نظرية النسبية يمكنه أن يسبق ماضيه ويتم مولده في المستقبل . لكل كوكب نظامه الخاص للزمن ، يختلف من جداول الزمن الموجودة في كل مكان . فاليوم على كوكبنا هو مجرد فترة دوران الأرض حول محورها . ولما كان كوكب المشتري يستغرق وقتا أطول في دورانه حول الشمس عما تستغرقه الأرض ، فان السنة على سطح المشتري أطول من السنة على سطح الأرض عندما تزيد السرعة يبطيء الزمن . لقد تعودنا التفكير في أن كل جسم له ثلاثة أبعاد في الفضاء وأن الفضاء بعد للزمن ولا يمكن أن يوجد أي من الزمن والفضاء بدون الآخر ، ولذا فكل منهما معتمد على الآخر . ولما كانت الحركة والتغير مستمرين فاننا نعيش في كون ذي أربعة أبعاد ، البعد الرابع فيه هو الزمن .

وهكذا يكون التمهيدان الأساسيان لنظرية اينشتين كما قدمها منذ نصف قرن قبل ذلك ، هما نسبية جميع الحركات ، وفكرة الضوء على أنه الكمية الوحيدة غير المتغيرة في العالم كله .

لما اخذ اينشتين يطور نظرية نسبية الحركة هدم اعتقادا واسخا تماما . فقبلا ، كان الطول والكتلة معتبرين مطلقين وثابتين تحت كل الظروف الممكن التفكير فيها . فجاء اينشتين يقرر أن كتلة الجسم أو وزنه وطوله يتوقفان على سرعة تحرك الجسم . فمثلا : تخيل قطارا طوله ١٠٠٠ قدم يسير بسرعة تعادل $\frac{1}{3}$ سرعة الضوء ، فالمبصر الواقف مكانه وهو يلاحظ القطار فيترأى له طوله ٦٠٠ قدم فحسب ، ولو أنه يظل ١٠٠٠ قدم لراكب فيه . وبالمثل أى جسم مادي يتحرك في الفضاء ينكمش تبعا لسرعته . فإذا قلدت عصا طولها ياردة ، في الفضاء بسرعة ١٦١٠٠٠ ميل/ ثانية ، ينكمش طولها نصف ياردة . فلدوران الأرض ذلك الأثر الغريب في اقلال محيطها بحوالى ثلاث بوصات .

وكذلك الكتلة متغيرة . فبينما تزيد السرعة ، تغدو كتلة الجسم أكبر . ولقد أوضحت التجارب أن جزيئات المادة اذا حركت بسرعة ٨٦٪ من سرعة الضوء تزن ضعف وزنها وهى في حالة السكون . لهذه الحقيقة علاقات كبيرة بتطور الطاقة الذرية .

تعرف نظرية اينشتين الاصلية لسنة ١٩٠٥ بالنظرية الخاصة للنسبية لان استنتاجاتها تقتصر على الحركة المنتظمة في خط مستقيم ولانختص بالانواع الأخرى للحركة . وفى عالمنا ، قلما تتحرك النجوم والكواكب والاجرام السماوية الاخرى حركة منتظمة في خط مستقيم ، ولذا فان أية نظرية لاتتضمن جميع صور الحركة ، لاتقدم وصفا كاملا للكون . وبناء على ذلك كانت

خطوة اينشتاين التالية هي صياغة نظريته العامة للنسبية ، وهي عملية استغرقت عشر سنوات من التطبيق العنيف . درس اينشتاين في النظرية العامة للنسبية ، تلك القوة الغامضة التي تقود حركات النجوم والمذنبات والشهب والمجرات وكافة الاجسام السماوية الاخرى التي تدور حول الكون الشاسع .

تقدم اينشتاين في نظريته العامة للنسبية التي نشرها عام ١٩١٥ ، بفكرة جديدة عن الجاذبية محدثا تغييرات جوهرية في فكرتي الجاذبية والضوء اللتين حظيتا بالقبول العام منذ عهد السير اسحق نيوتن . اعتبر نيوتن الجاذبية «قوة» . ولكن اينشتاين اثبت ان الفضاء حول كوكب ما او جسم سماوى آخر ، مجال جاذبى يشبه المجال المغناطيسى طول المغناطيس . فالاجسام البالغة الضخامة مثل الشمس والنجوم ، يحيط بها مجال جاذبية بالغة القوة . وهكذا فسرت جاذبية الارض للقمر . كذلك فسرت هذه النظرية الحركات الخطأ لعطارد وهو اقرب الكواكب الى الشمس ، تلك الظاهرة التي حيرت علماء الفلك لعدة قرون ولم يتناولها قانون نيوتن للجاذبية بالدراسة الملائمة . ان المجالات الجاذبية عظيمة القوة لدرجة أنها تحنى اشعة الضوء . وفي سنة ١٩١٩ ، اى بعد بضع سنوات من اعلان النظرية العامة لاينشتاين ، التقط المصورون صورة ضوئية لكسوف كامل للشمس اثبتت بصفة نهائية صحة نظرية اينشتاين القائلة بأن اشعة الضوء المخترقة لمجال الجاذبية الشمسية ، تسير في خطوط منحنية وليس في خطوط مستقيمة .

نتج عن هذا التمهيد حقيقة تقدم بها اينشتاين ، تقول ان الفضاء مقوس . فالكواكب السيارة تتبع اقصر الطرق الممكنة متأثرة بوجود الشمس ، بنفس الطريقة التي يتبعها النهر في جريانه نحو البحر متخذاً سيره في الارض في اسهل طريق طبيعى . وفى

طريقة حسابنا الارضية للاشياء ، فان السفينة او الطائرة التى تعبر المحيط ، تتبع خطا منحنيا ، اى قوسا من دائرة ، ولا تسير فى خط مستقيم . لذا كان من الجلى أن اقرب مسافة بين القطبين خط منحني وليس الخط المستقيم . وتحكم قاعدة مماثلة حركات الكواكب والاشعة الضوئية .

إذا قبلنا نظرية اينشتين عن الفضاء المنحني كان الاستنتاج المنطقي هو أن الفضاء محدود . فمثلا ، اذا خرج شعاع ضوئى من نجم ما ، فانه يعود أخيرا ، بعد مئات الملايين من السنين ، الى نفس النقطة التى خرج منها ، مثله فى ذلك مثل السائح الذى يدور حول الارض . لايمتد الكون فى الفضاء الى ما لانهاية ، ولكن له حدودا ، ولو أنه لايمكن تحديد تلك الحدود .

من بين جميع الاكتشافات العلمية العظيمة التى قام بها اينشتين ، كان لافكاره عن النظرية الذرية أعظم اثر عميق مباشر على عالم اليوم . فبعد قليل من نشر مقاله الاول عن النسبية ، التى نشرت فى صحيفة «التقويم السنوى للفيزياء» ، حملت نفس الصحيفة مقالا قصيرا لاينشتين يطيل فيه نظريته الى أبعد مما كانت عليه . كان عنوان ذلك المقال «هل يتوقف القصور الذاتى لجسم ما على طاقته ؟» أكد اينشتين أنه من الممكن استخدام الطاقة الذرية - ولو نظريا على الاقل . ويمكن اطلاق هذه الطاقة تبعا لقانون صاغه اينشتين ، وهو أشهر معادلة فى التاريخ كله : $E = mc^2$ أى أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء . فإذا أمكن استخدام الطاقة الموجودة فى نصف رطل من أية مادة اطلقت ، حسب تقرير اينشتين ، قوة تعادل قوة انفجار سبعة ملايين طن من المادة المتفجرة T.N.T. . وكما أشار أحد العلقين : «لولا معادلة اينشتين لتعثر العلماء فى تجاربهم على تفثيت اليورانيوم ، ولكن من المشكوك فيه أنهم أدركوا أهميتها فى وحدات الطاقة أو وحدات من القنابل» .

برهن أينشتين في معادلته الشهيرة $E = mc^2$ على أن الطاقة والكتلة . هما نفس الشيء ولا يختلفان الا في الحال .
والواقع أن الكتلة طاقة مركزة وكتب بارنيت Barnett في تقدير وليد الذكاء ، كتب يقول : « تجيب هذه المعادلة على كثير من الغاز علم الفيزياء التي ظلت غامضة منذ امد بعيد . فهي تفسر كيف تستطيع المواد المشعة كالراديوم واليورانيوم ، اطلاق ذرات ذوات سرعة هائلة ، وتستمر في اطلاقها لملايين السنين . وهذا يفسر ، بدوره ، كيف أن الشمس وجميع النجوم تستطيع ارسال الضوء والحرارة لبلايين السنين ، لانه اذا فنيتم شمسنا بعمليات الاحتراق العادية لماتت الارض متجمدة بردا وظلاما منذ آمام بعيدة . انها تكشف مقدار الطاقة الكامنة في نواة الخلية ، وتبين عدد جرامات مادة اليورانيوم اللازم وجودها في قنبلة لكي يصبح في مقدورها أن تدمر مدينة » .

ظلت معادلة أينشتين نظرية حتى سنة ١٩٣٩ ، اذ غدا مؤلفها مواطنا في الولايات المتحدة الامريكية اذ طرده النازيون من أوروبا .
واذ علم أينشتين أن الالمان يستوردون اليورانيوم ويقومون بأبحاث لصنع قنبلة ذرية ، كتب خطابا بالغ السرية للرئيس روزفلت
Roosevelt

« وصلتني نسخ خطية عن أبحاث حديثة يقوم بها كل من
١ . فيرمي E. Fermi ول . سزيلارد L. Szilard تجعلني اتوقع أن عنصر اليورانيوم يمكن أن يتحول الى مصدر جديد هام الطاقة في المستقبل القريب العاجل ... كما تؤدي هذه الظاهرة الجديدة الى صنع القنابل ، ومن المفهوم ... أن ... قنبلة واحدة من هذا النوع ، اذا حملتها سفينة وفجرتها في ميناء ، أمكنها تدمير ذلك الميناء كله ومعه بعض الاراضى المحيطة به » .

كانت النتيجة المباشرة لخطاب أينشتين الى روزفلت ، ان بدأ مشروع صنع قنبلة مالهاتان Manhattan الذرية . وبعد ذلك بحوالى خمس سنوات فجرت أول قنبلة الماجوردو Almagordo بولاية نيو مكسيكو New Mexico . وبعدها بمدة وجيزة حدث التدمير الذريع الذى احدثته قنبلة ذرية اسقطت فوق هيروشيما Hiroshima ، وكانت السبب فى سرعة انتهاء الحرب مع اليابان .

رغم ان القنبلة الذرية كانت أبرز التطبيقات العملية لنظريات أينشتين ، فان الذى وطمده شهرته ، هو انجاز شهر آخر . فمع نظريته الخاصة عن النسبية لسنة ١٩٠٥ ، كان هناك قانونه الضوئى الكهربى photo electric ، الذى يفسر الاثر الضوئى الكهربى الغامض الذى مهد الطريق لمجىء التليفزيون والسينما الناطقة و «العين الكهربائية» المعروفة بالعين السحرية التى لقبت استعمالات شتى فى كثير من المجالات . وبسبب هذه الاكتشاف منح أينشتين جائزة نوبل فى الفيزياء لسنة ١٩٢٢ .

دأب أينشتين فى أواخر سنى حياته على العمل بجهد وبغير كل لتأليف النظرية المعروفة بنظرية المجال الموحد ، محاولا البرهنة على انسجام وانتظام الطبيعة . وتبعاً لرايه ، يجب تطبيق القوانين الطبيعية للذرة الدقيقة على الاجسام السماوية الضخمة ، فان نظرية المجال الموحد تدمج كافة الظواهر الطبيعية فى قاعدة واحدة . فالجاذبية والكهرباء والمغناطيسية والطاقة الذرية كلها قوى تشملها نظرية واحدة . وفى سنة ١٩٥٠ ، بعد أبحاث دامت أكثر من جيل ، قدم أينشتين هذه النظرية للعالم ، وعبر عن اعتقاده بأن مفتاح الكون فى هذه النظرية . اذ تجمع فى فكرة واحدة بين لا نهائية الصفر ، وعالم الذرة الدوار ، واتساع مدى الفضاء الملىء بالنجوم . وبسبب الصعوبات الرياضية ، لم تختبر هذه النظرية تماماً تبعاً

للحقائق الثابتة في علم الفيزياء . ومع ذلك ، فقد كان لدى أينشتاين اعتقاد راسخ بأن نظريته عن المجال الموحد ستقدم في وقت ما تفسيراً «للصفة الذرية للطاقة» وتبرهن على وجود عالم جيد التنظيم .

شرح أينشتاين الفلسفة التي أوحى اليه وقادته خلال عشرات السنين من المجهود الذهني العنيف ، وماتج عن ذلك من نتائج اثابته على كل هذه الجهود . شرح تلك الفلسفة في محاضرة عن أسس النظرية العامة للنسبية . القاها في جامعة جلاسجو سنة ١٩٣٣ ، قال فيها :

« تكاد النتائج الأخيرة تبدو بسيطة ، فان أى طالب جامعى ذكى يستطيع فهمها دون عناء كبير . ولكن سنوات البحث في الظلام عن حبيقة نشعر بها الانسان ولايمكنه التعبير عنها ، والرغبة الشديدة وتبادل الثقة والشك حتى يشق المرء طريقه الى الوضوح فالفهم ، لايعرف كل هذه ، الا من مارسها بنفسه» .

وفي مناسبة أخرى ، قدم أينشتاين الدليل على الناحية الروحية العميقة لطبيعته بهذا القول :

« ان أجمل وأعمق عاطفة أو انفعال يمكن أن ينتابنا هو الاحساس بدافع خفى نحو وجود شئ غامض . انه الذى يبدو بدور جميع العلوم الحقيقية . ومن كان هذا الانفعال غريبا عليه . فمعرفة ان ما لا يمكننا التغلغل في غوامضه ، موجود فعلا ومعبر عن وجوده كأسمى حكمة وكأعظم جمال يتالق لاستطيع مواهبنا الخاملة على فهمه الا في صورتها المتناهية البدائية - هذه المعرفة وهذا الاحساس كامنان في وسط التدين الحقيقى» .

اعترف بمدد لا يحصى من العلماء بفضل أينشتاين . وتبرهن

بعض نصوص استعراضاته الحديثة عن مستقبله ، على سيطرته
الفريدة على دنيا العلوم . فكتب بول اويهزر Paul Oehser يقول :

« السيطرة كلمة ضعيفة لتوصف بها اعمال ألبرت أينشتين .
فالنظريات التي قدمها نظريات ثورية . ولد فيها العصر الذرى
ولانعرف الى اية ناحية تقود الجنس البشرى . ولكننا نعلم علم
اليقين أن هذا هو اعظم عالم وفيلسوف فى القرن العشرين ، كاد
أن يكون قديسا فى نظرنا ، وقد حققت أعماله ثقتنا فى العقل
البشرى ، وهى رمز للطموح الأبدى للانسان وطلبه الوصول الى
النجوم .

وقال العالم بانشى هوفمان Banesh Hoffman

« لاتكمن أهمية آراء أينشتين العلمية فى نجاحها العظيم
فحسب ، فان اثرها السيكلوجى قوى بنفس الدرجة وفى حقبة
ناقدة فى تاريخ العلوم ، برهن أينشتين على أن الافكار التى ظلت
مقبولة منذ امد بعيد ، ليست مقدسة . وكان هذا أكثر من أى
شئ آخر هو ما حرر مخيلة الناس أمثال بوهر Bohr ،
ودى بروجلي de Broglie وأوحى الى انتصاراتهم الجريئة
فى مملكة الجملة . فأيضا أدونا بصرنا ، فان فيزياء القرن العشرين
تحمل الطابع الذى لا يطمس لعبقية أينشتين .

دار الكتب العرب للطباعة والنشر
بالمطبعة

دار الكائبة العربى للطباعة والنشر
بانتامى

